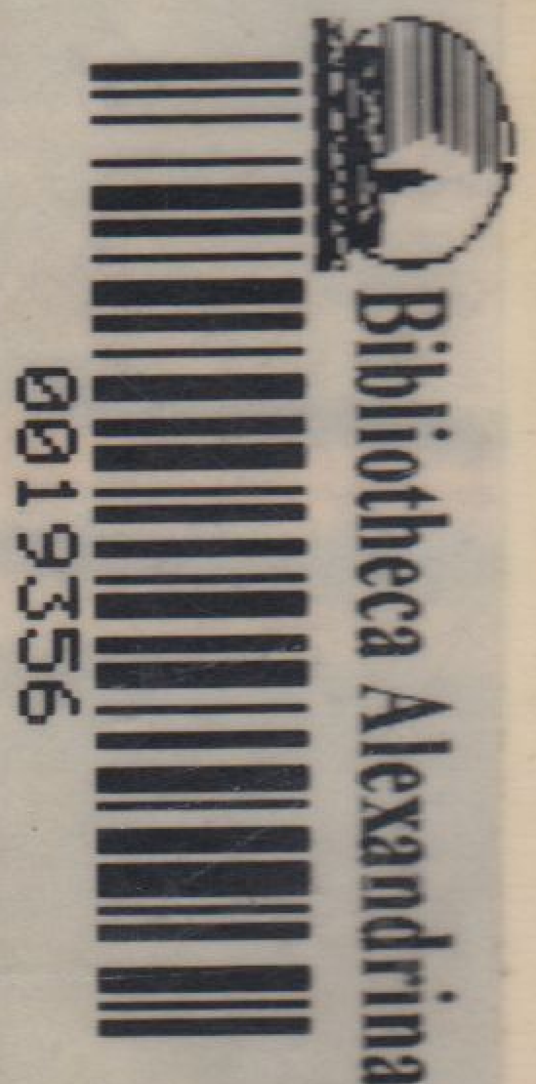
الذكرى المئوية لوفاة الشدياق

عماد الصلح

أحمد فارس الشدياق

آثاره وعصره



عمّاد الصّلح

أحمد فارس الشّدياق

آثاره وعصره

الطبعة الثانية
معدلة ومنقحة
١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ

تقـديـم

بقلم الدكتور جبور عبد النور

في السابع عشر من شهر كـانون الثـاني سنة ١٨٨٢ بعث قنصـل فرنسـة العام في بيـروت برسـالة إلى رئيس مجلس الـوزراء جاء فيهـا : « أبلغني موظفـو قنصليـاتنـا عـلى الساحل فحوى بلاغ سرِّي أذاعه الوالي على الحكام ، يطلب فيه إشراك كبار الموظفين في الجريدة العربية « الجوائب » الصادرة في الآستانة . ويطلب إليهم أيضاً إذاعة أعداد منها في المنـاطق التي لا يتأتى لهم فيهـا فرض الاشتـراكات ، وذلـك لأنها أفضل الجـرائـد في الدفاع عن حقوق الوطن ، على أن تحسم قيمة الاشتـراكات من المـرتبات الشهـرية » . وعلَّق القنصل العام على البلاغ بقوله : « لا أحد يجهل في سورية المصدر الذي تستوحي منه هذه الصحيفة موقفها . فالحملة الشعواء التي شنتّها على النفوذ الفرنسي في أفريقيا ، والتهم الملفَّقة الشنيعة التي تتضمنها ضد حكومة الجمهورية ورجالها والجيش الفـرنسي ، تثير بين السكـان في سوريـة ، ولا سيما في بيـروت ، تعليقات ليست في صـالحنا ، وقـد تؤدي في المستقبـل إلى نتائـج وخيمة . . . ولا بـد لي من الاشـارة هنـا إلى أن السلطان نفسه هو الذي يوحي إليها بهذه الحملة ، وان الحكومة ترعاهـا بعنايتهـا » (وثائق وزارة الخارجية الفرنسية) .

ما العصا السحرية التي بدّلت أحوال الشدياق ، صاحب « الجوائب » فحولته من متسكع في أزقة باريس ، شاكٍ من البيوت الحقيرة التي نـزلها هنـاك ، ومنتقل إلى تـونس لحـل أزماتـه الماليـة ، وربما النفسيـة ، وقانـع بمقام متـواضع في قلم من أقـلام الـدولـة العثمانية ، إلى بعبع تخشاه أقوى الدول آنذاك ، ويحسب له القنصل الفرنسي العام ألف حساب ، بعد أن خافه رجال السلك الخارجي في الاستانة ؟

هذه الدراسة للدكتور عماد الصلح تفكّ اللغز ، وتسلط على شخصية الشدياق الفذّة أضواء كاشفة ، وتعيّن ، في دقة تقرب من البرهنة الرياضية ، المحطات التي إجتازها ابن حدث بيروت ليصل ، بعد طول المطاف ، ومرارة الجهاد ، إلى مكانته الأثيرة في عاصمة السلطنة العثمانية ، وتعيد إليه ، في الفصول المتعلقة بتفاصيل سيرته ، وأخبار جريدته ، وذكر آثاره المتعددة الموضوعات ، إعتباره الأدبي ، وتبوؤه المكانة اللائقة به ، بعد أن تألبت عوامل شتى على مسخ ملامحه ، والتنقص من قدره ، وتشويه أثره الفاعل خلال خمسين عاماً من القرن التاسع عشر . فالأعاصير الدينية التي عصفت بحياته ، واستثارت العصبيات ، ورسَّخت الحقد عليه ، حاولت طمس مواهبه وفتوحاته الثقافية والفكرية . وكان الشدياق ، في مخالقته الناس ، وفي الدفاع عن مكتسباته المحارِب على عدة جبهات ، الذرب اللسان ، النقادة ، الهدام ، الناقم الذي يوقد نار الخصومة ، كأن هوايته الأولى في حياته هي الاكثار من الأعداء والمغالاة في تضريتهم ، متخذاً من تألبهم عليه عنوان فخار ، أو محركاً لبواعث صنيعة الأدبي . فلقد عاش ليجرح ، ويدمي ، ويصرع ، فما كان من أعدائه ، وأبنائهم وأحفادهم وأنصارهم ، من بعد ، إلاّ ان حاربوه ، وانتقموا لسلفائهم بإسدال ستار الصمت على كل ما يتعلق به ، محاولين ، قدر استطاعتهم ، سدّ منافذ الطريق الموصلة إليه .

لئن لم يكن الصديق الدكتور عماد الصلح أول من تصدّى لهذه الشخصية المذهلة في تعدد وجوه نشاطها ، وأفاد ممن عُني بها من أمثال يوسف ابراهيم يزبك ، ومحمد يوسف نجم ، ومارون عبود ، ومحمد أحمد خلف الله ، ومحمد عبد الغني حسن ، وبولس مسعد ، وانطونيوس شبلي ، وسواهم من الباحثين والمحققين والمدققين ، فإنه جاءنا في صفحاته بغلّة ثمينة أغنى بها المحصول السابق ، وزاد مداميك جديدة في البناء الذي بدأه سواه . فقد أقدم ، من حيث المنهجية العامة ، لتأمين المادة الضرورية لعمله ، على تحري آثار الشدياق المطبوعة والمخطوطة ، واستنطاق رسائله ووثائقه ، مستكشفاً ما فيها من شذرات تسد الثغرات ، وتصحح الأخطاء ، وتوضِّح الغوامض ، وترسم معالم الشخصيات المتنفِّذة التي ارتبطت بها مسيرة صاحبه ، وتسقط أوهاماً عالقة بأذهان الناس عنه . وبيَّن لنا أن الرجل الذي تعبَّد للغة العربية وللمرأة معاً ، كان في جميع أطواره ، قلقاً على رغيفه ومصيره ، وان الهاجس الآسر المسيِّر له ، والباعث لكل تصرف من تصرفاته هو السعي الدائب اللاهث وراء الرزق ، وتأمين سبل العيش ،

متقيداً بالنهج الذي اقتصر عليه معظم مشاهير عصره في التقرب من أصحاب السلطة والثروة لشق السبيل إلى الترفُّه والاطمئنان إلى الغد ، حتى ليحق لنا القول ، بلا مغالاة ، إنه كان أكثر أُدباء العرب في القرن الماضي تولُّعاً بالسفر ، لا يستقر به الحال في مكان حتى يجهِّز نفسه للرحيل ، كأن اختراق الآفاق ، في لا وعيه ، خطوات كُتبت عليه للوصول إلى تحقيق آماله .

في يقيني إن قراءة هذا الكتاب مفضية ، من حيث سيرة الشدياق ، إلى نتيجتين اثنتين ، كلّ منهما في غاية الأهمية . الأولى إقرار حقائق ثابتة وتدعيمها بنصوص مستقاة من مصادر أولية عربية وأجنبية ، مسلَّم بها نهائياً ، والثانية وضع صوى في طريق مؤدية ، بعد إبتعاث الماضي في تركيبته المعقدة ، إلى استجلاء جوانب ما تزال واقعة في نطاق التخمين وقابلة للاجتهاد والتأويل ، ولا سيما الحقبة بين سنتي ١٨٥٧ و ١٨٦٠ ، والعلائق الظاهرة والخفية التي شدّت الشدياق إلى الامبراطورية البريطانية ، وطبيعة ولائه العثماني ، وبواعث إنتقال إبنه سليم إلى تونس ، ثم اصدار « الجوائب » في مصر بعد الاحتلال البريطاني . . . وسواها من الخطوط المتممة لسيرة الرجل . وأما من حيث المضامين فأبرز ما جاء به الكتاب هو التبسُّط في ميادين خاضها الشدياق ، وبذل فيها أقصى الجهد ، فكان مبدعاً ومتألقاً ، أعني **الدراسات اللغوية** ، وما دار في فلكها من آثار ، ومناظرات ، وخصومات ، **والصحافة** ، وما اقتضته من مهارة في معالجة الساسة المحلية والعالمية ، والتوفيق بين المصالح المتعارضة ، وتحاشي الأرتطام بالرؤوس الكبيرة .

فالكتاب قد كشف لنا عن ظاهرة طالما طالعت قراء الشدياق القدامى والمعاصرين الذين أكبُّوا على نصوصه ، أي **شغفة بالعربية** ، ومحاولته تجديدها ، ونقده المتطفلين عليها ، والسابحين في بحارها ، وسعيه لأكتناه أسرارها ، وكشفه الأستار عن محاسنها ، وبالتالي تقريبه منالها بحيث تحتل المكانة اللائقة بها . والواقع أنه قد خص العربية بأبحاث تقع في مئات الصفحات إذا قيست بما كتب في الرحلة ، وفي الصحافة ، لبلغت ، من حيث الحجم ، نصف ما أنتج طول حياته ، أو تجاوزت هذا المقدار . فله فيها « سرّ الليال في القلب والابدال » ، و « غنية الطالب ومنية الراغب في الصرف والنحو وحروف المعاني » و « الجاسوس على القاموس » ، و « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » الذي وضعه في مجلدات عدة ، واحترقت مخطوطته ، و « التقنيع في علم البديع » . وزخر كتاب « السّاق » بقضايا لغوية في غاية الأهمية ، احتلت فيه

مكاناً مرموقاً إن لم نقل مقام الصدارة ، بحيث تحول إلى خليط من السيرة الذاتية ، والرحلة ، والدراسة اللغوية . وظل قلب الشدياق عالقاً بالعربية وشؤونها ، فندرت في مرحلته الصحافية ، أعداد من « الجوائب » لا يحلّيها بتعليقات في الاشتقاق ، أو المجاز ، أو النحت ، أو القلب والابدال ، أو التعريب . وقد رافقه هذا الهوى منذ حداثته إلى آخر سني حياته . ولو سئل الرجل ، وهو في أوج مجده ، عن الصفة التي يؤثرها لنفسه ، ويغلّبها على سواها ، لما اختار سوى صفة اللغوي ، لأعتقاده بأن ما كتبه في الفنون الأخرى عابر ، يثير الأهتمام في حينه ، ثم ما يعتّم أن يخف أثره بزوال المناسبة التي قيل فيها . وأما المباحث اللغوية فهي ، في رأيه ، باقية ما بقيت العربية حية تنطلق من ألسنة أبنائها ، أو تسيل من شقوق أقلامهم . وقد يكون آمن في قرارة نفسه ، في مرحلة متأخرة من نشاطه ، بأن العربية أسلمته زمامها ، فأصبح عارفاً بمكامن طاقاتها ، مطّلعاً على حسنات قدامى اللغويين وسيئاتهم ، وعلى المصيب من كلام المحدثين والناشز منه ، وإنه بذّ من جاء قبله ومن عاصره ، وربما سدّ الطريق على الأجيال الآتية . وقد يكون هذا الشعور بالتفوق إنتابه آنذاك في معظم المواقف التي إتخذها ، والمباحث التي عقدها ، فادّعى حيناً أنه المرجع الذي تُستقى منه صحة الكلم ، وزعم أحياناً أنه اهتدى إلى أمور قُذفت في صدره كأنها وحي نزل عليه من العالم الآخر . وذهب طوراً إلى إسقاط حمم من المترادفات وأشباهها المستخرجة من مدافن المعاجم ليبهر قارئه ، ويقحمه في دوامة من غريب اللفظ ، وعجيب الاستعمال ، وتصدى طوراً آخر لرجال شهروا بمعرفتهم العربية وتبحرهم في علومها ، فأشعل نار الحرب في وجوههم ، وآثار الخواطر في الندوات والبيئات الصحافية ، وعبّأ الأقلام في الدفاع والهجوم ، وحرك القرائح ، ودفع ، من حيث لا يعي ، طلاب العربية إلى تجهيز نفوسهم بالعَصيّ من قواعدها ، والشارد من سننها ، ليكونوا في المعارك المرتقبة في مستوى القتال .

واستحضرت هذه الدراسة ، ببراعة فائقة ، الخطوات المتعثرة الأولى في دنيا الصحافة العربية ، وجَلّت صفحة مجيدة من تاريخها ، عند إنطلاق اللبنانيين في معاناتها ليصبحوا في الربع الأخير من القرن الماضي فرسانها المجلين في عدد من العواصم والحواضر الشرقية والغربية . فقد أبرزت المنجزات التي حققها الشدياق الصحافي ، وصورته جائلاً في دنيا لا حدود لها إلا حدود الحياة نفسها ، مقبلاً على كل ما يحرر قارئه من جهله المتوارث وينقله إلى عالم جديد من المعرفة والاحساس بكرامته الانسانية .

واهتـدت إلى المحاور الأساسية التي دارت حـولها « الجـوائب » ما يقـارب ربـع قـرن ، واستخـرجت من صفحاتهـا الأحداث العـالمية من حـروب ، وانقـلابـات ، وثـورات ، ومصارع حكام ، وأخبار اقتصادية وعلمية وأدبية ، موضحـة كيف بدأت تتبلور ، سنـة بعد أخرى ، المقالة في مفهومها الحديث ، كاشفة أحياناً عن طموح الشدياق إلى ما وراء الآفاق القريبـة ، بتقمصه ، في سـاعات تجليـه ، شخصية المصلح الاجتمـاعي المتلمِّس عيوب الناس ، أفراداً وجماعـات وطبقات . ففي صفحـات « الجوائب » نـرى الشديـاق عـارضاً عـوامل الانهيـار ، خلقياً واقتصـادياً وفكـرياً ، محـاولاً ، في نظرة نـافذة ، رسم ملامح عـالم عثماني جـديد ، مكتمـل شروط العـافية ، قـائم على مفـاهيم حديثـة من العادات والنظم المدنية ، وأساليب متطورة في التجارة والصناعة . ونجده حيناً آخر ذاهباً إلى نهايـة الشوط ، محـدداً التمـدن بـأنـه أمـر خـطير تتـلاقى فيـه العلوم ، والمعـارف ، والفنون ، والصنائع ، والحرف ، ويرفده الكدّ وأحياء الفضائل في النفس من إنضباط في المـواعيد ، ودقـة في المعاملة ، وتـأدب في الكلام ، وإفـادة من الطاقـة الانسانيـة المادية والذهنية ، ومؤكداً أن هذا التمدن لا يكون مستعاراً ، بل ينبـع من ذات أصحابـه بعد عناء طويل ، وتربيـة موجهـة . ولقد أعـادت الدراسـة إلى الشديـاق حقه في أن يكـون طليعة ورائداً في كثـير من القضايـا التي نسبت أبوتّهـا إلى من جاء بعـده ، فركـزَّت على جرأته في الحملة على أهل العـاصمة العثمـانية الـذين يأخـذ عليهم أن دُورهم أصبحت خليـطاً من الأثاث والـرياش المتنـافر الالـوان والأشكال ، المتعـددة المصادر من أراكيـل ومتكّآت على الزي الشرقي ، وكراس وموائد ومرايا ولوحات على عادة الأفرنـج ، وأنهم استوردوا من الخارج ما هم قادرون عـلى إنتاجـه محلياً ، فجـاؤ وا بالسمن من روسيـا ، والأرز من إيطاليا ، والبطاطس من مالطه ، والسيكار من أمريكا ، والنشوق من الهند ، والزيت من مرسيليا الخ . . . حتى إن الخبز الذي يصنع في الاستانة ، والسكاكـين التي تقطعه ، والآنية التي يشرب بها الناس ، والصحون التي يأكلون فيهـا ، وفناجـين القهوة التي يفتخرون بها . . . كل هذا صناعة أجنبية ، وباعتها من الأجانب . وبينّت الدراسة أيضاً كيف ان الشدياق خاض في مراحل من حياته ، وبخاصة في « الجـوائب » ، قضية المرأة ، جاعـلاً من مشاركتهـا الرجـل في تشييد العمـران شرطـاً ضـرورياً لتحقيقـه ، والانتقال به من الحلم إلى الواقع ، نـاقداً نـظرة الرجـل إليها واعتبـارها متعـة يتلهى بها حينـاً من الزمن حتى إذا شرهت نفسه إلى سـواها سعى إليهـا ، إلى أن يجمع لـديـه في داره طائفة من النسـاء الغيارى ، وطـائفة من الأولاد الحمق ، فيتنغَّص عيشـه ، وتفسد أعماله . وقد يكون الشدياق بالغاً أقصى الوضوح في التعبير عن فكرتـه في المبدأ الـذي

اتخذه معياراً والقائل فيه : « إذا أردت أن تعرف قدر ما يحسنه المرء من الأعمال المفيدة ، والمساعي الحميدة ، فأسأل عن قدر ما عنده من النساء ، فعلى قدر كثرتهن تكون قلّة جدارته ، وعلى قدر قلّتهن تكون كثرة استطاعته » . وفي مثل هذا السياق من المواقف الجازمة الحاسمة أقوال له في التربية ، والزواج الباكر ، والاكثار من الخدم ، والمغالاة في الترف ، وتحريم الرقيق ، والاستقلال الاقتصادي ، واستثمار ثروات الأرض والقوى المعطّلة عن الانتاج ، والدعوة إلى الشورى ، والنزعة العثمانية ، والقومية العربية ، وسواها من الأبحاث التي رأت النور على صفحات الشدياق ، ثم اتخذ منها الكتّاب والصحافيون ، من بعد ، مادّة لمؤلفاتهم ، وغذاء لجرائدهم ومجلاتهم .

ما أشك في ان القارىء واجد في كتاب عماد الصلح صورة واضحة القسمات لأديب تمثّل في نتاجه كل ما عمر به عهده من أحداث عالمية حاسمة ، وإنبهار مشرقي أمام أنوار الغرب وتدفق فنونه الأدبية المستحدثة من قصة ، واقصوصة ، ومسرحية ، ورحلة ، وسيرة ، وتيارات فكرية وسياسية ، متفاعلة ومتصارعة في معركة التطور وبقاء الاصلح . فقد إرتد بنا المؤلّف إلى الجذور ، إلى المنطلقات ، وأنزل الشدياق في اطاره الحقيقي ، وأصدر بحقه أعدل الأحكام .

جبور عبد النور

مـقدمـة

جاء تعـرفـي بالشدياق عفوياً في أول الأمر وفي سياق اهتمامي بالنهضة العـربية في القرن التاسع عشر وأفـذاذها ، ثم دخـل في علاقتي بـه مع الـزمن ، عنصر المتـابعة ثم الحماسة والجهـد ، فتكونت لـه في عيني ملامـح قامـة جبارة تعلو عـلى الأنداد كـما تعلو الشجرة الباسقة حتى تنفرد بين شجر الغاب .

وقد سبقنـي في الكتابة عنه ، وإن لم يفقني إعجاباً به ، علماء ومتخصصون كبار ، وتجاذبت أطراف العبقرية الأدبية معه أقلام ساحرة كقلم مارون عبود ، غير أنـه بقي مع ذلك كثير من مراحل حياته غامضاً أو مغلقاً . وقد استـطعت أن أستجلي الخط الـواضح لسيرته من خلال مجموعة من الوثائق غير المعروفة التي كشفت لي كثيراً من أسرار حيـاته ومن المؤثرات التي فعلت في توجيهه فكراً وسلوكاً وإنتاجاً .

وليست هذه الدراسة أدبية بـل هي وثائقيـة بشكل عـام .

وبـالنسبة إلى صحيفتـه الجوائب ، أكبـر المؤسسات الصحفيـة العربيـة في القـرن الماضي فقد كان غياب الدراسات عنها نقصاً في المكتبـة العربيـة ، بل نقصـاً في التعرف على جانب مهم من فكر النهضة .

وقد استعنت على بحثي هذا بمصادر متعددة :

أولاً : مجموعة غنية ولكنها غير تامة من جريدة الجوائب موجودة في المكتبة الشرقية في جامعة القديس يوسف . ومجموعة أقـل منها عنـد السيد شـارل شديـاق ، وأقدم مـا وجدته من الجريدة العددان ١٦ و٤٣ في مكتبة المتحف البريطاني في لندن .

ثانياً : مجموعة من رسائل الشدياق موجودة عند المؤرخ الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك يبلغ عددها ٥٨ رسالة موجهة إلى أهله وإلى بعض رجال الدولة والأصدقاء وقد نشر القليل من هذه الرسائل في مجلة المكشوف البيروتية في ١٧ تشرين الأول سنة ١٩٣٨ ، وقد تلطف المؤرخ الكبير فوضعها تحت تصرفي .

ثالثاً : مجموعة رسائل للشدياق في محفوظات الدولة التونسية يبلغ عددها عشر رسائل .

رابعاً : كراس ، عنوانه « الحمد لله » بإمضاء أنطونيوس ألأميوني يشرح فيه رغبا خير الدين باشا التونسي في إنشاء جريدة ومطبعة في تونس وتعيين الشدياق لهذه المهمة ، والكراس هذا موجود في مكتبة المتحف البريطاني .

خامساً : مذكرتان في تجريح المطران أتناسيوس التتنجي وآرائه في ترجمة النصوص الدينية وقواعدها وهما محفوظتان عند السيد شارل شدياق .

سادساً : كتاب « مماحكات التأويل في مناقضات الإنجيل » وهو مخطوط محفوظ في مكتبة الأوقاف في بغداد .

سابعاً : محاضر اجتماعات « جمعية نشر المعارف المسيحية » The society for Promoting Christian Knowledge (S .P .C . lK.) وهذه المحاضر المخطوطة محفوظة في مركز الجمعية في لندن .

ثامناً : كتب الشدياق التي ألّفها أو ترجمها ، وعلى الأخص كتاب الساق على الساق . ولكن هذا الكتاب ولو أنه كتاب سيرته الذاتية ورائعته الأدبية ، إلا أنه يقف عند تاريخ كتابته أي في نحو السنة ١٨٥١ ، وقد عاش الشدياق بعد هذا التاريخ نحو ثلث قرن هي أخصب سني حياته . فحتى الشدياق صاحب أجمل سيرة ذاتية كتبها قلم عربي ظل بحاجة إلى من يروي سيرة حياته .

وقد حرصنا في رواية هذه السيرة على أن نرى الأمور كما رآها هو لا سيما ما يتعلق منها بمقتل أخيه ، وليس القصد من ذلك ذكر المأساة وأشخاصها بل عرض العناصر التي كونت شخصيته وطبعت أحكامه على الأشخاص والمؤسسات وأوضاع البلاد بالمرار والنقمة .

ع . ص

الفصل الأول

سيرة الشدياق

I

بيئة الشدياق وعصره ـ طفولته المريرة وصباه ـ قصة أسعد الشدياق واعتناق فارس البروتستانتية ـ هروبه إلى مصر ومالطة ـ محاولة تخريجه مبشراً إنجيلياً .

« في بلادنا ـ حرسها الله ـ إن ناظر المدابغ جدير بأن ينظر في جلود بني آدم ويصبغها بلون الدرّة والسوط أو يسبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة . والمحتسب خليق بأن يزن أعمال عباد الله وأموالهم في بيوتهم ويروز ما في عباب صدورهم من الخواطر والأفكار . وللحاكم أو المطران أن يسقط حق المحق لحرف أسقطه في الكلام . وللضابط أن يبيت الناس في مضاجعهم . وللشرطي أن يقبض على أي شخص كان . ولضابط العسكر أن يخترط سيفه على أي عنق سنحت له . وللبطرك أن يحرم أي شخص كان من رعيته حتى لا يعود لأحد من أقاربه وأهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته . وإلى من المشتكى ؟ وأين النصير وأين المجير ؟ »[١] .

هكذا كان لبنان في عهد الأمير بشير شهاب في عين الفتى فارس ابن المتمرد يوسف الشدياق ، المتوفى مشرداً ، وشقيق أسعد شهيد التبشير البروتستانتي الأول ، والناسخ الغض الأهاب لكتاب الأمير حيدر شهاب خزانة مظالم الرعاة في الرعية وأبناء البلاد .

ولم تكن الحقيقة تختلف كثيراً في الواقع عما هي عليه في عين فارس « عهد كانت النفوس فيه أرخص متاع ، عصر إرهابي شريعته قوة وغدر وسنته نهب وقتل » كما قال مارون عبود في كتابه « صقر لبنان »[٢] .

تولى الأمير بشير الحكم في جبل لبنان نحو نصف قرن ، كان يستتب لـه الأمر في معظم الأحيان ، ويتقلقل من تحته في أحيان أخرى ، والمصير مربوط بصفو بال والي الأيالة ، وعبودية الأمير الصادقة لمقام الولاية ، فإذا ثقلت موازين بريد المال إلى عكا حصل الأمير على خلعة الرضى وإلا ذهبت إلى من يزيد عليه من أقربائه ، فيوجهها إليه باشا عكا مع شروط الإلتزام(٣) . فترسو هكذا على الأمير المحظوظ جملة وهو يفرعها على أعوانه من الأمراء والمشايخ والوجهاء فينتشر الجباة يحصدون جيوب الرعية مع زيادة الزيادات والويل لمن يتلكأ .

وقد درج بشير الحاكم على نهج سلفه وعمه الأمير يوسف المعروف بقسوته ، وقد رُوي أنه قتل بيده شقيقه وخاله وسمل عيني الشقيق الآخر بعد أن أمَّن كلا منهم : « قبضوا على الأمير فندي وأدخلوه إلى أخيه الأمير يوسف وفي دخوله عليه نهض إليه من مجلسه وقتله بيده » . وأما الشقيق الآخر سيد أحمد فقد أحاط به الرجال و « منعوه من الهرب وقبضوا عليه وأحضروه إلى أخيه المشار إليه وفي حين وصوله قلع عينيه وحمله إلى قرية عبيه » ، وأما خاله الأمير بشير نجم فقد استدرجه إلى دير القمر « وعند وصوله إليها ودخوله على الأمير يوسف نهض فغدر به وقتله في مجلسه وقبض على مدبره عبد الله مالك وسلب أمواله وقتله بعد أن كان أطلق له الأمان وأمَّنه على نفسه ووجه الأمير بشير ابن الأمير قاسم (بشير الثاني) إلى حاصبيا للإستيلاء على أموال بشير المقتول »(*) .

هذا بعض ما يروى عن قساوة الأمير يوسف . أما الأمير بشير فيروى عنه أنه كان يصفِّي خصمه بفنجان قهوة(٢) أو بدعوة غداء . « قال الأمير بشير إلى بو عساف ـ جرجس باز ـ غداً فطورك عندي غمّة . فقبل بو عساف هذه العزيمة . وثاني يوم خرج بو عساف من داره قاصداًفطور الأمير . ولما دخل على الأمير بشير ، وما لبث إلا وقام الأمير وخرج من الأوضة وأغلق الباب وأمر الرجال أن يدخلوا ويقتلوا . وبقي هو ماسك حلقة الباب إلى أن قضي الأمر ، ثم أمر الأمير أن يخرجوا القتيل ويضعوه خارج السراية »(٥) .

وقد تأتي الضربة ، أحياناً ، بصورة خاطفة ، وقد تأتي مقسَّطة في أحيان أخرى ، والهدف واحد على كل حال : « يرخي الأمير لخصمه العنان حتى يجمع ما يجمع من

(*) كتاب الغرر الحسان في أخبار أهل الزمان ، للأمير حيدر أحمد شهاب (طبعة الجامعة اللبنانية ١٩٦٩) ص ١٤١ و١٤٢ .

أموال العباد حتى إذا رآه قد سمن واستدارت أليته نحره وصفّى أمواله ودمه واستولى على عقاره وشرد أولاده هذا إذا لم يقتلهم». « وقد تقشعر مثلي ، كما يقول مارون عبود ، إن كنت ممن قرأوا ، تاريخ أحكام هذا العهد ، وقد تلمس رأسك لتفتقده بعد خروجك من السراي » .

وقد يتساءل المرء عن سر هذه الطبائع ، ما سببها ، هل هو الرغبة في الأمن على الذات وإزالة من يقع ولاؤ هم تحت الشك ؟ أم هو الحرص على هيبة الحاكم والطاعة في الرعية ؟ قد يكون هذا الأمر أو ذاك ، ولكن هذه السهولة في ممارسة القسوة ربما كانت وليدة طبائع الإستبداد في الجهاز الحاكم . وقد كان الأمير يلقى من الوالي ما يزرع في نفسه مركّب التعويض . وكما يقول أمين الريحاني : « رجلي على رأسك يا هذا ورجلك على من هو دونك »(٦) . فينتظم هكذا سلّم المظالم وتستقيم طاعة الرعية .

وقد سعى الأمير بشير إلى تحويل جبل لبنان إلى دولة يكون هو المالك الوحيد فيها للأرض ولكنه لم يوفق(٧) . وكان الإقطاعيون يملكون نحو عشر أراضي الجبل . وأما تسعة الأعشار الباقية فكانت موزعة بين أتباعهم والأديرة والكنائس والمزارعين الوارثين .

وكان لا مفر لأبناء الطبقة الدنيا ، في ظل هذا النظام الإستبدادي من أن يعيشوا في فقر وعوز والسعيد السعيد منهم من كان يجد سيداً يئويه أو مالكاً يشغله في أرضه . وكان الفلاحون أحراراً نظرياً ينتقلون من أقطاع إلى آخر . ومع أنهم كانوا يقدمون إلى صاحب الأرض ربع المحصول أو ثلثه أو نصفه ، حسب نوع الزرع والأرض إن كانت سقياً أو بعلاً ، فلم يكن ما يتبقى لهم ليكفيهم نظراً لصغر المساحة التي كان يسمح ملاك الأراضي باستثمارها . كما أن الأعباء التي كانت على كاهل الفلاح تزيد الوطأة عليه كشراء البذار واقتناء الحيوانات للفلاحة ، فضلاً عن أدوات ومعدات أخرى إذا كان الأمر يتعلق بالحرير . وكانت الحرف قليلة التنوع ، ووسائلها بدائية . وكان ما يصنع على أيدي الحرفيين لا يتعدى استهلاك القرية لذلك عاشت هذه الطبقة في كفاف وقلة مما جعل بعضهم ، كما يقول مشاقة « يعملون في الخدمة عند الأمراء وقسم آخر يتغرب عن بلاده ليخدم عند سكان المدن »(٨) .

ولم يمنع الفقر العائلة اللبنانية من أن تتحلى بمناقب الكرامة والأنفة . والروابط العاطفية التي تشد أفرادها بعضهم إلى بعض تجعلها قوية التماسك مهما كثر عددها .

وقد يجتمع في البيت الواحد خليات عائلية صغيرة وأجيال متعددة ، فتظل العائلة

على تماسكها ويظل رب العائلة صاحب الكلمة العليا ولو انفصل أولاده عنه . والرقابة على سلوك الأفراد صارمة . وهم كما يصفهم الشيخ ناصيف اليازجي « يغلب عليهم كرم النفس والحمية وصيانة اللسان عن الفحش في حال الرضى والغضب واحتمال الأثقال والمكاره وحفظ المواثيق والمودات مع الأصدقاء والأنفة من الغدر بالأعداء »[٩] .

والدين حي في ضمير العائلة والتقوى سائدة ويكاد الراهب أن يكون جزءاً متمماً لأفراد العائلة المارونية مما أعطى مؤسساتهم الإكليركية نفوذاً كبيراً فهي بما تضم من عدد كبير من الرهبان وبما هي عليه من تنظيم وبما تملك من وسائل وأرزاق ، قوة لا تضاهى .

وكان على رأس البطريركية المارونية أيام الشدياق ، رجل من أقوى رجال هذه الكنيسة هو البطريرك يوسف حبيش ، عرف بقوة الشكيمة والتقوى معاً . يقول عنه المطران يوسف الدبس في تاريخه المعروف ، انه كان متديناً حازماً طاهراً ، دبر البطريركية اثنتين وعشرين سنة أحسن تدبير[١٠] . وكان شديد العناية بمدرسة عين ورقا ، فهو أول بطريرك تخرج منها ، فأراد لها أن تقف على قدم المساواة مع مدرسة روما المارونية[١١] . فطوّر الدراسة فيها ورفع من مستواها . وكان العداء بينه وبين الأمير بشير شهاب مستحكماً ، ولكنه كان مبطناً ، بسبب المصالح المتبادلة بنوع من المجاملة الظاهرية في بعض الأحيان .

وقد أضاف البطريرك إلى مقامه الديني منزلته العائلية مما جعل من طبائعه كما يقول مشاقة « الميل لحب الرئاسة » ، وكان متصلباً في الدين لا تليت له قناة .

وعند ظهور المبشرين البروتستانت خشي على رعيته الإنزلاق في الدعوة الجديدة كان صارماً شديد الوطأة عليهم فأصدر البيانات والتعليمات بمنع استقبالهم وتحريم قراءة كتبهم والإنتساب إلى مدارسهم وقمع نشاطهم . وقصته مع أسعد الشدياق ، شقيق فارس ، شهيرة . سنأتي على ذكر بعض تفاصيلها نظراً لارتباطها بحياة فارس وأثرها في تكوين شخصيته الثائرة .

« وكان الموارنة يعتبرون أساقفتهم قضاتهم في الأمور الحقوقية والشخصية وقد طبق هؤلاء الشرائع المسيحية وبعضهم طبق الشرائع الإسلامية وبعضهم حكم بحسب العرف والعادات . أما شيوخ العقل فكانوا يحكمون بالأحوال الشخصية والحقوقية بحسب الشريعة . وكان لمن شاء من سكان الجبل أن يتقاضى أمام نواب الشرع في طرابلس وبيروت وصيدا ، وأحكامهم نافذة في الجبل »[١٢] .

هكذا كان الأمر في العرف والعادة أما في الواقع فالأوضاع متضاربة . وقد يخيل للمرء أن الحكم الإقطاعي ونظامه في الضرائب يبعد عامة الشعب عن النظر في الأمور السياسة ، ولكن الواقع هو عكس ذلك فمن طبيعة الإلتزام والمزايدة أنها كانت تصيب كل فرد من الناس ولذلك كان الصراع على الحكم يعني كل واحد منهم إذ على نتيجته ونتيجة هذه المزايدة كانت تصفّى الضرائب . وكانت الإنتفاضات الشعبية هي الوسيلة الوحيدة للإعتراض في الحالات القصوى . من ذلك أنه عندما أراد الأمير بشير أن يزيد في أبواب الضرائب وفي أرقامها سنة ١٨٢٠ اجتمع الناس من أهل المتن وكسروان وتحالفوا على رفض الضرائب الجديدة ، فعزل والي عكا عبدالله باشا الأمير بشير عن الحكم وسُميت هذه الحركة بعامية أنطلياس . ولكن عندما أعيد الأمير إلى الحكم بعد فترة وجيزة فرض ضرائب جديدة قبل ميعادها على بلاد جبيل ، فتداعى الناس إلى العصيان مرة ثانية ولكن علاقة الأمير بالوالي كانت أفضل مما كانت عليه في المرة السابقة ، فتغلب على الحركة وفتك برؤ وسها وتُعرف هذه الحركة بعامية لحفد . وكان من بين رؤ وس هاتين الحركتين آل الشدياق كيوسف منصور ، والد فارس ، وعمه فارس منصور وشقيقه طنوس المؤ رخ المعروف .

وعداوة آل الشدياق للأمير بشير قديمة ، بدأت منذ أن عزله الوالي الأسبق أحمد باشا الجزار لتردده عند حصار بونابرت لعكا ، فانضم آل الشدياق إلى الحكام الجدد ، الأميرين حسن علي و سلمان سيد أحمد ، من أبناء عمومة الأمير بشير . ولما أعاده الجزار إلى الحكم بعد أن عفا عنه ، لم يغتفر الأمير بشير لخصومه موقفهم فلاحقهم وضيق عليهم ولكن آل الشدياق بالرغم من ذلك ظلوا على خصومتهم له إلى نهاية حكمه ، ولم يمنع هذا أن تمر بعض الفترات تهدأ فيها الخصومة ولكن إلى حين .

وعائلة الشدياق ، وإن لم تكن من العائلات الإقطاعية ، إلا أنها ذات وجاهة مرموقة وهي كبيرة في عددها وفي قراباتها .

هذا ولم تكن الحالة الفكرية والأدبية بأفضل إذا قلّب المرء صفحاتها وحدها على وشل لا يتندى منها إلا قطرات قليلة . فهي ليست في شيء من القرن التاسع عشر ، الذي بدأت فيه تباشير النهضة كما لا يصح إلحاقها أيضاً بالقرن الثامن عشر إذ أن في القرن الثامن عشر عروقاً حية تبشر بربيع النهضة .

ولو اطلعنا على خارطة الجبل في هذين القرنين لوقعنا على نقاط مضيئة شعت فيها نجوم لامعة وقامت مدارس ومؤ سسات . ولكن أثر هذه المؤسسات على الأوضاع

الثقافية والفكرية كان ضئيلاً فلم يكن لها نتاج مذكور أمكنه أن يتخطى الزمان والمكان [١٣] .

ويذكر بعض الكتاب والباحثين أسماء جمهرة من المؤلفين الذين برزوا في الربع الأول من القرن التاسع عشر كنقولا الترك و بطرس كرامة و ربما الياس إده وغيرهم على أنهم طليعة رواد النهضة . وهذا قول تجانبه الأصابة في رأينا ، قد يصح أن نذكر أنهم طبعوا على حب الكلام والرغبة في صناعة الأدب ، أما الأجادة فقد ابتعدت عن أقلامهم وقد ظلمهم من رفعهم إلى المراتب المنظورة .

وإذا ما جاء هؤلاء في الزمن ، قبل رجال النهضة ، فليس من المفترض أن يعتبروا كفئة ممهدة لهم . هم جماعة ذابت واضمحلت في مكانها وزمانها . يجوز أن نسميها المحطة الأخيرة في عصر الإنحطاط لا المحطة الأولى في عصر النهضة . ضؤلت إذن المصادر الثقافية التي يمكن أن يتأثر بها الشدياق أيام صباه . فمحيطه كان معزولاً عن أي جو أدبي أو فكري ، والمدرسة هزيلة ، إن وجدت ، والكتاب عقيم والمعلم أعقم ، كما يحدثنا الشدياق في سيرته ، والأمية فاشية « وبذاك الوقت لم يوجد بدير القمر من يعرف أكثر من الجمع » كما يقول مشاقة[١٤] .

ولعل هذا الضيق وهذا العقم كانا من حظ الشدياق ، إذ اتجه به القدر إلى مدرسة لا كالمدارس ، هي مدرسة بيت يوسف الشدياق ، فيها حدب الشقيق على الشقيق وعلم غزير ، ومكتبة للوالد توصف بالغنى ، ثم مدرسة ثانية ذاتية في ضبط النفس والإنكباب على التحصيل في اللغة وتجويد صناعة الخط والنسخ[١٥] .

وكان فارس طفلاً عندما أرسل الأمير الأحمر[١٦] بعضاً من رجاله لهدم بيوت آل الشدياق وحرقها ، فشتتهم ، وفر بعضهم إلى البطريرك حنا الحلو ، بينما التجأ البعض الآخر إلى الست حبوس الارسلانية .

(الست حبوس من أشهر أعلام الارسلانيين تولت ، بعد وفاة زوجها الأمير عباس أرسلان ، حكم مقاطعة الغرب خمسة عشر عاماً « لذكائها كما يقول المعلم بطرس البستاني ، وصغر أولادها (منصور وحيدر وأحمد وأمين ، وقد توفي منصور يافعاً) تجالس الرجال وتقودهم بفصاحة كلامها وتعيل كل من يلتجيء إليها ، وتجاهد في إقامة الحقوق له وإن لم تكن له ، وأما من لم يكن من غرضها فلم يجد راحة في معيشته » وكان الأمير بشير يوجس منها خيفة لأنها كانت رأس حزب « اليمنية » وكان غرضه « قيساً »[١٧]) .

في جو القهر هذا رأى فارس الشدياق النور ، فلم يكن من قبيل الدعابة المحض أن يرد على قلمه في « كتاب الساق على الساق » أن مولده « كان في طالع نحس النحوس والعقرب شائلة بذنبها إلى الجدي » ، إنها إيماءة منه إلى طفولته المريرة بل إلى صباه وربما حياته كلها .

ولد الشدياق في سنة ١٨٠١ في حارة الحدث بالقرب من بيروت . وهناك أقوال متعددة في سنة ولادته ومكانها ، وأكثرها رواجاً قول بولس مسعد أن مولده كان في سنة ١٨٠٥ معللاً بأن فارس ولد في عشقوت وأن والديه ذهبا إلى تلك القرية في تلك السنة لا قبلها . ولكن هناك رسالتان للشدياق نفسه تفصلان في الأمر وتلقيان ضوءاً جديداً على القضية .

الرسالة الأولى موجهة إلى ناظر مالية مصر ، وليس لهذه الرسالة تاريخ ، وفيها يشكو انقطاع منحة الحكومة الخديوية عنه ، وإن آخر دفعة قبضها من وكيل الحكومة المصرية في اسطنبول كانت عن النصف الثاني من السنة١٨٨٤ وإن القبض كان في ٢٤ كانون الأول سنة ١٨٨٥ . ويبدو أن المكاتبة لم تفده شيئاً فأتى هو إلى مصر للمراجعة شخصياً في مطلع سنة ١٨٨٦فالرسالة إلى وزير مالية مصر كانت إذاً بين أواخر كانون الأول سنة ١٨٨٥ وأوائل سنة ١٨٨٦ . في هذه الرسالة يقول بالتحديد « وقد بلغت من العمر خمساً وثمانين سنة ميلادية » . أما الرسالة الأخرى فهي إلى ناظر العدل في اسطنبول جودت باشا يلتمس الشدياق منه تقديم كتابه « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » إلى السلطان . وليس لهذه الرسالة أيضاً تاريخ ،ولكن في رسالة إلى أبن شقيقه ظاهر مؤرخه في أول أيلول ١٨٨٧ يقول له فيها أنه تيسر له « منذ أيام » أن يرسل إلى جودت باشا كتابه المذكور مع رجاء بأن يقدمه إلى السلطان . فالرسالة إلى جودت باشا يجب أن تكون إذاً في شهر آب ١٨٨٧ . وفي هذه الرسالة يقول للوزير التركي « إنني بلغت من العمر ستاً وثمانين سنة » . من هاتين الرسالتين يمكن تحديد سنة مولده بأنها كانت ١٨٠١ . ولا مجال للتخريج والتعليل فقول الشدياق نفسه ، وتكراراً ، كان فصل الخطاب . ويذكر بروكلمان هذه السنة على أنها كانت سنة مولد الشدياق . ولعله أطلع على هاتين الرسالتين أو على مصدر آخر .

كان والده من ذوي الوجاهة والنباهة والصلاح[١٨] وكانت أمه من بيت مسعد ، وهي عائلة ذات نفوذ وعز طارف وتليد . وكان الوالدان ، كما يصفهما في كتاب « الساق على الساق » صارمين على نفسيهما وعلى بيتهما فعرفا بعفة اليد واللسان والجنان وكرم

النفس وبسطة الكف . وكان « دينهما أوسع من دنياهما وصيتهما أكبر من كيسهما . فنبضت ، من ثم ، بئر فضلهما فلم يبق فيها إلا نزازات ولم يعد في طاقتهما أن يبعثا ابنهما (فارساً)إلى الكوفةأو إلى البصرة ليتعلم العربية وإنما جعلاه عند معلم كتاب القرية التي سكنا فيها » .

أما معلم الكتّاب هذا فهو « مثل سائر معلمي الصبيان في تلك البلاد في كونه لم يطالع مدة حياته كلها سوى كتاب الزبور (المزامير) . وهو الكتاب الذي يتعلمه الاولاد هناك لا غير » . وهذا الكتاب مع تقادم السنين عليه « لم يعد في طاقة بشر أن يفهمه وقد زاده ابهاماً وغموضاً فساد ترجمته إلى اللغة العربية وركاكة عبارته حتى كاد أن يكون ضرباً من الاحاجي » . وقد أنس المعلم من تلميذه « نباهة خشي معها أن يربكه فنصح والده أن يخرجه من الكتاب » ويجعله في بيته ويدربه على اجادة الخط والنسخ . فعكف الصبي على تعلم القراءة وتجويد صناعة الخط والنسخ فبرع فيهما . وكان الصبي يتصف بالشقاوة فكانت تحدث له مفارقات مضحكة أحياناً ومؤلمة أحياناً أخرى ، فتضحك ذلك الصبي وتبكيه ولكنها لا تصرفه على كل حال عن الكد .

وقد كان له في هذه السن ارتياح غريزي إلى المطالعة وحب الكلام الفصيح وقراءته ، « وامعان النظر فيه والتقاط الالفاظ الغربية التي يجدها في الكتب »(١٩) ولكن كان أكثر ما يستهوي الفتى النظم فتهافت عليه ، « من قبل أن يتعلم شيئاً مما يلزم لهذه الصنعة ، فكان يصيب مرة ومرة يخطيء » .

وظل الصبي يتدرج في المعرفة في ظل حدب الوالدين وعطف الاشقاء إلى أن وقعت ذات يوم واقعة في الحدث ، بين رجال الامير الحاكم ورجال خصميه الأميرين، حسن علي وسلمان سيد أحمد واستبسل الوالد ، يوسف الشدياق ، في المعركة إلى جانب الاميرين ولكن الدائرة دارت على حزب الاميرين ففريوسف إلى دمشق ومعه ابناؤه طنوس ومنصور وغالب . أما أسعد فاختبأ في الحدث ثم فرّإلى قنوبين حيث احتمى بالبطريرك حنا الحلو ، ولكن البطريرك ما لبث أن طرده فتوجه إلى طرابلس حيث وجد من الحقه بأهله في دمشق . وأما الصغير فارس فقد هرب وأمه إلى دار حصينة من أهل جيرتهم . وكان رجال الامير بشير في تلك المعركة بقيادة الامير حيدر أحمد شهاب ، صاحب التاريخ المعروف : « الغرور الحسان » .

وبعد أن هدأت الزعازع، عاد الفتى وأمه ليجدا أن بيتهما قد نهب، وأنه قد أصبح

قاعاً صفصفاً ، وأن الناهبين أخذوا أيضاً طنبوراً للفتى كان مولعاً به وبالعزف عليه . أما ما كان من شأن الوالد فقد اشتد المرض عليه في دمشق ، وكان مصاباً بالربو ، فمات فيها مشرداً عن بيته . يصفه ابنه طنوس ، في « أخبار الاعيان »أنه كان : « عاقلاً شجاعاً ، لا يهاب أخطار الحرب ، حاد المزاج ، ديِّناً ، مستقيماً ، كريماً ، كثير المطالعة » .

وجاء النبأ إلى « حارة الحدث » فحزنت الام وابنها الصغير وبكياه بكاء مراً ، ولم يكن مرور الايام ليطفىء ألم المصاب ، فدأبت الام على أن تنفرد في كل صباح تبكي زوجها : « وكانت تظن أن ابنها لا يراها في انفرادها حتى لا يزيد حزنها ، برؤ يتها اياه يبكي لبكائها » ولكن الفتى « كان ينظرها في خلوتها ، ويبكي لوحشتها أشد البكاء ، فإذا رجعت كفكف عبراته ، وتشاغل بالكتابة أو غيرها » .

وهكذا ضرب الاسى والكرب هذا البيت بعد أن كان عامراً بأهله ، زاهياً بوجاهته ، فمات سيد البيت بعيداً عنه ، وشبانه مشردون ، وأثاثه وآنيته منهوبة ، وزبانية الامير الاحمر متسلطون .

منذ ذلك الحين عرف الفتى« أنه لا ملجأ له بعد الله غير كده ، فعكف على النساخة وقد جوّد ذلك من خطه ورقق من فهمه » .

وتمضي أيام وشهور والفتى مكب على حرفته فتشيع براعته بين الناس فيستدعيه الامير حيدر أحمد شهاب صاحب كتاب « الغرور الحسان في أخبار أهل الزمان »[٢٠] لينسخ له ما كان يجمعه من مخطوطات ومراجع ووثائق لكتابه الكبير . وكان فارس يكره هذا الامير لأنه ترأس ذات يوم الجماعة التي ضربت آل الشدياق كما ذكرنا . ولكن بالرغم من هذه الكراهية فقدقبل الفتى العمل تحت وطأة الحاجة . وكان الامير بخيلاً شحيحاً فأخذ من ثم يقتّر عليه في المعاش ، فتحمل فارس هذه المعاملة إلى أجل ثم تركه .

وفي كتاب « الساق على الساق » وصف ساخر ضاحك لهذا الامير وكتابه قال : «كان بعير بيعر ستهماً ، جعظراً ، أحزقّة(*) ولكنه يحب الدعة والسلم . وكان من التغفل على جانب عظيم . . . وكانت تمضي عليه الساعة والساعتان وهو لا يبدي ولا يعيد ، فيظن الغرّ أنه

(*) ستهماً : غليظ القفا ـ جعظراً : القصير الرجلين الغليظ الجسم وقيل القليل العقل والأكول السيء الخلق الذي يتسخط عند الطعام ـ أحزقة : القصير والضخم البطن وأيضاً السيء الخلق والبخيل .

معمل فكره في تدبير الدول ، أو تلخيص النحل . . . »[٢١] .

أما كتاب « الغرر الحسان » فيقول فيه أنه كان يودعه كل ما يحدث في زمانه « وليس الغرض من ذلك إفادة أحد من العالمين ، وإنما امساكاً للحوادث من أن تتفلت من مدار الأيام وأن تنفك من سلسلة الأحداث » .

بعد أن ترك فارس الامير حيدر ، قصد اخاه أسعد ، وكان يعمل مدبراً لأحد الاقطاعيين ، لعله يعينه في وظيفة عند صاحبه ،ولكنه لما رأى ما كان عليه القوم من خشونة العيش ترك اخاه وعاد إلى « حارة الحدث » واتصل بصديق له واتفقا على أن يعملا كتاجرين متجولين ، فاشتريابضاعة واكتريا حماراً وسارا بين القرى يحملان مع البضاعة أماني الكسب وأحلام الغنى ، ولكنهما لم يوفقا ، فتحولا إلى مغامرة أخرى واستأجرا خاناً على طريق « الكعيكات » حيث ترد القافلة منها إلى مدينة « الركاكات » .

ازدهر الخان بهما وبالواردين والصادرين ولكنه كان لفارس جدّ لم تعجبه هذه الحرفة فمنعه عنها فتركها وعاد إلى البيت . وذات يوم طُلب إليه أن يعلم بنت أحد الامراء من أهل جيرتهم مبادىء القراءة والكتابة . وكانت الفتاة ، كما يبدو ، جميلة الصورة ، ففتن بها ، وأخذ يتودد إليها ويغض النظر عن اصلاح أخطائها « فتأخرت هي في العلم وتقدم هو في الهوس » . وتمضي أيام ويعود أسعد إلى حارة الحدث ليمارس التعليم فيجيئه اميران من تلك القرية ليدرسا عليه النحو وانضم فارس إلى التلميذين وأخذ من ثم يصحح لغته على يد شقيقه .

كان أسعد ، كما يصفه فارس والمعلم بطرس البستاني ، انساناً ممتازاً ، بهي المنظر ، جميل الصورة ، كاتباً خطيباً ، فصيح اللهجة ، تفوق على أقرانه منذ نعومة أظفاره ، تلقى علومه في « عين ورقة » ودرس فيها العربية والسريانية واللاهوت وبرز في التعليم والعمل السياسي معاً[٢٢] .

كتبت مأساته وطبعت أولاً في مالطة سنة ١٨٣٣ في كراس اسمه « خبرية أسعد الشدياق » ثم أعاد كتابتها وتوسع في وقائعها المعلم بطرس البستاني في كتاب اسمه « قصة أسعد الشدياق » . وطبع للمزة الأولى سنة ١٨٦٠ والثانية ١٨٧٨[٢٣] .

تبدأ القصة عندما ذهب أسعد إلى دير القمر بدعوة من آل مشاقة لتعليم مرسل أميركي اسمه جوناس كينغ (Jonas King) اللغة العربية . وتمتنت العلاقة بين الاستاذ وتلميذه ، وبعد مدة سافر المرسل كينغ إلى بلاده في اجازة ووجه قبل سفره رسالة إلى



جوناس كينغ

معارفه ضمنها دعوة إلى « دين التوراة الجديد » . وهذا ما كانت تسمي به نفسها الحركة الانجيلية يومذاك(٤٢) .

قرأ أسعد هذه الرسالة للرد عليها ولكن بعد أن درسها «ارتفع البرقع الذي كان مغشياً على بصره » كما يقول المعلم بطرس البستاني(٢٥) . وكانت النتيجة « أن اهتدى إلى الحق عن طريق الكتاب المقدس» كما يقول القس فريد عودة(٢٦). وأخذ من ثم يتردد على المبشر إسحاق برد، المقيم في بيروت، وانتهى به الأمر إلى أن لازم المبشر بصورة دائمة . ولما علم البطريرك حبيش بهذه العلاقة أمره بالامتناع عن مخالطة المبشرين وهدده بالحرم والشكوى إلى الحكام إذا ما تأخر يوماً واحداً . فترك أسعد اسحاق برد وذهب إلى البيت. ولكنه ما لبث أن عاد بعد نحو شهرين وصمم على الانتماء نهائيا إلى البروتستانتية واحتمال الاذى في سبيلها بالغا ما بلغ . وقد ساعده المبشرون بأن أعطوه حماية انكليزية ما دام يعمل عندهم ، فغضب عليه أهله غضباً شديداً . وجاء اخوه غالب يوماً وقال له أن وجوده عند المبشرين «الحق بالعائلة عاراً لا يطاق ». ولكن ذلك كان بلا جدوى. فأتت والدته لعلها تنجح حيث فشل من سبقها من الأهل . وكان معها ابنها الأصغر فارس فناشدته أن يعود معها إلى البيت فكان يجيبها أنه لن يفعل وأنه إذا عاد معها فسوف يسبب لها ولأهله المتاعب . وانحاز فارس إلى أسعد وأخذ ، من ثم ، يقنع امه بتركه وشأنه ولما انتهت المقابلة أعطى أسعد فارساً كتباً دينية بروتستانتية ، ولما رجع ،إلى البيت أخذ في قراءتها « وتقليبها وتمشيطها وتنسيلها من جهة واستشفافها من جهة أخرى ، فراقت لعينه »(٢٧) . ولكنه لم يكن متكتماً حريصاً في تصرفه فلاحظ أهله عليه ميله هو أيضاً إلى المذهب الجديد فاستشاطوا عليه غيظاً . ولم يلبث الخبر أن بلغ مطران الناحية (مطران بيروت) فاستقدمه إليه وقال له : « لقد بلغني أنك أنت أيضاً صرت بروتستانتيا وابتدأت تجادل في امور الدين . فأجابه فارس وهل كل من يجادل في امور الدين يكون بروتستانتيا ؟ فقال ولكنك تقرأ في التوراة التي هي للبروتستانت . فأجابه نعم ، ولكن ممن هي التوراة هي من البروتستانت أم هي من الله ؟ فقال ولكنها طبع الانكليز . فأجاب : وهل هي محرفة في مكان ما ؟ فقال ارأيت أيها الشاب كيف أنك بدأت تجادل في أمر الدين؟ إني أقول لك أن تكف عن هذه العادة الاراتيكية وإلا فتسقط في الحرم »(٢٨) . وجاء في القصة أيضاً أنه ذات يوم بينما كان فارس يقرأ في الكتاب المقدس في البيت جاءه اخوه منصور بغتة واستل سيفا وهوى عليه يضربه بقفاه على عنقه ثم أخذ بندقية وحاول أن يقتله بها لولا تدخل امهما بين الاثنين ، بعدئذ تدخل الشقيق

الآخر وأخذ يضربه بعصاه دون أن يسأل عن السبب وكان عند ضربه اياه يصرخ أما تترك هرطقتك وتذهب إلى الكنيسة كباقي الناس ؟

وهكذا أصبح جو البيت بالنسبة إلى فارس لا يطاق فانسل منه وذهب إلى المبشر اسحاق برد وذكر له ما حدث ويحدث له كل يوم بسبب ميوله الجديدة ، فهدّأ برد من روعه وقال له إن المرء إذا ما اعتنق عقيدة جديدة فلا بد أن يصادفه الاذى والعنت ولكنه يصبر على ما يصيبه .

ويروي الشدياق في كتاب « الساق على الساق » هذه المحاورة وينقل ما قاله له إسحاق برد، قال برد: «إن الخرجي مثله كمثل من كان ذا زوجة وعيال فيتخذهم متخذ الماعون من الخزف فيغادرهم ويجري في البلدان القاصية لترويج السلعة ، يستغني عن اهله واعوانه واخوانه ورهطه بما لديه من الخرج ، فيحمله على كتفه مستبشراً مسروراً يضرب في مناكب الأرض طولاً وعرضاً . فكل من مر به من عباد الله ، عرض عليه المشاركة والمضاربة ولا يزال دأبه كذلك حتى يقضي نحبه . وطوبى لمن مات على هذه الحالة »[٢٩] . فأعجب فارس بهذا الكلام ولكن أكثر ما أعجبه في اسحاق برد اناته وما هو عليه من الرزانة والصبر وإن ذلك لا بد أن يكون قرينه الرشد والحزم فحكم بأن المرسل « كان على هدى لاناته وحلمه وأن المطران كان من الضالين لحدته وترعه » . ثم قال له : « قد وعيت يا سيدي كل ما أوعيته أذني ، وما أرى الحق إلا معك ، وإني مشايعك وحامل للخرج معك » .

لقد دخل الشدياق البروستستانتية ، في رأينا ، منذ أن قال للمرسل اسحاق برد : « إني مشايعك وحامل للخرج معك » ، أي أن هذا كان في بيروت وليس في مالطة كما هو معتقد[٣٠] .

أما أسعد، فكان البطريرك حبيش قد فرض عليه الاقامة الجبرية في دير قنوبين وسد عليه المنافذ ، ولكنه استطاع أن يرسل بواسطة فارس رسالة إلى اسحاق برد يقول له فيها: «إذا أمكنك أن تجد مركباً متوجهاً إلى مالطة في برهة أربعة أو خمسة أيام فأرسل أخبرني وإلا فصلّ لإجل أخيك . . . ٤ نيسان ١٨٢٦ اسعد »

أغلب الظن إن برد قد صلى من أجل أخيه لأنه أدرك أن الرسالة قد وصلته بعد فوات الأوان، مما دعاه إلى النظر في أمر فارس وإلى المصير الذي قد يؤول إليه أيضاً، فحرص على انقاذه وارتأى أن يبعثه إلى جزيرة مالطة فركب فارس سفينة شراعية ، سائرة إلى



إسحاق بيرد

الاسكندرية ، فغادر مرفأ بيـروت ومعه كتاب توصيـة إلى المرسل المقيم في الاسكنـدرية .

وهكذا حل فارس محل اسعـد في الهروب ، وغـادر بلده نهائيا وكـان في الخامسـة والعشرين من عمره(٣١) .

بعد أن أصبح اسعد سجين قنوبين بدأت أوضاعـه النفسية في التـدهور وظهـرت عليه بوادر اضطراب العقل «فأخذ اتباع البطريك يهينونه، كما يقول المعلم بطرس البستاني، وغيروا اسمه امعـاناً في تعـذيبه وفي تحقيـره فأصبحـوا يدعـونه «رب شيـول» أي «رئيس جهنم » . وبعد فترة وجيزة وضع في سجن سدت أبوابه بالحجـارة والكلس ، وأبقوا لـه نافذة مفتوحة صغيرة ، يتناول منها طعاما من الخبز والماء فقط . أما فراشه فكـان حصيراً رقيقاً ، وغطاؤه ثيابه » .

ثم يقول البستاني إنهم « ربطوه من عنقه بحبل ثم أخرجوا طرفه من تلك النافـذة وربطوه خارجاً ، فكان كثيرون يمسكون ذلك الحبل من الخارج ويجذبونه لإجل تعذيبه ، فكان يرفع صوته من داخل السجن ويقول ارحموني خلصوني » .

وظل على تلك الحالة إلى سنة ١٨٢٩ فزاد جسمه هزالاً وظهر الاضطراب واضحا في عقله . وجاء طنوس إلى البطريرك للمـرة الأخيرة ، يلتمس الـرفق بأخيـه ، فأخـرج البطريرك كتابا من اسعد ودفعه إليه وقال : « خذ شاهداً على جنونه » وفي هـذا الكتاب يطلب اسعد من البطريرك أن يطلق سراحه ليذهب ويكرز بالانجيل ، وأنه سـوف يقيم بعض الموتى ، وأنه فعلا اقام رجلا اسمه الشيخ خالد من الموت ، فقرأ طنوس الكتـاب وبكى ، وطلب من البطريرك أن يسمح له بمقابلة اسعد لمؤانسته من الرعبـين ، السجن والجنون ، فلم يسمح له ، وبعد فترة مات اسعد .

ثم يقول المعلم بطرس « لما نهض من كان في الـدير من النـوم ، ووجدوا اسعـد ميتا ، ربطوه من رجليه بحبل ، وجروا جثته ، باهانة ، إلى سفح جبل ، غربي الـدير ، وبالقرب منه ، وطمروه هناك بلا جناز ، وحرم البطيرك أن يدل على قبره » .

لم يعلم ، بالضبط ، متى مات اسعـد . ولكن إذا ذكرنـا أن المعلم بطرس قـال ، إن البطريرك طلبه وسجنه في اوائل سنة ١٨٢٦ ، وأن فارساً ذكر في « الساق » أن اخـاه، سجن ست سنـوات ، قلنا إن حيـاته لم تتجـاوز سنة ١٨٣٢ إلا قليـلاً . أما البـطريـرك حبيش فقال إنه مات قبل هذا التاريخ بسنتين .

ولما جاءت جيوش إبراهيم باشا إلى ديار الشام ، أصبح من الممكن تحت الإدارة الجديدة السؤال عن اسعد ومصيره ، فجاء رجل انكليزي للبحث عنه في قنوبين ، ولكن ما حدث كان قد حدث ، وسأله أحد الرهبان عن سبب اهتمامه به فقال له : « إن اهالي انكلترا واميركا يعتبرون اسعد كاعتبارهم لبولس (الرسول)[٣٢] . ويقول القس فريد عودة عنه إنه « أول شهيد انجيلي في هذه الديار »[٣٣] .

وكان اسعد ، كما يصفه شقيقه في كتاب « الساق على الساق » معتدل القامة والجسم ، غض الشباب ، جميل الصورة ، ذا عينين وهاجتين ، نزيه النفس ، كريم الخلق ، فصيح اللهجة ، خطيبا ، انيس المحضر ، محببا عند الخاصة والعامة ، عزيزاً في أهله لين العريكة ، « يترقرق في وجهه ماء الحياء ، منشئا بارعا ، كثير المطالعة ، جميل الخط في العربية والسريانية »[٣٤] .

هذه هي قصة اسعد الشدياق اختصرناها وذكرنا وقائعها الأساسية فحسب . ويرى بعض الأدباء أن هذه القصة هي التي أوحت إلى جبران خليل جبران قصتيه « يوحنا المجنون » و « خليل الكافر » . فوقائع القصتين مطابقة لحياة اسعد مطابقة تامة . قال خليل حاوي : « إن موت اسعد ترك تأثيراً حاداً في الأجيال اللاحقة فأحل في نفوسهم العداء للسلطة الكهنوتية وجعل ذلك العداء مبدأ من مبادئهم الأساسية » و « إن صوت اسعد لا يمكن ان ينكر سماعه في اثنتين من اقاصيص جبران : يوحنا المجنون وخليل الكافر . ففي الأولى نسمع صراخ أنسان بريء أتهم بالجنون كذبا وبهتانا ، وكلتاهما ترسمان ثورة ترفع سلطة الكتاب فوق سلطة الكنيسة » .

نعود الآن إلى فارس فبعد أن وصل إلى الاسكندرية التفت إلى من هم وراء البحر واطلق في وجههم صرخة ملؤها المرارة والحقد قال فيها :

« قد تفلّت الفارياق من ناديكم ، وعنجر في وجوهكم جميعا وأصبح لا يخاف لكم وعيداً وبقي الآن أن نذكركم ما اشططتم به من الظلم والطغيان والجور والعدوان على أخي المرحوم اسعد ، إذ اودعتموه السجن في داركم الوزيرية بقنوبين نحو ست سنوات وبعد أن اذقتموه جميع ضروب الذل ، والهوان والبؤس والضنك في صومعة صغيرة لزمها فلم يكن يخرج منها إلى موضع يرى فيه النور أو يستنشق الهواء اللذين يمن بهما الخالق على الابرار والفجار من عباده ، قضى نحبه ، وما كان سجنكم له إلا لمخالفته لكم في اشياء لا تقتضي عذابا ولا عتابا . وما كان لكم عليه من سلطان ديني أو مدني .

أما الدين فإن المسيح ورسله لم يأمروا بسجن من كان يخالفهم أو يخالف كلامهم وأنما كانوا يعتزلونهم فقط . وكل أنسان في الدنيا يعلم أن السجن والتجويع والاذلال والتوعد والتأويق والتشنيع ليس من الخير في شيء . وناهيك أن المسيح ورسله أقروا ذوي السيادة على سيادتهم وإمرتهم ، ولم يكن دأبهم إلا الحض على مكارم الاخلاق والأمر بالبر والدعة والسلم والاناة والحلم فإنها هي المراد من كل دين عرف بين الناس ، وأما المدني فلأن أخي اسعد ، لم يأت منكراً ولا ارتكب خيانة في حق جاره أو اميره أو في حق الدولة . ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعي . وهب أن أخي جادل في الدين وناظر وقال إنكم على ضلال فليس لكم أن تهينوه بسبب هذا » . إلى أن يقول : « ولكن لو كان لكم بصيرة ورشد لعلمتم أن الاضطهاد والاجبار على شيء لايزيد المضطهد وشيعته إلا كلفا بما اضطهد عليه » . ثم يقول : « وإن أخي اسعد رحمه الله وإن يكن قد مات فذكره لن يموت . وقد لعمري أخرج عنكم بموته من شيعتكم هذه المتوحمة على سفك الدم أكثر مما لو بقي حيا . ألم تأخذكم ، ياغلاظ الاعناق ، رأفة في شبابه وجماله ؟ ألم تتأثر قلوبكم التارزة لصفرة وجهه حين حجبتموه عن النور والهواء ؟ ألم تشفقوا عليه إذ رأيتم انامله قد ضنيت ؟ ولقد طالما والله اخذت القلم فخطت ما يعجب به الملوك . ولقد طالما والله صعد المنبر فخطب فيكم ارتجالاً والعرق يتصبب من جبينه ذلك الصليت . ولشد ما أبكى سامعيه تذكيراً وتزهيداً » . إلى أن يقول : « امثله يحبس ست سنين ويذل وينكل ويموت . . . والله أعلم بأي شيء مات»[٢٥] .

ثم توجه إلى القسيس المقيم في الاسكندرية ، واعطاه كتاب اسحاق برد فأنزله مضيفه بالقرب من مسكنه . ولبث عنده ينتظر سفينة تقله إلى مالطة . وكانت مدة الانتظار كافية لكي يتعرف القسيس إلى الشدياق عن كثب ، فأعجب به ورغب في أن يبقيه عنده في مصر . ولكن الأمر كان يعود إلى اسحاق برد في بيروت ، فكتب المبشر إليه يستأذنه في ذلك ، فأصر برد على سفر فارس إلى مالطة ، فما أن تيسرت الوسيلة حتى كان الشدياق في طريقه إلى الجزيرة ، على مركب شراعي .

لانعرف المدة التي قضاها فارس في مصر ، ولكنها قد لا تكون تجاوزت الشهر أو الشهرين ، لأنه أنما بقي فيها انتظاراً للسفينة والسفر وربما للمراسلة بين القسيس في مصر واسحاق برد .

لم يقبل برد أن يبقي فارسا في مصر لأن هذا المبشر كانت له اغراض غير تهريبه

من وجـه البطريـرك ورجال الدين فحسب بل أراد أن يفقهـه في البروتستـانتيـة ، وفي قواعدهـا ، ليتخرج عـلى أيدي المبشـرين في مالـطة مرسـلاً ومبشراً . وجـو مصر انيس بهيج ، واللبناني مثل فارس قد يجد فيهـا نفسه بـين عشيرتـه وأهله ، ولا يعدم أن يلقي بينهم نسيبا وخليلاً ، أو رفيقا وخدينا كما أن الفرص قد تسنح أمامه فيجد في مصر عملا ومـرتزقـا ، فينصرف عن التزهد والترهب . عـلى العكس من ذلك كـان الجو في مـالطة . فـالعربي فيهـا غريب لا يجـد فيها مـا يجده في مصـر فينطوي والحـالة هـذه ، على نفسـه وينزوي وتصبح تسليته في أن يكب على ما خطط له ، والاستزادة مما ندب إليه .

ما أن يصل فارس إلى الجزيـرة حتى يتلقفه المحجـر الصحي أربعين يـوما لتـطهير انفاسه ، كما يقول ، ثم يأتي قسيس مالطة ويأخـذه إلى بيته . وكان هذا الرجل ذا كـآبة لأنـه كان قـد فقد زوجتـه منذ أيـام ، فلزم الحداد والتقشف ولـزمه الحـزن والتـأسف ، فـأسكنه في احـدى غرف البيت ، وكـان لا يقدم لـه إلا لحم الخنزيـر وهو يعـافه ، لأن « نصارى الشام يحاكون المسلمين في كل شيء ما خلا الأمور الدينية ، فمن ثم كان لحم الخنـزير عنـدهم منكراً » ، فكـره الشديـاق أكل الخـرجي ، وهزل جسمـه واضـطربت صحته .

وكان القسيس هذا متزمتا متحرجا ، فطلب إليه أن يبـدل ملابسـه لأن « المفددين على السلع الخرجية لا ينبغي لهم التحفل بالملبوس(*) . فألبسه السـراويل المـزنقة ، كـما بدل غطاء رأسه وألبسه القبعة ، « وبدأ يتعلم من الانكليزية ما يكفي لترويج السلعة ، وليس يعني هذا أنه اتقنها » .

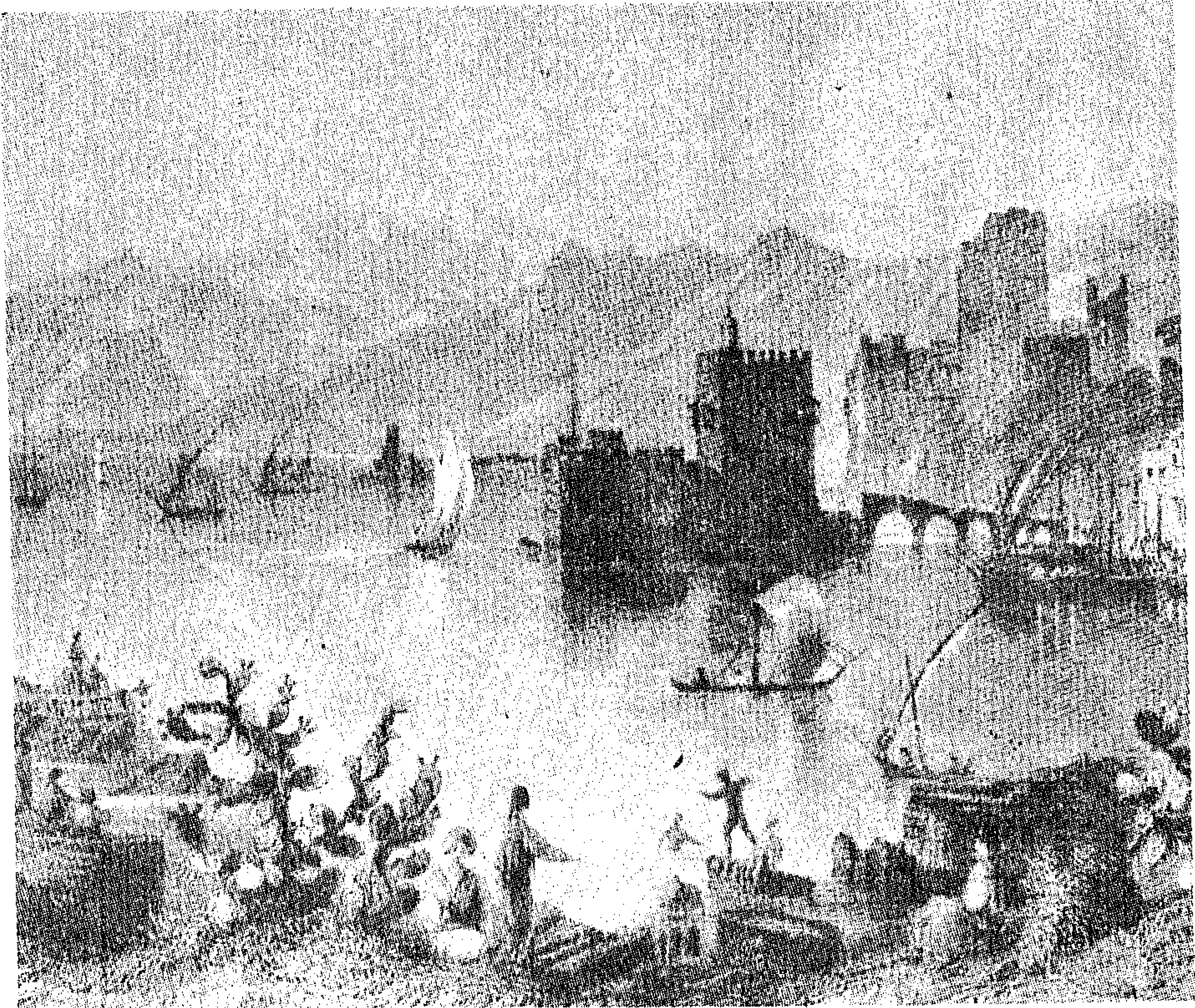
هذه العبارات وأن غلّفها كاتبها بالتوريات إلا أنها تبرز بوضوح ما خطط للشدياق في مالطة ، وتكشف كيف أنه أوشك أن يكون مبشراً انجيليا ، يتعلم الانكليزية بالقـدر الذي يكفي « لترويج السلعة » ويلبس لباس المبشرين الانجليين .

لكن قدراً مرضياً حول الأمور عن مجراها إذ نزل به داءالمفاصل وصار في اعياء دائم بسبب الرطوبـة في الجزيـرة . وكان ينهض من رقـاده وهو لا ينشط إلى شيء ، ومـا زال الداء يتزايـد به حتى الـزمه الفـراش ، واشار الـطبيب على القسيس أن يعيـده إلى مصر وهكذا كان ، فجاء إلى مصر والتحق بقسيسها .

(*) المفدد هو الذي ينادي على بضاعته لبيعها .

لم يذكر الشدياق المدة التي قضاها في مالطة في إقامته الأولى هذه ولكنه عندما ذكر مرضه بداء المفاصل في كتابه « الواسطة في معرفة احوال مالطة » قال إنه اصيب في « السنة الأولى » وإنه بعد اصابته به ، انتقل إلى مصر ولعله مكث في الجزيرة سنة وبعض السنة . فإذا كان هروبه من لبنان حدث في اوائل نيسان ١٨٢٦ ، جاز لنا أن نقول إنه عاد إلى مصر من مالطة في نحو السنة ١٨٢٨ .

لم يقم الشدياق بأي عمل ذي شأن، للمبشرين حتى الآن، بل كان جل وقته يصرفه في التمكن من الانكليزية والبروتستانتية. أما ما زعم عنه من أنه عمل في المطبعة الأميركية في تلك الجزيرة، فإنه، في تقديرنا ، غير محتمل ، وإذا راجعت المطبوعات التي صدرت في تلك الفترة وجدتها غاية في الركاكة وضعف التركيب ، مما لايدع مجالاً للشك ، في أن تلك المطبوعات أنما كانت بقلم المرسلين ، ولم يطلع الشدياق عليها ، وبالتلي لم يصححها ، وسنعود إلى توضيح ذلك في فصل مقبل .



مرفأ بيروت كما كان يوم غادره الشدياق

II

العودة إلى مصر ـ عمله في الوقائع المصرية ـ من هو سامي أفندي ـ أثره في توجيه الشدياق إلى الصحافة وفي أفكاره الاصلاحية .

عاد الشدياق إلى مصر ثانية وعاد إلى زيه الشرقي تاركاً الزي الخرجي المالطي . وتسنى له الآن أن يرى مصر على حقيقتها ، فوجد دولة العزيز في الذورة العليا من الأبهة والعز، كما يقول، لها بهجة ورونق وفي عيشها رغد مغدق، ووجد أن العالم فيها عالم ، والأديب أديب ، والفقيه فقيه ، والشاعر شاعر ، وأهلها متقنون للعلم وأي اتقان وهم أهل نظافة وكياسة ، وظرافة وأدب ، وشمائل مرضية ، والقاهرة غاصة باللذات السائغة ، فبدل هذا الجو نفسيته تبديلاً كبيراً .

بعد أن مكث الشدياق مدة في مصر يعمل مع المبشرين أخذ يفكر في التملص منهم فنصحه أحد معارفه أن يتصل برجل من أهل الوجاهة والأدب ، وهو يدبر له عملاً . فكتب إليه رسالة مسجعة طريفة ، فأجابه ذو الوجاهة بكتاب يدعوه فيه إليه ، فجاءه الشدياق وجرت بين الأثنين محاورة أدبية فيها ود ومزاح .

ثم سأله الأديب الوجيه : « هل لك في أن تكون عند أحد السراة الذي انشأ لنفسه ممدحا يكتب فيه بلغات مختلفة مساعيه ومعاليه ؟ »[٣٦] فأجابه الشدياق بالقبول شاكراً .

أما « الممدح » هذا ، فيما نرجح ، فهو جريدة « الوقائع المصرية » التي انشأها

محمد علي باشا ، والتي كانت تنشر الأخبار الرسمية في اسلوب فيه من التعظيم شيء كثير كلما أتصلت الأخبار بالوالي والتمجيد الذي يشبه التأليه ، كما يقول الدكتور إبراهيم عبده في كتابه « تاريخ الوقائع المصرية »[٣٧] . وكان عمل الشدياق في الجريدة أو « الممدح » ترجمة ما تنشره الوقائع باللغة التركية ، إلى العربية ، وتحرير ، أي تصحيح ما يكتب ، ابتداء بالعربية .

لم تكن جريدة « الوقائع » المصرية صحيفة كبيرة ، يمكن أن يظهر على صفحاته إنتاج أدبي أو فكري ذو قيمة يتخطى الأيام . فقد كانت تصدر في أربع صفحات صغيرة (٣٧ ـ ٢٢) وبصورة متقطعة غير منتظمة . وكان يحررها رجل تركي أو ذو مزاج تركي ، وليس في موادها أي تنويع ، فكان ما يدرج فيها أنما يقتصر على بعض اعمال الحكومة ، وقليل من انباء الاقاليم ، وتعليمات الديوان ، والثناء على الوالي وتمجيد اعماله وإذا كانت هذه الموضوعات ذات أهمية بالنسبة إلى المؤرخين ، فإنها ليست كذلك بالنسبة إلى الأعمال الأدبية ، ولكن الأمر سوف يتبدل ، بطبيعة الحال ، في هذه الصحيفة بعد أن هيمن عليها نهائياً رفاعه الطهطاوي ، بعد أن يغادرها الشدياق ، فغدت تصدر بالعربية ويترجم الى التركية ما كان ضرورياً أن يترجم .

فمن العبث إذا ، أن نبحث عن أثر ذي شأن للشدياق في جريدة الوقائع . ولكن العمل في هذه الصحيفة أثر في توجيهه نحو الصحافة والقى في نفسه نواة سوف تنمو نموا كبيراً بعد نحو ربع قرن ، فيقوم على كتفيه تطوير ، في الصحافة العربية ، لم يقم على كتفي رجل واحد منذ أن وجدت الصحافة العربية .

هناك اقوال متضاربة في التاريخ الذي عمل فيه الشدياق في الوقائع المصرية وفي ماهية عمله وقميته ، ومع من عمل الخ . . . ، ولعل من المفيد إيرادها لاستخراج الحقيقة منها .

يقول طنوس الشدياق في تاريخه «اخبار الاعيان في جبل لبنان» : في سنة **١٨٢٥** سافر فارس إلى مصر وخدم عند محمد علي في القلعة لاجل اعراب الوقائع اليومية لطبع البلاطة »[٣٨] وأنه ترك مصر إلى مالطة سنة ١٨٢٨ . في هذا الكلام ثلاثة اخطاء : الأول : هو تاريخ سفر فارس إلى مصر ، فقد كان في سنة **١٨٢٦** لا في سنة **١٨٢٥**

بدليل الكتاب الذي حمله فارس من شقيقه أسعد إلى إسحاق برد في ٤ نيسان ١٨٢٦ كما مر معنا .

والخطأ الثاني هو القول إنه عمل في « الوقائع المصرية » منذ ١٨٢٥ ، وإنه سافر إلى مالطة سنة ١٨٢٨ . و « الوقائع » لم تصدر إلا في ٣ كانون الأول ١٨٢٨ ، فكيف يكون عمل من ١٨٢٥ إلى ١٨٢٨ في جريدة لم تصدر إلا في آخر سنة ١٨٢٨ ؟

والخطأ الثالث القول إن الوقائع كانت تطبع على البلاطة والواقع أنها كانت تصف بالحروف .

ويقول الطرازي في باب الوقائع المصرية إنه «تولى تحريرها بعد الطهطاوي كثير من أرباب الشهرة الواسعة وهم أحمد فارس الشدياق وحسن العطار والسيد شهاب الدين محمد بن اسماعيل المكي[٣٩] الخ . . . » ويقول زيدان : « تولى تحريرها نخبة من الادباء والكتاب الذين نبغوا اثناء النهضة ، منهم الشيخ حسن العطار والشيخ احمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين والشيخ أحمد عبد الرحيم والشيخ محمد عبده[٤٠] » الخ . . .

ويقول بولس مسعد إنه عهد إلى الشدياق « في تحرير الوقائع الرسمية بدلاً من العلامة رفاعه رافع الطهطاوي فأنصرف إلى عمله بهمة لا تعرف الكلال حقبة من الزمن ابدى فيها آيات من الذكاء والعبقرية ما إكسبه احترام الحكام وجهابذة العلم[٤١] الخ . . . » .

ويقول الاستاذ ابراهيم عبده صاحب كتاب « تاريخ الوقائع المصرية » : أما الشدياق فكان حدثاً في مصر ، يتلقى العلم ويطالع كتاب الصحاح للجوهري وديوان المتنبي فلم يعمل في الوقائع المصرية إلا بعد حين أي بعد أن تولاها الطهطاوي فاستعان به[٤٢] .

أما الواقع كما نراه فهو هذا :

١ ـ صدر العدد الأول من الوقائع المصرية في ٣ كانون أول ١٨٢٨ ، وكانت تصدر في غير إنتظام في أربع صفحات باللغة التركية ، وكان أحياناً تجاه العمود التركي ترجمة له بالعربية . وكانت الترجمة في بادىء الأمر سقيمة ، تستعير من النص التركي بعض التعابير وحتى التركيب أحياناً . ولم يكن كل ما يكتب بالتركية ينقل إلى العربية ،

وكان يكتب مقالاتها رجل أسمه سامي أفندي(٤٣).

٢ ـ أما من كان يتولى ترجمة المقالات التركية إلى العربية في أول عهدها فلم يعثر إبراهيم عبده على أي نص أو مرجع يذكر ذلك بوضوح . ولكنه عثر على وثيقة تقول إن هنالك بحثاً عن « مترجم قدير » للجريدة لأن الخواجة نصر الله الذي ندب لهذه المهمة قد مرض فلم يتسن له أن يتسلم عمله . وتاريخ هذه الوثيقة سنة ١٨٣٣ .

٣ ـ في كتاب « الساق على الساق » ما يساعد على توضيح ما أشكل على بعض المحققين في هذا الشأن . فقد جاء فيه أنه لما تضايق الشدياق من البروتستانت ، هداه صديق له إلى أن يتصل بشاعر من النصارى له وجاهة ونباهة عند جميع الأعيان . وقال له « نصحي إليك أن تكتب كتاباً إلى هذا العلامة وتلتمس منه ، فيما تطري به عليه ، مواجهته وأنا ضامن لك أن تفوز منه بالآمال»(٤٤) . فكتب له رسالة مطولة مسجعة وأرسلها إليه ، كما ذكرنا في صفحة سابقة، «ولما بلغت، الوكة الشدياق إلى الخواجة المذكور ، كان مريضاً فلم يجبه على الفور فبقي الشدياق ينتظر جوابه أياماً » ، ثم بعد أن برىء من مرضه الطويل دعا الشدياق إليه وجرت بين الاثنين مساجلة أدبية ، ثم قال له الخواجا أنه دبر له عملاً في « ممدح » أنشأه « أحد السراة لينشر فيه بلغات مختلفة مساعيه ومعاليه » وإن هذا العمل يتفق وميله الأدبي ، فشكره الشدياق ودعا له، وانصرف من عنده وقد أضمر مفارقة البروتستانت. ولما كان اليوم التالي : « ذهب إلى مزاولة عمله الجديد ، فلما استقر به المقام أرسلت إليه قطعة يراد ترجمتها » .

وغني عن البيان إن الشدياق روى هذا الأمر في قالب روائي جذاب فيه توريات كثيرة لا تعنينا إلا واحدة منها .

٤ ـ يقول في تلك التورية إن « الخواجا » المذكور والذي كان مريضاً كان أسمه على وزن « ينصر » وقد علمنا من إبراهيم عبده إن المترجم الذي مرض كان إسمه نصر الله ، مما يؤكد لنا إن الخواجا ينصر إنما كان نصر الله ولا نجد بين الذين عملوا في الوقائع المصرية بإسم نصر الله إلا نصر الله الطرابلسي(٤٥).

وهكذا نرى إن الخواجا ينصر أو نصر الله ، بعد أن مرض وتعذر عليه مباشرة العمل في سنة ١٨٣٣ ، يقدم فارس الشدياق للعمل بمهمة التعريب والتصحيح في الجريدة بدلاً عنه. وهذا ما عناه الشدياق عندما قال في كتابه لوزير مالية مصر (رسالة إلى

وزير مالية مصر أواخر ١٨٨٥) إنه كان « أول من حرر الوقائع المصرية » أي ، بلغة الشدياق ، أول من حرر عبارتها وصححها .

وعلى هذا الأساس يكون الشدياق أول عربي مارس الصحافة .

٥ ـ لم يكن عمل الشدياق في الوقائع المصرية عملاً أدبياً فنياً ، إذ إن هذه الجريدة قليلة الموضوعات ، وما يراد ترجمته أو تصحيحه لا يدخل في الصناعة الأدبية وتجويدها . ولذلك ليس العمل فيها مظهراً للذكاء والعبقرية كما يقول بولس مسعد .

٦ ـ أما قول ابراهيم عبده بأن الشدياق لم يعمل في الوقائع لأنه كان حدثاً يقرأ صحاح الجوهري وديوان المتنبي ، فلا ينطبق على الواقع ، إذ أن الشدياق ، كان في اوائل العقد الرابع من عمره . وقراءة صحاح الجوهري وديوان المتنبي ، لا تقوم سببا للنفي ، فمثل هذه القراءات قد تكون للاستزادة ، ولا تعني أن طالب العلم ليس كفياً للقيام بالترجمة أو تصحيح الترجمة ومع ذلك فقد قال الشدياق إنه أثناء عمله الجديد « عنَّ له أن يقرأ النحو على بعض المشايخ لما أنه رأى أن القدر الذي كان تعلمه في بلاده لا يكفي لمدح السِّري » .

٧ ـ يقول الطرازي أنه تولى تحرير الوقائع ، « بعد » الطهطاوي كثيرون ، منهم الشدياق ، ويقول ابراهيم عبده إن رفاعه : « إستعان بفئة من المحررين أحدهم أحمد فارس الشدياق » ، وقد أخطأ الاثنان هنا أيضاً ، إذ إن الطهطاوي تولى إدارة الجريدة سنة ١٢٥٧ هـ أي ١٨٤٠ م وفيها أصبحت تصدر بالعربية . وفي هذه السنة كان قد مضى على الشدياق نحو أربع سنوات وربما أكثر وهو يعمل في مالطة . فالشدياق عمل في الوقائع المصرية قبل الطهطاوي وليس معه ولا بعده .

متى ترك الشدياق العمل في هذه الصحيفة ؟ لا ندري بالضبط ولكنه يقول في « الساق على الساق » انه جاء إليه قسيس من الصالحين وطلب منه أن يتولى التعليم في مدرسة القسيس هذا « فأجابه إلى ذلك . وإنما رغب فيه لكون البروتستانت لا يؤخرون أجرة من يعمل لديهم»[٤٦] ثم سكن في تلك المدرسة وعندما إجتاح الطاعون مصر سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م كان الشدياق يعمل في مدرسة المرسلين المذكورة كما يقول في كتاب « الساق على الساق » ، بعد أن ترك الوقائع المصرية[٤٧] وسنة ١٢٥٠ هـ تبدأ في ١٠ أيار ١٨٣٤ وتنتهي في ٢٨ نيسان ١٨٣٥ ، أي إنه ترك الوقائع بين أواخر ١٨٣٤ وأوائل سنة ١٨٣٥ .

ولا ننهي الكلام عن الوقائع المصرية قبل أن نلقي ضوءاً كافياً على سامي أفندي مدير هذه الجريدة ورئيس تحريرها . فقد أثّر هذا الرجل في حياة الشدياق وكان له ملاذاً ، كما يقول في ظروف متعددة سنذكرها في مواقعها من سيرته .

سامي أفندي هذا هو بالأصل من مدينة طرابولجة (Tripolitsa) في جزيرة الموريه . وعند قيام الثورة في هذه الجزيرة على الاتراك هاجر إلى مصر ثم إنضم إلى بحرية إبراهيم باشا وعاد مع الاسطول المصري لاحتلال الجزيرة في « حرب الموريه » . وبعد أن إنسحبت الحملة ورجعت إلى مصر رجع معها وعين رئيساً لتحرير جريدة الوقائع المصرية وفي مجلس الملكية معاً . وكان ذلك سنة ١٢٤٥ (١٨٢٨) ثم رقي إلى رتبة أمير لواء . وعين مستشاراً أو باش معاون في ديوان محمد علي سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) فأصبح يعرف بإسم سامي بك . وعندما قامت الأزمة بين السلطان والعزيز على أثر مطالبته بالحكم الوراثي على سوريا لعب سامي بك دوراً خطيراً في المفاوضات وكانوا يصفونه بأنه من دهاة ديوان محمد علي[٤٨] . وعند بدء الأزمة أوفده العزيز إلى اسطنبول بمهمة ظاهرية وهي تهنئة السلطان بمولودة رزق بها ، ولكنها بالواقع كانت للسعي في تقريب وجهات النظر بين البلدين والعاصمتين . وقد شعرت بريطانيا ان سامي بك أوشك أن ينجح بمهمته وكان إهتمامها ينصب في تلك الأزمة على إبقاء الجفاء مستحكماً بين القاهرة وعاصمة الخلافة وإبعاد التفاهم بأي شكل كان . فأقام بالمرستون الدنيا على الباب العالي وأقعدها ووجه إليه إنذاراً يطلب فيه عدم القيام بأية تسوية مباشرة مع محمد علي دون إشراك الدول الاوروبية وموافقتها . وانفردت فرنسا دون الدول الاوروبية في تأييد المساعي وقد صاحب تهديد بالمرستون إستثارة أهل جبل لبنان للقيام ضد الجيش المصري كما هو معروف .

وسامي بك هو الذي رفع مصلح الأزهر الشيخ حسن العطار ، إلى منصب مشيخة هذا الجامع الرفيع[٤٩] ، وهو الذي كان وراءه في عمله الأصلاحي .

وبعد تصفية قضية محمد علي إنتقل سامي بك نهائياً إلى اسطنبول فعين والياً لعدة ولايات مع منحه رتبة المشيرية فأصبح يعرف بمصر لي سامي باشا أي سامي باشا المصري .

وعندما عين السلطان رجل الأصلاح التركي مصطفى رشيد باشا سفيراً له في باريس لمعالجة الأزمة المصرية وذيولها من ناحيتها الاوروبية أقام سامي باشا معه في

العاصمة الفرنسية نحو أربع سنوات باعتباره خبيراً مطلعاً على جميع تفاصيل الأزمة المذكورة من وجهة النظر المصرية . وكانت تجمع بين الاثنين صداقة قديمة منذ أن كانا يتلقيان العلم على يد الشيخ أحمد نجيب أفندي والد سامي باشا ومفتي طرابولجة . وقد عين سامي باشا أول وزير للمعارف في الاستانة عندما أنشئت هذه الوزارة سنة ١٢٧٣ (١٨٥٦) . ولسامي باشا ابن اسمه صبحي بك تردد اسمه في كتاب الساق على الساق أيضاً والجوائب إذ كان وزيراً للمعارف عندما فتح باب المطبعة السلطانية للجريدة . وكذلك يتردد اسمه في رسائل الشدياق إلى أهله بعد أن أصبح صبحي (باشا) والياً على سوريا .

وكان سامي باشا أديباً وشاعراً كتب المقامات باللغة التركية وله تآليف عدة منها « رموز الحكم » ترجمه إلى العربية عبد اللطيف أحمد سلطاني . وهو دعوة إلى الايمان بالخالق القدير ومبدع الكائنات ويقول فيه إن البحث في الطبيعة وعلومها لا يفضي إلى الشك بوجوده سبحانه وتعالى بل هو حافز إلى اليقين بالصانع الأزلي فنظرية داروين والقول بالنشوء والأرتقاء لا يتنافى مع الايمان بالله تعالى ، ولعل سعيه للتوفيق بين العلم والايمان هو الذي خلع على كتابه نفحة صوفية شفافة .

وفي فصوله الأخيرة تبدو دعوة الاصلاح المرتكزة على التربية الدينية فيقول إن وحدة الأمة لا تتم إلا إذا تربى أفرادها تربية دينية صالحة فتستقيم مع هذه التربية المساواة وتوحد مبادىء المواطنين الاخلاقية ومثلهم . وهذه التربية تصون إرادة الأمة من أن تتشتت . كما أن مناعتها لا تتقوى إلا إذا تعلم سوادها وانتشرت المدارس بينهم . فالعلم هو مصدر القوة كما أنه أيضاً منبع التمدن والفضائل وعلى الدولة ان تطور انظمة الحكم فيها لجعلها متلائمة مع الحضارة الحديثة ، وإن هذا التطوير هو مفروض بحكم الشريعة فالتواني عنه توان عن الفرائض(٥٠) . وسنلمس أثر سامي باشا على آراء الشدياق عندما تصدى ، في جوائبه ، للدفاع عن التنظيمات الخيرية .

هذا هو « سامي أفندي » الذي كان رئيساً لتحرير الوقائع المصرية عند إنشائها ، ولعله هو الذي كان وراء إنشائها ، والذي يقول عنه الشدياق إنه كان ولي نعمته عندما كان في مصر(٥١) .

وقد أغلقت شخصيته على من كتبوا عن الوقائع المصرية ولم نجد له ترجمة مترابطة

إلا ما كتبه عبد اللطيف سلطاني الذي ترجم كتاب « رموز الحكم » وألحقها في صفحاته الأخيرة .

إنه من البديهي أن نرى شاباً كالشدياق طريد الظلم وهو في مقتبل العمر عالي الهمة ، فياض الحيوية والمواهب يتأثر برجل كسامي أفندي ، فإن في حياة هذا المناضل العنيد والمتنور والذي يحمل أفكاراً أدبية حديثة ، والسياسي الالمعي ما يجذب صاحبنا فيتخذه رائداً له في الدعوة إلى الاصلاح والتمدن .

III

زواج الشدياق ـ في مالطة للمرة الثانية ـ العمل مع جمعية نشر المعارف المسيحية (S.P.C.K.) ـ ترجمة الكتب المتعلقة بالدعوة البروتستانتية ـ نظم الترانيم ـ التعليم في مدرسة الحكومة ومدرسة سان جوليان ـ مطبعة مالطة لمن ؟

كانت المدرسة التي سكن فيها الشدياق بعد أن ترك العمل في الوقائع المصرية تابعة لمرسلية من الكنيسة الانكليزية على الأغلب(٥٢) . وكانت هذه المدرسة محاذية لدار أحد التجار الشوام . وكان لهذا الجار بنت تحب السماع واللهو والطرب ، وترتاح إلى الغناء . وكان الشدياق يجيد الغناء ويعزف على الطنبور منذ أن كان صبياً . فكانت إذا سمعته يغني أو يعزف في غرفته ، تصعد إلى السطح وتنصت إلى أن يفرغ ، ثم تنزل إلى حجرتها . فلما رأى ان صعودها لأجله ، صبت إليها نفسه ، وعلق بها وغلبه الهوى . ولكنه كان يخشى العشق لأنه غالباً ما يفضي بالمرء إلى الزواج وهو يجفل منه إذ لا يرى فيه إلا الأعباء والمشقات . ومع ذلك ، فقد أخذ عليه الهوى سبيل الرشاد . ففتح ، من ثم ، « باب الاشارة » بينه وبين بنت الجار ، و« دامت دولة الاشارة بينهما أياماً مديدة ، من دون كلام ، مما يتعلل به المبتدئون في الحب » . ثم تآمر العاشقان على اللقاء الخفي ، وكانت هذه اللقاءات من أسعد أيام الشدياق الشاب . وعلمت الأم بالأمر فغضبت ، ولكن العلاقة بين الشابين كانت أقوى من غضب الأم ، فذاقت من ذلك مرارة الصاب ، واتفق الاثنان على الزواج ، ولكن أهل الفتاة رفضوه لأن الشدياق كان خرجياً أي بروتستانتياً ، وأهل الفتاة كانوا سوقيين أي كاثوليك ، وهما لا يجتمعان ،

فعاندت الفتاة ، فلم ير الأهل بداً من القبول ، ولكن بشرط أن يتكثلك الفتى « ولو يوماً واحداً ، فقال الفتى لا بأس ، فعلى هذا تسوق يوم الزواج»(٥٣) .

أما الزوجة هذه ، فكانت من بيت الصولي ، ويظهر إنها كانت شديدة الذكاء قوية الشخصية مما جعلها تؤثر في حياة الشدياق تأثيراً كبيراً . وفي محاوراته معها في كتاب الساق على الساق تبدو وكأنها مرشدته إلى طبائع المرأة وأسرارها ورغباتها وسلوكها .

وحدث للشدياق أنه قبيل أن يتزوج طلبه رئيس البعثة التبشيرية في مالطة لوظيفة يتولى فيها ترجمة الكتب المتعلقة بالتبشير إلى اللغة العربية وتصحيحها ويقول بلغة التورية : إن المبشر هذا طلبه « ليكون عنده بمنزل معبر الاحلام » و « مصححاً للبخر » والتعبير بالأصل هو تفسير الاحلام ، والبخر تعني رائحة الفم الكريهة والكلام يعني هنا الترجمة وتصحيح لغة الكتابة فكان عمله إذاً تعريب الكتب وتصحيح لغتها ثم الاشراف على ما يطبع منها . وإنما قبل بهذا العمل لأن ذلك يدر أجرة أكثر مما كان له عند القسيس في مصر . ثم انه كان منذ نعومة أظفاره يلهج بالاسفار والمغامرات ، فما أن تتم مراسم الزواج حتى يجمع الزوجان حوائجهما ، ويسافران إلى الجزيرة في « سفينة نار » كما يدعوها(٥٤) .

وصل المركب إلى مالطة بعد بضعة أيام ، وأقام الزوجان في المعتزل ثلاثين يوماً دخلا بعدها إلى البلد .

وحياة الشدياق في مالطة يكتنفها الغموض لولا وثائق تتعلق به عثرنا عليها في مركز جمعية نشر المعارف المسيحية في لندن (S.P.C.K.) . وهي محاضر لأجتماعات الجمعية المذكورة وبلغ ما يتعلق منها بالشدياق نحو ١١٤ صفحة وسنذكر هذه المحاضر في موضعها في بحثنا هذا(٥٥) .

ها هو الشدياق في مالطة للمرة الثانية ، ولن تكون حاله الآن كما كانت في المرة الأولى فالعلاقة مع قسيس الجمعية ومدير مطبعتها علاقة ود وتعاون . وله زوجة تهيمن على بيته وتسهر على شؤونه . أما مالطة كما يصفها ، في كتابه « الواسطة في أحوال مالطة » فهي ذات مسحة أوروبية بالنسبة إلى كل آت من الشرق ، وفيها يرى المرء نموذجاً للمجتمع الغربي ، ولكنه نموذج غير بهي ، إذ أن ما في مالطة هو « نفاية ما عند

الأفرنج » . ولغة أهلها « بالأصل عربية ولكن ثلثيها فاسد » وليس فيها من يحسن قراءتها أو التكلم بها « وليس في فاليته حمام منظور يتطهرون به من نجاستهم ، وهم يطبخون أدامهم بشحم الخنزير وماؤهم ماء المطر مخزونا في الأبار » وهم « لا نظافة لهم من حيث كانت خدماتهم أبداً مكشوفة الرؤوس فيتناثر شعرهن في المطبخ وفي الطبيخ ، ولأنهم قليلاً ما يبيضون آنية الطبخ إلخ . . . » .

وهذه الملاحظات وإن بدا فيها بعض التدقيق والتحرج ، فذلك من طباع الشدياق ، فهو دقيق في متطلبات الحياة اليومية في العيش والبيت والخدمة والنظافة والأكل .

شرع الشدياق بالعمل الموكول إليه ، ولعله بدأ بالتعريب[٥٦] ، وكان من أهم ما عنيت به الجمعية في بادىء الأمر ترجمة « كتاب الصلوات العامة على موجب إستعمال الكنيسة الارلندية مع مزامير داوود» وهو كتاب لتورجيا خاصة بالبروتستانت وتتركز أهمية ترجمة هذا الكتاب في كونه يحوي بعض النصوص من الكتاب المقدس. وقد رأت الجمعية أن تكون هذه النصوص مترجمة ترجمة جديدة من لغات الأصل وليست منقولة من الكتب المتداولة في تلك الأيام . وترجمة نصوص الكتاب المقدس ليس بالأمر السهل ولا يقدم عليها إلا من كان متمكناً تمكناً أكيداً من لغة الأصل واللغة العربية . وقد أنجز الشدياق ترجمة الكتاب المذكور وتم طبعه في فاليته في مالطة سنة ١٨٤٠ .

أعجب المرسلون بعمل الشدياق وأثنوا عليه وأطروا كفاياته مما جعل حاكم الجزيرة أن يدعوه في المناسبات إلى بيته فيذهب في زيه الشرقي فيخالونه من الساحرين . وذات يوم ، قال له الحاكم ، إنه يرغب إليه أن يعلّم العربية في مدرسة الحكومة فاعتذر في بادىء الأمر لأنه يعمل مع جمعية نشر المعارف المسيحية ، ويهيمن على مطبعتها فأجابه الحاكم بأنه سيتوسط لدى الجمعية فقبل الشدياق شاكراً .

ومن ثم إنقسم عمل الشدياق بين المطبعة والتعليم في مدرسة الحكومة ، « أربع ساعات في خدمة الجمعية وثلاث في خدمة الميري » .

كان على الشدياق قبل أن يباشر التعليم أن يضع الكتب المدرسية فبدأ أولاً بتجهيز ثلاثة كتب . وكانت الحاجة أسرع ما تكون إلى كتاب في القواعد فلخّص كتاب « بحث المطالب » للمطران جرمانوس فرحات وأخرجه بالطبع إلى أن يتسنى له تأليف كتاب يفي بالمرام . ثم وضع كتاب « الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية » وهو

1850 March

At a meeting of the Foreign Translation Committee

Lincolns Inn Fields
Monday March 18 1850

Present Mr Horne in the Chair
Mr Cureton
Mr Clark
Mr Renouard

Mr Fares (Haileybury)

Read a letter from Mr Fares, dated March 8 1850, Cambridge, saying that as there seemed to be no prospect of his obtaining an extension of his leave of absence, he was quite willing to throw up his appointment at Malta & remain in England if he could obtain any similar appointment here. He suggested that his services might be useful at Hayleybury College.

A letter from Dr Lee dated March 13 mentioned that he had written to Mr Wilson the Librarian at the India House on this subject. Another letter from Dr Lee, written three days afterwards, said that Mr Wilson informed him there was no opening for Mr Fares at the East India College, & a letter from Mr Melvill the Principal of the College, to whom the Secretary had written, informed the Committee that the [illegible]

صفحة من محاضر «جمعية نشر المعارف المسيحية»

أول كتاب من تأليفه على الاطلاق . ثم صحح كتاباً للجغرافيا أسمه « الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار » . وكان هذا الكتاب قد طبع للمرة الأولى سنة ١٨٣٣ في مالطة باسلوب ضعيف فأعاد الشدياق كتابته وهو كتاب جغرافيا للمبتدئين ، أفرد فيه لكل دولة ثلاث صفحات أو أربع ما عدا مصر ، فقد أضاف إليها الشدياق معلومات مفصلة ، من عنده ، ومدح واليها محمد علي باشا حتى أربت صفحات مصر على ١٥ صفحة . ويشبه ثناؤه على مصر في هذا الكتاب ما سوف يرد في كتاب الساق على الساق . وطبعت هذه الكتب الثلاثة سنة ١٨٣٦ .

ثم وضع الشدياق كتابه الأول في القواعد « اللفيف في كل معنى ظريف » ليحل محل كتاب المطران فرحات . وهو يشتمل على المبادىء الاساسية وتمارين للقراءة تدرج بها من الأسهل إلى الأصعب بينها أمثال للعرب وقصص منقولة عن كليلة ودمنة وغيرها ، وحكم ومغاز وأبيات في أسلوب يمكن وصفه في ذلك الزمن بأنه حديث وقد طبع اللفيف للمرة الأولى في سنة ١٨٣٩ في مالطة[٥٧] .

ثم أخرج سنة ١٨٤٠ كتاب « المحاورة الأنسية في اللغتين الانكليزية والعربية » وهو مكمل لكتاب الباكورة الشهية . ويشتمل على جمل بالانكليزية وتعريبها إلى الفصحى وإلى اللهجة العامية المصرية . وقام بعدئذ بترجمة كتاب « شرح طبائع الحيوان » . وموضوع هذا الكتاب هو ما نعرف عنه اليوم « بعلم الحيوان » . ونقدّر أنه لدراسة التلاميذ في المراحل الابتدائية وسوف نتكلم عن هذا الكتاب في فصل آت .

ونظم الشدياق للمرسلين ترانيم لتتلى في الكنائس البروتستانتية جمعت في كراس اسمه « صليب المسيح »[٥٨] .

ويجدر بنا الآن أن نوضح أمراً يتعلق « بمطبعة مالطة » التي عمل فيها . فهناك إعتقاد عند بعض المحققين أن هذه المطبعة هي « المطبعة الاميركية » التي نقلت إلى بيروت سنة ١٨٣٤ . فقد قال الأب شيخو : « إن المطبعة الأميركية أنشئت في مالطة سنة ١٨٢٢ بعد أن صارت الجزيرة في حكم الأنكليز ، وتولى نظارة مطبوعاتها العربية وإصلاحها فارس الشدياق الشهير . ونقلت إلى بيروت سنة ١٨٣٢ . ويظهر ان قسماً من إدارتها بقي في مالطة على الأقل إلى سنة ١٨٤٢ »[٥٩] ويذكر مثل هذا القول الأب يوسف نصر الله في كتابه «L'imprimerie au Liban» .

ويقول آخرون إن المطبعة نقلت إلى بيروت سنة ١٩٣٤ ويسكتون عن نشاطها في

الطباعة العربية في مالطة ، ربما لأنها لم تطبع إلا شيئاً هزيلاً هناك .

أما الواقع كما نراه فهو:

١ ـ إن « المطبعة الاميركية » تأسست في ١٠ شباط ١٨٢٢ في تلك الجزيرة وجاء في كتاب « العيد المئوي لنقل المطبعة الاميركية إلى بيروت انها كانت تطبع بالانكليزية والايطالية والأرمنية والتركية »(٦٠) ولم يذكر هذا الكتاب أنها طبعت بالعربية .

٢ ـ في سنة ١٨٣٤ رأى المرسلون أن ينقلوا المطبعة من مالطة ، وقرّ رأيهم على أن تقسم إلى فرعين ، فرع يكون مركزه في ازمير ، والآخر في بيروت ، « يقتصر على خدمة اللغة العربية والبلاد الشرقية » ولم يذكر أنه بقي قسم منها في الجزيرة كما قيل .

٣ ـ تقول بعض المصادر انه ، كان في الجزيرة في ذلك الزمن أكثر من مطبعة . وجاء في كتاب « العيد المئوي لنقل المطبعة الاميركية إلى بيروت » انه كان يوجد في مالطة سنة ١٨٣٤ مطبعتان للمرسليات . ثم إذا راجعت الكتب المطبوعة هناك في تلك السنوات لوجدت أن بعضها موسوم بـ « طبع في مالطة » والآخر بـ « طبع في فاليته » . كما أن الشدياق ذكر أنه حين غادر الجزيرة سنة ١٨٤٨ كان فيها « سبع مطابع إحداها للميري تطبع فيها الأوامر والنواهي التي تصدر من ديوان الحاكم ، والباقي للأهلين»(٦١) .

٤ ـ لم يعمل الشدياق في المطبعة الاميركية ، إذ أنه لم يقل لا صراحة ولا تلميحاً في أي من كتبه أو رسائله ، إنه قام بعمل ما في تلك المطبعة ، كما لم يقل انه عمل في أية مطبعة أخرى ، في سفرته الأولى إلى تلك الجزيرة ، بل قال ان هذا حدث بعد عودته الثانية إليها أي في نحو سنة ١٨٣٥ ، وكان قد مضى على نقل المطبعة الاميركية إلى بيروت سنة واحدة تقريباً .

٥ ـ ذكر الشدياق في رسالة إلى شقيقه طنوس مؤرخة في ٥ نيسان ١٨٣٩ أنه يعمل في « المطبعة التي هي لمجمع الانكليز » وهذا كلام صريح لا يحتاج إلى تأويل .

وفي هذه المطبعة لا في غيرها طبعت الكتب المدرسية التي ألّفها الشدياق والتي ترجمها أو صححها .

فإذا ذكرنا « مطبعة مالطة » على أنها صاحبة الفضل والمآثر إلخ . . . فإنما يجب أن نعني بذلك هذه المطبعة « التابعة لمجمع الإنكليز » وليس غيرها .

نعود إلى الشدياق ، فبعد أن عُيِّن مدرساً أصبح له دخلان من المطبعة الإنكليزية ومن المدرسة الحكومية ، فأمن ذلك له نوعاً من البحبوحة . فهدأ باله وساد حياته بعض الإستقرار . وقال لشقيقه طنوس في رسالته المؤرخة في ٥ نيسان انه وعائلته يتمتعون بالعيش الهنيء وأنه أرسل إلى والدته مبلغاً من المال مع اعتذار ووعد بإرسال مبلغ آخر .

وكان رئيس المطبعة قد أصيب بعلة في الصدر فعزم على السفر إلى بلاد الشام لتغيير الهواء . فاصطحب الشدياق إلى بيروت وكان أول ما طرق سمعهم أن أهل الجبل قد خلعوا ربقة الطاعة لوالي مصر وتجندوا عليه .

ذهب الشدياق إلى قريته في الجبل فتقاطر أهله وأهل القرية للسلام عليه . فرآهم كما كان قد غادرهم منذ خمس عشرة سنة ، « أي أنك تجد الواحد منهم مطرقاً ، كما يقول ، لا كتاب عنده ، فيطالعه ، ولا سمير له فيسامره ، ولا آلة لهو تطربه . وقد يقضي ساعات من النهار هكذا بل يوماً وأياماً ولا يرى من امرأة أصلاً حتى تعمش عيناه ، ويظلم فكره ، وتلقس نفسه ، وتحرض معدته ، فأين هذا من مجالس الإفرنج ؟ » .

ولما سمحت الأحوال العسكرية بالتنقل ذهب الشدياق ورفاقه إلى بعلبك للتفرج على قلعتها ثم إلى دمشق ، ثم عادوا إلى بيروت ، ومنها إلى يافا والإسكندرية ، ثم إلى الجزيرة ومعتزلها .

عاد الشدياق إلى مالطة ، وقد أصبحت الآن ، محطة لرجال الدولة الإنكليز الذاهبين إلى الشرق والواردين ، وقد كثرت تنقلاتهم بسبب تأزم الوضع السياسي ، من هؤلاء الرجال كان الكولونيل ماك نافن وهو في المقدمة من رجال الإستخبارات البريطانية ومن الذين أوكل إليهم قضايا الشرق ، فطلب الأمير بشير ، وكان منفياً في مالطة ، مقابلته واضطر إلى اللجوء إلى فارس ابن الخصم القديم للقيام بالترجمة . ومن غريب أمر الشدياق أنه لم يذكر هذه المقابلة ولا ما يكون قد قيل فيها من أسرار[٦٢] . ولكنها كانت مناسبة للتعرف على هذا الضابط السياسي النافذ فانتهزها فرصة للتوسط في أمر أهله وما يمكن أن يكون قد وقع عليهم من حيف بسبب الحرب . وكان أكثر ما يهمه التوصية بأخيه الأكبر طنوس .

IV

المطران أثناسيوس التتنجي ـ الإختلاف على أسلوب الترجمة في النصوص الدينية ـ كتاب الصلوات العامة ـ دسيسة التتنجي ـ صرف الشدياق من العمل ـ إنطلاق سخرية الشدياق .

تأتي العطلة المدرسية في صيف ١٨٤١ فيذهب الشدياق إلى تونس للمرة الأولى ويتعرف على أهل الفضل فيها ثم يعود لينظم قصيدة في مدح واليها أحمد باشا ويرسلها إليه . فيعجب بها الباي ويرسل إليه علبة نشوق مرصعة بالألماس ومعها كتاب من مصطفى باشا خازندار الدولة التونسية(٦٣) .

وتمضي أيام وشهور وإذا بأمائر الجنون تظهر على رئيس المطبعة فتعرى ذات يوم وأخذ يقول : « يا أيها الناس ، ما جعلت الثياب إلا لستر العورة ، ولا عورة لمن كان بريئاً من الذنوب والمعاصي . فإن آدم لما كان في الفردوس في حالة العصمة والبراءة لم يكن له حاجة بالثياب » . وهكذا راح يحض الناس على أن يفعلوا فعلته وحتى زوجته نفسها أخذ يغريها بالتعري . وظل ذلك شأنه إلى أن أقيل ونقل إلى إنكلترا كما قال الشدياق لأخيه طنوس في إحدى رسائله وأنه : « لا نعلم ما يعرض علينا ، ويقال انه لا بد من إبطال الطبع هنا والله أعلم » .

صدق حدس الشدياق وتشاؤمه . ولكنه لم يبطل الطبع هناك ، أي لم تقفل المطبعة ، كما ذهب ظنه ، بل أقيل هو من المطبعة ، فلم يبق له بعد الآن إلا وظيفة

التدريس في المعهد الحكومي فهبط دخله وتبدلت ميزانيته وأصابه الضيق .

ويبدو أن إقالة الشدياق حدثت بين ١٧ أيار و ١٣ تموز من سنة ١٨٤٣ . ففي رسالة إلى طنوس مؤرخة في ١٧ أيار ١٨٤٣ كانت لا تزال تدرج على قلمه لغة البحبوحة والكفاية ، إذ قال له انه سوف يرسل ولديه وزوجته إلى إحدى مدن إيطاليا ليتعلموا اللغة الإيطالية لأنه يخشى عليهم فساد اللسان في مالطة ، واقترح عليه أن يأتي إلى إيطاليا ويسكن مع الأولاد وأمهم ، فيكون البيت تحت نظارته ، ويتعلم الإيطالية ، وذلك على حساب فارس .

ولكن في كتابه المؤرخ في ١٣ تموز من السنة ذاتها بدأت تظهر عليه أعراض القلة ، فقال له انه يفكر في إرسال زوجته إلى بيت أبيها في مصر أو إليه في لبنان « حيث لا يلزم مصاريف كثيرة » .

وكان شقيقاهما منصور وغالب قد توفيا ، وخلفا عائلتين تولى أمرهما طنوس على رقة أحواله المالية . فرأى فارس أن من واجبه أن يسانده في القيام بأود العائلتين ، كما أن فارساً نفسه كانت عائلته قد كبرت وزادت الأعباء عليه بينما كان دخله قد شح ، فأصابه اليأس وقال : « تمنيت أن ألحق بأخوي فأستريح من همّ العيال وهم الأهل » بل ودفعته الحاجة إلى أن يطلب مساعدة من أهل زوجته في مصر . فبعد أن أقيل من المطبعة لم يعد راتبه من التدريس ليكفيه إلا للأكل واللبس وأجرة البيت(٦٤) . . ثم ألحّت الحاجة عليه إلحاحاً شديداً فاضطر إلى إرسال عائلته إلى مصر . وصادف أن مر بمالطة في تلك الفترة سامي باشا ذاهباً إلى إيطاليا فاستصحبه في سفرة استجمام مدة قصيرة ، ثم عاد إلى الجزيرة وقد وعده الباشا بأن يسعى له ، عند عودته إلى مصر بوظيفة براتب حسن ، فلبث ينتظر ، على أمل أن يخلصه الوعد من هذه الجزيرة النحس .

ولكن لماذا أقيل الشدياق من المطبعة ؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال لا بد من القول اننا سوف نرى هنا بعد أن تداعت المشاكل في وجهه ، صفحة من أهم صفحات الشدياق المجهولة تفتح أمامنا ، فنرى فيها :

١ ـ نشوء جدل لغوي عنيف سيؤثر ، بفضل عناد الشدياق ، تأثيراً أكيداً مباشراً على تطوير لغة الكتاب المقدس في ترجمته العربية .

٢ ـ بروز شخصية الشدياق في الأدب الساخر والهجو .

عندما فوجيء الشدياق بالعزل احتار في الإهتداء إلى السبب ، وفي كلامه إلى شقيقه ما يبدو معه وكأن جنون رئيس المطبعة ، واحتمال إقفالها هو السبب ، ولكن الواقع سيكون غير ذلك .

كانت لجنة الترجمة التابعة لجمعية نشر المعارف المسيحية قد كلفت الشدياق بترجمة كتاب «الإختيارات من كتاب الصلوات العامة وغيرها . مع الأدعية المعينة لأيام الآحاد والأعياد ومعمودية الأطفال . . . » إلخ . وهو غير كتاب « الصلوات العامة مع مزامير داوود » الذي ذكرناه آنفاً ، والذي ترجمه الشدياق وطبع سنة ١٨٤٠ . فهذا الأخير مختصر للأول .

والكتاب ذو أهمية خاصة بالنسبة للجنة . وقد نشطت إلى ترجمته إلى لغات كثيرة ، أوروبية وآسيوية وإفريقية . وهو كتاب كبير يحوي فصولاً من الكتاب المقدس ، منها المزامير وبعض الإصحاحات من الأناجيل والرسائل ولتورجيا موسعة لذلك كانت ترجمته تتطلب دقة متناهية وتمكناً أكيداً في أصول الترجمة .

بدأ الشدياق في ترجمة الكتاب « بلغتنا هذه العربية على ما اقتضته قواعدها » كما يقول . ولكن اتفق وقتئذ أن سافر إلى لندن المطران أثناسيوس التتنجي الحلبي مطران طرابلس الشام للروم الكاثوليك ، واتصل بأعضاء اللجنة وأفسد على الشدياق عمله . ولا نعلم ماذا قال المطران لأعضاء اللجنة بالضبط . ولكن الشدياق روى خلاصة الموضوع في كتاب الساق على الساق وفي مذكرتين وضعهما في هذا الشأن بعد أن وقف على حقيقة الأمر وقام بحملته العنيفة ضد التتنجي .

في محصل كلامه الساخر يقول : « انه كان قد عرّب للإنكليز كتباً من جملتها كتاب يشتمل على صلواتهم وعقائدهم ، فلما ذهب المطران التتنجي « مؤلف كتاب الحكاكة في الركاكة » إلى بلادهم سئل عن تعريب تلك الكتب فقال : « إن عباراتها إسلامية لا تتناسب مع أهل الكنيسة ، وذلك لخلوها مما اشترطه على المترجمين ، والمعربين في كتابه المذكور ، وإن النصارى يحبون الكلام المعسلط المعسطل ، ولذلك طلب التتنجي من اللجنة المذكورة أن يفوضوا إليه الكتاب الذي مر ذكره ليحظى عند النصارى بالقبول وإلا فلا . فلما رأوه ذا لحية لا سيما أنه متحل بجلاء (أي لقب) مطران . والمطران لا يكون عندهم الا عالماً فاضلاً ، اعتقدوا فيه الفضل والعلم وفوضوا

إليـه العمل »[٦٥] وانتقل التتنجي إلى مالطة وأقيل الشدياق من دون أن يعلم لذلـك سبباً .

أخذ المطران يعيد النظر في الكتاب المذكور ، وكان إنجـاز هذا العمـل ، يعتبر ، بالنسبة إلى اللجنة ، خطوة تمهيـدية لمشـروع أجل شـأناً ، وهـو ترجمـة الكتاب المقـدس برمته ، وقد رضيت اللجنة عن إنجـازات التتنجي في « كتاب الاختيـارات . . » في أول الأمر مما أهله لأن يتولى القيام بالمشروع الآخر .

أما في الواقع ، فلم يكن التتنجي على مستوى العمل الذي ندب إليه ، فعمله لا ينطبق على قواعد اللغة ، كما يقول الشدياق ولا على أسلوبها الصحيح « فـأخذ يصحـح الكتاب بمقتضى فهمه ، فجعل يبدل الفصيح منه بـالركيـك والقبيح ، والكـلام العربي بالأعجمي ، وصرف وصحّف وزاد وأجحف ، وجـاء من اللحن والغلط بما لا يحـد ولا يعـد ، وأوهم القوم أنـه صححه أي تصحيـح ، ومـا كـان ذلـك إلا تغييـراً في الـوجـه المليح » . « ولما كان التتنجي جاهلاً تصليح الطبع زيـادة على جهله للغـة ، كان لا بـد من أن تبلغ هذه الروائح الخبيثة منزل الشدياق . فإن مدير المطبعة ، التي كان يطبع فيها الكتاب ، كان من أصحابه فكلفـه بأن يصحـح غلط الطبـع من دون تعرض لتصحيـح الغلط في الترجمة » حينئـذٍ ، وبهذه الـوسيلة فقط ، عرف الشـدياق سبب مجيء التتنجي إلى مالطة ، كما عرف بعدئذٍ دسيسته لدى أعضاء اللجنة في لندن .

« فصّـر الشديـاق بعض هبات كـريهـة من تلك الـروائـح وبعث بهـا إلى اللجنـة المذكورة وأقام ينتظر الجواب » أي بعبارة ثانية ، بعث برسالة إلى لندن يفند فيها أخـطاء التتنجي وأعماله . وقد قرأت اللجنة المذكورة رسالة الشدياق ، وكانت باللغة العربية ، في جلستهـا المنعقدة في ٢٠ آذار ١٨٤٤ كـما قرأت تعقيبـاً عليها من القس الـدكتور مـلّ (Dr . Mill) .

وجاء في التعقيب : أن انتقادات السيد فارس تافهة ، وبعضها غير صحيح . ولما كان المرء يطبق قواعد اللغة الأرامية على اللغة العربيـة للإنشـاء (؟) فهذا الشيء يجب الإحتراز منه عند ترجمة الكتاب المقدس واللوترجيا » .

وجاء في محضر الجلسة ذاتها أنه تليت رسالة ثانية للشدياق في الموضوع نفسه فتولى التعليق عليهـا المسـتر كـورتن (Mr . Curaton) ، وقـال : « إن الـرسـالـة حـوت كسـابقتها ، انتقـادات تافهـة . ويبدو أن لا شيء يـرضي الكاتب سـوى ما يقـرب من أسلوب القرآن ولغته ، وأعتقد أن ملاحظاته ليست جديرة بالإهتمام » .

اشتدت الأزمة بين الشدياق وبين أعضاء اللجنة على أثر هذا الموقف فهدد بأنه إذا

لم يؤخذ بكلامه فإنه سوف ينشر الأمر على الملأ ، مما دعاهم إلى إحالة الأمر برمته على أسقف جبل طارق في مالطة (وأسقف جبل طارق هو لجبل طارق ومالطة معاً) ليطلع عليه وينظر فيه ويتخذ ما يراه مناسباً في أمر هذا التهديد . ولكن لم يمض وقت طويل حتى جاء من الأسقف المذكور أن الشدياق نفَّذ تهديده ونشر في جريدة مالطية فحوى كتابيه ، فغضب الأعضاء من تصرفه الأرعن وأرسل إليه أمين السر كتاباً قال له فيه : « أما وأنه قد نشر ما جرى بينه وبين اللجنة فلا داعي إذاً لمواصلة بحث هذه القضية » وهكذا أوصد بوجه الشدياق ، باب العودة إلى العمل مع الجمعية .

لا نعلم بالضبط ما نشره الشدياق في الجريدة المالطية ، كما أننا نجهل ما ورد في الرسالتين الموجهتين إلى اللجنة ، ولكن بين أيدينا صورة عن مذكرة نادرة بخطه . وفي غالب الظن أن ما جاء في الرسالتين وفي الجريدة ، متضمن في هذه المذكرة ، وما جاء فيها أيضاً يدل على أنها وضعت على عدة نسخ ووزعت للتشهير ، ليس بالتنجي وحده ، بل وباللجنة أيضاً . وفي المذكرة هذه ، قصيدة طويلة ، يشكو في مطلعها من تأثر الأعضاء بمظهر التنجي وانخداعهم بشخصيته . قال في القصيدة .

أكلّ أثيث الشعر للعجم ساحِرُ ... مطاع لما ينهَى بما شاء آمِر ؟
وكل طويل اللحية اليوم عالمٌ ... وكل مشير بالبنان مُناظِر ؟
وكل امرىء يَبْري اليراعة كاتب ... وكل فتىً يحوي الدفاتر شاعر ؟
وكل مُطَيْرِينٍ يقول فَيُتَّقى ... وكل له فيما ادعاه مُياسِر ؟
وكل على تصديقِهِ متهافِتٌ ... عمٍ وعلى ما يَفْتَريه مؤازرُ ؟

وينتقل بعد القصيدة ، وهي طويلة ، إلى بحث لغوي يفند فيه أخطاء التنجي التي أدخلها على الكتاب وهي كثيرة . ننقل هنا بعض هذا التفنيد كأنموذج للجدل الذي دار حول تصحيح العبارة في الكتابات الدينية .

قال الشدياق : « إن من أغلاط التنجي قوله أضافوا على والصواب إلى . وقوله الأطباع والصواب الطباع . وقوله القارين والصواب القارئين . وقوله أخطأت في السماء والصواب أجرمت على السماء لسبب بعيد عن فهمه . وقوله كلما ينبت وكلما يدب والصواب كل ما لتعليل لم يدخل في عمله وقوله نتضرع إليك أن تسر بأن تنظر بأعين عطوفة إلى جلالة سيدنا الحميم الملك فلان والصواب أن ترضى مكان قوله تُسَرّ وهو لا يفرق بينهما . وعطوفة غلط قبيح ، والعبارة فاسدة من عدة مواضع بيناها في كتابنا « الدر اللُّجِّي » . وقوله قداسة الحياة وفي ترجمتي طهارة الحياة . وقوله إذ نرى إنك

عقيب تواضعنا سررت ، خطاباً للباري تعالى ، وهو فاسد اللفظ والمعنى . وقوله بالرجا المغبوط ولم أسمع أن الرجاء يكون مغبوطاً إلاّ منه والظاهر أنه يحب المغبوط ، كالمبارك . وقوله حين نكون معاقين والصواب حين نكون معوقين . وهذه أخت قوله إذ نكن مصانين . وقوله نحظى بعد هذه الحياة على التمتع بلاهوتك وفي ترجمتي نحظى بعد هذه الحياة بمجد لاهوتك . وقوله فيما خالف به ترجمة رومية ، لأن الخلاص أقرب منّا الآن أكثر من الوقت حين آمنا والصواب أقرب إلينا مما كنا حين آمنا ، كما في ترجمة رومية . وقوله إذ صنع تطهير خطايانا جلس في يمين الجلالة والصواب إذ طهر خطايانا جلس عن يمين ذي الجلالة . وكرّزتُ أي بشَّرتُ أو وعظت ولا يعدل إليهما عن إحداهما إلا كل كرّاز كبير . وقوله تقمقموا على رب البيت أي دمدموا . عظيمة هي أمانتك أي أن إيمانك لعظيم ، وقوله أن أولاد البريّة كثيرون من التي لها رجل أي أن أولاد البريّة أكثر من أولاد ذات الزوج . وقوله يصير سجس أي شغب. فعِدّا لنا هناك أي أعداء . وأنه بزيادة قال أي زاد على أن قال . وكمن إلى لص خرجتم أي كخروجكم على لص . وغير ذلك مما لا نهاية له ولا مجال لحصره في هذه العجالة . وقوله نظمت هنا جملة ضوابط وفيها طائفة من ضوابط فظن أن الطائفة لا تطلق إلى على جماعة الناس . وقوله بصوت متضع وفيها منخفض. وقوله تعضد عبيدك وفيها تنصر عبادك . وقوله وارتقة وانشقاق وفيها وبدع وشقاق . وقوله ندامة صادقة وفيها توبة صالحة . وقوله حيوة زكية وفي ترجمتي بالألف ، فظن أن الألف تكتب بالواو وجوباً . . . وقوله قبلت ذبيحة السالمة وفيها كفارة وهي أعم من أن تكون ذبيحة أو غيرها . ولو حاولنا الكلام عن ذلك لضاق عنه الوقت » .

ويختم الشدياق المذكرة بقوله : « إن القضية إنما هي دائرة بين خصمين لا حكم بينهما إلا قوم أعاجم غلب على اعتقادهم أن من كان مطراناً كان بالعلم جديراً وغيره مكثوراً . والله يجعل الفضل حيث يشاء وهو حسبي ونعم الوكيل » .

بعد أن نشر الشدياق ما نشر قال لصديقه موظف المطبعة انه انتقم لنفسه وأنه بهذا الإنتقام شفى غله . ولكن الشدياق بالواقع أصبح في وضع نفساني لا يشفي غله شيء ، فقد انقطع أمله نهائياً ، من العودة إلى المطبعة وإلى ترجمة الكتاب المذكور . وقد كانت خسارته على وجهين مادي وأدبي . وقد يسلِّم ، من كان مثله ، وعلى رقة أحواله بالخسارة المادية ، أما أن يؤخذ بالغلط على أنه الصحيح ، أما أن يؤخذ بالجهل على أنه العلم ، أما أن يحل الباطل في مكان الحق ، فهذا ما لا طاقة للشدياق به ، فاتجه بنقمته

على التتنجي الذي استطاع أن يزيف علمه عند القسيسين ، فلم يجد سُبَّة إلا نسبها إليه ، ولا عاراً إلا وألصقه به ، ولا نقيصة إلا ونعته بها ، ولم يغادره إلا بعد أن ألبسه أذني حمار :

يا من رأى في جملة الحُمُرِ حمارَ دير ملبَّد الشعر
له خلاف الحمير من قُبُلٍ ذيل وذيلُ الحمارِ من دُبرِ
إن يمشِ يخبط في الأرض من بطر وما يردي الحمار كالبطَرِ
هذي صفات الحمار ظاهرةٌ ذاك التتنجي نفاية البَشَرِ

ولم يخل أي اعتبار ، دون الشدياق والأقذاع الفاحش ، فقال في كتاب الساق إن ادعاء التتنجي الأدب والكتابة والترجمة كاذب « وهو أضيق أُستا من أن يفعل . . . فغاية ما علمه من النحو باب الفاعل والمفعول ، ومن البيان نوع التجريد ، ومن الفقه باب النجاسات ، ومن العروض الوتد المتحرك ، ومن البديع رد العجز على الصدر ، وإن هذا حد ما عرفه وتبجح به في مدرسة عين تراز حين كان قيِّم تلامذتها »(٦٧) .

ولعل الشدياق قد أحس بنوع من الرخص في هذا الهجو المقذع ، فنراه يعتذر عنه لأخيه طنوس ويقول : « حيث أن ذلك الخبيث اللئيم المطران الجاهل كان السبب في هذه المضرة علينا فتعين علي هجاؤه ، وتنديد معائبه وأغلاطه تشفية للنفس منه » .

وكانت حملة الشدياق هذه على التتنجي ، هي الأولى من السلسلة الطويلة التي كانت تقوم بينه وبين خصومه . وهذا الصدام قد لا يقل أهمية عما حدث بعد نحو ربع قرن بينه وبين الشيخ إبراهيم اليازجي ، من حيث عنف اللهجة ومن حيث قيمة البحث اللغوي وجديته . وإذا ما امتاز الثاني على الأول بكثرة المشتركين فيه كالشيخ إبراهيم الأحدب والشيخ يوسف الأسير ، والشيخ أبو النجا الأبياري وغيرهم ، أو بأنه كان له أثر مباشر على تطوير اللغة وتجديدها ، إلا أن الصدام الأول امتاز بأنه كان غنياً أيضاً ببحث المفردات وتراكيب الجمل وتطوير الأسلوب في الكتابات الدينية وفي مناهج ترجمة الكتاب المقدس مما نراه قد أثر تأثيراً جدياً في تطوير الترجمات التي ظهرت بعد هذا الجدل . ومن مميزات هذا الحادث أيضاً ، أنه كان الحافز الأول الذي أبرز ملكة السخرية عند الشدياق . وقد لا نجد في شعره ما هو أشد أقذاعاً في الهجو ، مما قاله في التتنجي .

وبين المساجلتين ، فالأولى ، في رأينا ، على نقص شهرتها ، هي الأهم وهي الأكثر تأثيراً لا في تطور شخصية الشدياق الفنية والأدبية واللغوية وربما الدينية ، فحسب بل في تطور الكتابات الدينية المسيحية وهي شأنها شأن جميع الكتابات الدينية ، أروج ما يقرأه الناس .

V

الجمعية تعود إلى آراء الشدياق وتصرف التتنجي - استدعاؤه إلى لندن لترجمة الاختيارات العامة المطول - تطوير أسلوب الترجمة - العودة إلى مالطة واكتشاف سوء سلوك زوجته - أثر الحادث في آرائه بالمرأة .

بعد أن أفرغ الشدياق ما في جعبته ضد التتنجي ، وبعد أن داخله اليأس من العودة إلى العمل ، مال به الرأي إلى ترك مالطة والعودة نهائياً إلى مصر فذهب إلى أسقف جبل طارق واعتذر له عما بدر منه من سوء تصرف بالنسبة للجمعية . ويبدو أن هذا الإعتذار كان مقدمة لصرف مكافأة كانت الجمعية قد قررتها له في خريف ١٨٤٣ ، وكان ذلك تعبيراً عن تقديرها لمساعدته للقس شلنز (Schlienz) في ترجمة بعض فصول الكتاب المقدس[٦٨] .

أخذ الشدياق ، بعد ذلك ، يعد العدة لمغادرة الجزيرة إلى مصر ولكنه بالنتيجة لم يفعل . فقد حدث ما قلب الأمر رأساً على عقب إذ بالرغم مما آلت إليه العلاقة بينه وبين اللجنة فإن كلامه في حق التتنجي لم يذهب هباء بل زرع الشك في نفوس الأعضاء ، ولهذا أخذوا يدققون في أسلوب المطران ويرسلون ما يقوم به من أعمال إلى الموصل لينظر فيه القس بادجر (Badger) ثم يرسل التصحيح من الموصل إلى لندن ليعرض على بعض من لهم إلمام بالعربية ، ثم يرد إلى مالطة وفيه ثلاثة تصليحات ، مما كان يطبع هذا العمل بسوء التدبير والإرتباك فضلاً عن البطء وما كان ينجم عن هذا

البطء من أضعاف العزم وربما صرف النظر عن إنجاز المشروع . فعرضوا الأمر على الدكتور لي (Lee) ، من أساتذة كلية ترينيتي في جامعة كمبردج ، وعلى غيره من الأساتذة ممن لهم إلمام باللغة العربية ، فأنكروا هذه الخطة[٦٩] ، ثم أطلعوا على أعمال التتنجي وانتقادات الشدياق ، وكان البعض منهم قد تلقى رسائل مباشرة منه ، فحكموا بأن كلام الشدياق كان صائباً وان مار اثناسيوس غير كفي للعمل الذي ندب إليه[٧٠] واقترحوا عزله فنزلت اللجنة عند رأيهم وبُلِّغ التتنجي بواسطة أسقف جبل طارق . علم الشدياق بالأمر وسر كثيراً وأرسل فوراً رسالة إلى شقيقه ، قال له فيها : « إن مطران الإنكليز علم جهل التتنجي وعرف كذبه فصار عنده مرذولاً ، وصادر منه العمل الذي كلفه به ، وأنه أصبح بلا عمل ولا راتب ، وإنما يعطونه شيئاً يتعيش به لانحيازه إليهم » ، وهو يظن أنه سوف يتركهم أيضاً بعد قليل[٧١] .

لم يكتف الدكتور لي بعزل التتنجي بل اقترح على اللجنة إعادة الشدياق إلى العمل في ترجمة «كتاب الأختيارات العامة» «لأن الشدياق عالم لغوي ضليع». ولكنه كان من الصعب على الجمعية أن تستجيب إلى مثل هذا الأقتراح نظراً إلى سلوكه السابق معها . غير أن الدكتور لي عاد فأصر على اقتراحه مبيناً أن كفاية الشدياق تستأهل أن تذلل بوجهها جميع العقبات ، كما جاء في محاضر الجمعية . أمام هذا الإصرار ، وبعد ما صادفته من متاعب وارتباك مع التتنجي ، نزلت الجمعية أخيراً عند رأي الدكتور لي وبعثت إلى اسقف جبل طارق في مالطة ، تستفتيه في الأمر ، فأجاب بأنه لا يمانع في استخدام الشدياق في انكلترا كما تطلب اللجنة ، ولكنه « لا يكون مسؤولاً عن مبادئه الدينية ولا عن سلوكه ولا الأسلوب الكتابي الذي يريد ادخاله في الترجمات » . وبالرغم من تحفظه هذا اتصل بالشدياق ونقل إليه قرار اللجنة فرحب به ولكنه أبدى رغبته في ألّا يضيع عليه مركزه كمدرس للعربية في مالطة . فأمن له أولو الأمر في الجزيرة رغبته هذه[٧٢] .

مع عودة الشدياق الى العمل مجدداً في الترجمة ، عادت إليه طمأنينة العيش فاستدعى عائلته من مصر ورتب إقامتها في الجزيرة ، وأخذ من ثم ، يستعد للسفر فوضع في حقائبه قواميسه وما يماثلها من الكتب والمراجع ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها إلى قلب أوروبا .

يأتي الشدياق إلى وداع زوجته ، فتجري بينهما مساجلة رقيقة ذكرها في كتاب الساق ونقلها هنا ، لأن المساجلة هذه كان لها ما بعدها .

« اذكري يا زوجتي أننا عشنا معاً برهة طويلة من الدهر ،

قالت : ما اذكر إلا هذا

قال : اذكر ناكر أم شاكر؟

قالت : نصف من هذا ونصف من ذاك ، فإذا فكرت في أنك لي ولغيري كنت من الناكرين ، وإلا فمن الشاكرين .

قال : هل في النساء من تقيم على الوداد ولا تجنح عنه كل يوم ألف مرة ؟ هذه الكتب كلها تشهد للرجال بالوفاء وعلى النساء بالخديعة .

قالت : من كتب هذه الكتب ؟ أليس الرجال هم الذين لفقوها ؟

قال : ولكن بعد التحري ، فلنعد إلى التشاغل ، فإني أريد أن أنهي هذه المسألة قبل أن افصل من هنا ، وإلا فتكون لي شاغل الطريق وربما أفسدت شغلي عند القوم ، فأرجع باللوم عليك وعلى سائر النساء » .

ولكنها لا تجيبه إلى ما يطلب ، بل تقول له أشياء تزيده شكاً في أحوال النساء ، فتقول :

« إعلم أن بعض النساء لا يتحرجن من وصال غير بعولتهن لسببين ، الأول لعدم اكتفائهن بالقدر المرتب لهن منهم ، والسبب الثاني لاستطلاع أحوال الرجال واختبارهم كيلا يفوتهن حال من أحوالهم . ومنهن من تعتقد أن زوجها يخونها عند كل فرصة تسنح له ، فهي على هذا لا تجد سبيلاً للشطح إلا وتزف إليه ، اعتقاداً أنها اخذت بثأرها جزماً ، أي قبل الوقت الموقوت ، ومع ذلك فلا يحلن عن محبة بعولهن . بل وربما كان ذلك الشطح ادعى لزيادة حبهن لهم .

قال : لا متعني الله بحب ناشيء عن مقدمية » .

وبعد أن تجول الفارياقية بزوجها جولة مخيفة في طباع النساء يقول لها :

« فلنعد إلى الوداع ، إني مسافر عنك اليوم وتارك عندك فؤادي حتى إذا زارك أحد احسس به .

قالت : كيف تحس وما فؤادك معك ، والناس يخصون القلب بالحس والشعور والحزن والسرور ؟

قال : إن حسي برأسي .

قالت : أين تتركه ؟

قال : على العتبة كيلا يخطوها أحد .

قالت : فإذا طفر فوقها ؟

قال : في الفراش .

قالت : فإن يكن في غيره ؟

قال : فيك .

قالت : ذاك أحسن مقر . إني أعاهدك على ما كنا عليه من الحب والوداد من أيام السطح حتى الآن . ولكن حين أحس وأشعر من هنا بأنك تبدلت السطح بالشطح أقابلك بفعل مثل فعلك والبادىء أظلم . . . »

ثم يترقق الكلام . . . ويسكت الفارياق عن الكلام ، غير المباح . ها هو الآن في سفينة النار إلى المرافيء الايطالية ، ثم إلى مرسيليا ، ومنها إلى باريس ، « حيث أقام ثلاثة أيام في دار سفارة الدولة العلية . وفيها حظي بتقبيل أيدي الوزيرين المعظمين والمشيرين المفخمين رشيد باشا وسامي باشا »(٧٣) ومن باريس سافر إلى لندن ومنها إلى قرية بارلي . فأقام فيها مدة شهرين حيث عمل مع الدكتور لي وأنهى ترجمة الكتاب المذكور . ثم انتقل إلى كبمردج لمراجعة الترجمة ، بناء على طلب الجمعية مع توماس جاريت (Jarret) استاذ العربية بجامعة كمبردج . وبعد ذلك انتقل إلى لندن وأنهى مهمته فيها ثم سافر إلى باريس ومنها إلى مرسيليا ثم الجزيرة .

وعندما وضعت لجنة الترجمة ، التابعة لجمعية نشر المعارف المسيحية تقريرها لسنة ١٨٤٦ قالت عن العمل الذي قام به الشدياق ما يلي :

« واحد من أكثر الأعمال أهمية في رأي اللجنة ، والذي عملت فيه السنة الماضية ، كان المراجعة الدقيقة وإنجاز الترجمة العربية « لرسوم الكنيسة وطقوسها » بحسب الخطة التي كشفها التقرير الأخير عن نية اللجنة في تبنيها .

أما السيد فارس الذي يعمل في منصب حكومي كأستاذ للعربية في مالطة ، فقد أذن له أن يترك عمله لفترة قصيرة ، وفي خلال المدة كلها كان السيد فارس يعمل بلا تعب في التصحيح تحت اشراف الدكتور لي بشكل رئيسي ولكن أحياناً تحت إشراف توماس جاريت استاذ العربية في جامعة كمبردج والقس جورج سسل رينولد ، المعروف

جداً كباحث في الدراسات الشرقية ، وقبل عودة السيد فارس إلى مالطة كانت مراجعة الترجمة قد انتهت . واللجنة تعرب عن اعتقادها بأنه سيكون مرضياً للاعضاء أن يعرفوا أن الدكتور لي الذي خبر فارس خلال اقامته في انكلترا ، والذي اتيحت له احسن فرصة لتكوين رأي عن إمكانياته ، وما توصل إليه ، يتحدث عنه ، كبحاثة عربي غزير العلم ، ويعبر عن ارتياحه الكبير عن الجهود التي بذلها والطريقة التي كرس فيها نفسه للعمل » .

وكاعتراف من اللجنة بهذا الجهد وبالنشاط والمهارة في العمل ، رفعت راتبه طيلة أشهر العمل من ١٠ ليرات إلى ١٢ ليرة ومنحته مكافأة ٢٥ ليرة بالإضافة إلى نفقات السفر (٧٤).

وقد طبع الكتاب المذكور مع مزامير داوود في لندن سنة ١٨٥٠ في مطبعة وليم وطس .

* * *

عاد الشدياق إلى الجزيرة بعد أن انهى مهمته في بلاد الانكليز وبعد غياب نحو ثمانية أشهر أو تزيد ، وهي مدة كانت كالدهر ، كما يقول ، لأنها المرة الأولى التي يغادر فيها زوجته مدة طويلة . « وكان يرى في فراقها أطالت مدة ذلك الفراق أم قصرت ، قربت طيته أم بعدت ، لوعة أشد من لوعة الموت» ، كما كان من دأبه في اغترابه أن يفكر بها أبداً فإذا ما رغد عيشه وهو بعيد عنها يتمنى أن تشاركه في ما ينعم به وكان إذا ما تصور أنها محرومة من بعض ما يتمتع به ، تخيم على قلبه غشارة الحزن والغم ، ولكن بالرغم من ذلك كانت تراوده من حين لآخر بعض الهواجس فيتصورها وقد استباحت غيبته وأطلقت لغرائزها العنان فيفور دمه وتتلاعب بأفكاره الظنون . فيذكر أنها زينت له السفر ذات يوم . ثم يراجع ما قالت له في يوم كذا وفي مسألة كذا ويفلي قولها كلمة كلمة فيغدو وكأنه كاد أن يقبض عليها متلمسة بالجريمة . ولكن ذكريات جميلة كانت تعود به إلى جادة الثقة فيغلب حسن الظن وتتعثر الهواجس وتتداعى الحجج إلى طرد الشكوك فيطمئن ، من ثم ، إلى هدوء البال .

والآن ، ها أن موعد اللقاء قد اقترب . وفي اللقاء والوداع مواقف تضطرم بها النفس ويعتلج بها القلب ، دقق في وصفها الشدياق فكأنه كان يحب الفراق ليستمتع بلحظة الوداع ويحب العودة ليستمتع بلحظة اللقاء .

وصل إلى البيت ، ودخل الدار ، ولاقى زوجته بأشد العناق ، « وشكر الله على أنه بفضله العميم رأى زوجته في نفس الدار التي غادرها فيها ، وقد كان يظن أنها طارت مع عنقاء مغرب أو مع الغنجول . وبنى بها هذه المرة ، السادسة ثم أنشد :

« من يرد في زوجه . ينكح أزواجاً عديدة
فليغب عنها زماناً يلقها عرساً جديدة »

هكذا قال في الساق على الساق .
كم كان كاذباً ! . .

ما ان فتح الباب حتى « شم رائحة العشق والخيانة » إذ وجد عند زوجته شاباً فتياً مليح الصورة ، وكانا وحدهما في البيت ، فطار صوابه . هكذا قال في رسالة الى شقيقه طنوس .

إذن إن ما كان يوجس منه خيفة قد وقع ، إذن إن زوجته عندما كانت تزين له السفر فإنما كان ذلك بقصد أن يخلو لها الجو . وها إن خيانتها قد أصبحت الآن حقيقة أو شبه حقيقة ، يكاد أن يقبض عليها متلبسة بالجريمة . وإن ما يطير صوابه هو أنه لم ير شيئاً بعينه . وقد استوحذ عليه « اضطراب القلب وانتفاض العروق ورعشة اليد »[٧٥] ويقول لطنوس لو كانت العادة جارية بأن نساء مالطة يتخذن الرجال أو الغلمان خدمة أو لو كانت تلك هي عادته هو منذ جاء إلى الجزيرة لحمل ذلك على محمل حسن الظن بها « ولكنها هي تكذب وتتلاعب بالكلام » .

وهكذا اقتحم الغضب جو البيت ، وتدهورت العلاقة بين الزوجين وساءت أحوال الشدياق النفسية وسادها الكرب فلازم البيت « لأن وجهه من الناس في خزي » . وكان يخيل إليه أن جميع من يراه يسخر منه . وقال إنه أصبح لا أمل له غير المنية تريحه مما هو فيه .

اين السطح إذاً ؟ والقسم بأيام السطح ؟

امثل هذا يكافأ الزوج المحب الذي كان يرى في بعدها لوعة أشد من لوعة الموت. «أعلى على هذا كان الفراق ؟ أمن أجل هذا حسنت لي السفر بأن قلت ذات ليلة إني أرى بك يا رجل فتوراً . فلو سافرت إلى أرض طيبة الهواء لعاد اليك نشاطك القديم . افكانت هذه حيلة منك على تغيبي ليخلو لك الميدان فتمرحي فيه كيفما شئت »؟ [٧٦] .

صدقت إذن تلك الهواجس التي كانت تراوده في غيابه ، بل لقد كانت كشفاً للغيب وحدساً ينبئه بالحقيقة .

استطالت حالة الكرب بين الزوجين . ومن الملاحظ أنه لم يعد يذكرها في رسائله إلا لماما ، وبجفاء وما خلا هذه الرسالة التي كتبها إلى شقيقه طنوس في هذا الموضوع فإننا لم نعثر على أي أثر ثان يذكر الحادث من قريب أو من بعيد . فقد القى عليه ، من بعد ، ستاراً كثيفاً من الكتمان . وما يبوح به لشقيقه الأكبر لا ينشره على الملأ . ولعل المغالاة في مدح زوجته في الساق على الساق وذكر محامدها ، وخبر اللقاء الذي نقلناه آنفاً كان من قبيل التمويه وضباباً اصطناعياً اطلقه لاخفاء الحقيقة .

والذي يقرأ كتاب الساق يستطيع أن يستشف من كلام الشدياق عن الخيانة الزوجية أنه كلام ملدوغ . وقد أصبح حديثه عن النساء في هذا الكتاب فيه مرح الرجل الذي لم يعد يتألم من المرأة ، لقد برأ منها ومن حبها ومن الغيرة عليها كما جعل حديث الخيانة على لسانه كلاماً سهلاً ميسوراً ، فنفث بذلك عن صدره بذكر فضائح الناس بل وعيَّنهم بأسمائهم، ولهذا السبب وحده يجب أن يعزى قوله إن خيانة المرأة لزوجها أمر تعتبوه الزوجة من متممات الحياة الزوجية وملازم لها(*) .

إن حديث خيانة المرأة في الساق على الساق ما هو إلا ردة فعل على هذه الحادثة وظاهرة انتقامية من المجتمع أكثر مما هي تشهير بأشخاص معينين .

لم يقع للشدياق في حياته حادث هزه بمثل ما هزه هذا الحادث اللهم إلا حادثة شقيقه أسعد ، أما وفاة ابنه فلا . ثم إذا كانت حادثة شقيقه أسعد قد كونت جزءاً من شخصيته الفكرية فإن هذا الحادث كوّن الجزء الآخر .

(*) « إن هراوة الزوج ومقامع أهله وأهل امرأته وعيون الجيران أيضاً تمنعها عن الاتصاف بالصفّة الزوجية التامة » . (الساق على الساق ص ٢٠).

VI

في تونس للمرة الثانية ـ قصيدة زارت سعاد ـ إنشاء الصلة مع الخازندار ـ تعيينه عيناً ومخبراً لتونس في مالطة وأوروبا ـ نماذج من أخباره إلى الخازندار ـ الباي يمنع نشر القصيدة .

عاد الشدياق إلى استئناف عمله في الجزيرة في هذا الجو الكئيب . وقال انه ضاق ذرعاً بملازمة البيت وبهذا العمل في التعليم فحاول التملص من هذه الحرفة لا سيما انه كان مطبوعاً على الملل والجزع ، ولعله كان يهيء لنفسه عملاً بديلاً وها هو الآن يتحين الفرص .

في تلك الفترة سافر إلى باريس بأي تونس المشير أحمد باشا ، وكان ذلك في أواخر ١٨٤٦ بدعوة من الحكومة الفرنسية وكان غرضها من زيارة الباي أن تجلو أمامه مظاهر قواها المادية والحضارية ، بعد أن احتلت الجزائر . كما كان من مقاصد الباي في هذه الزيارة أن يطلع عن كثب على الحضارة الأوروبية . وتبرع الباي عند انتهاء زيارته لفقراء مرسيليا وباريس بمبالغ مالية . وبلغ خبر هذا التبرع الشدياق فنظم قصيدته المشهورة في مدحه ومطلعها :

زارت سعاد وثوب الليل مسدول   فما الرقيب بغير النشر مدلول

معارضاً بها قصيدة كعب بن زهير الشهيرة في مدح النبي صلّى الله عليه وسلم ومطلعها :

« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

ومما قاله في القصيدة :

لما بدا بفرنسا نور طلعته ... ومن يديه لهم سحَّت أهاليل
لم يبق في الشرق أو في الغرب من أحد ... إلا وعنه مديح فيه منقول

لم تكن هذه الأريحية هي وحدها التي دفعت الشاعر إلى نظم هذه القصيدة ولكنها سمعة امتاز بها هذا الحاكم الفذ وعهده في تطوير البلاد وإصلاح الدولة . وقد شبه الكتّاب عهده بعهد محمد علي الكبير في مصر (٧٧) .

وكان يخيم على تونس قبل أن يتولى هذا الوالي مقاليد الحكم جو ثقيل من الجمود الفكري هو من مخلفات عصر الانحطاط الذي شمل معظم البلاد العربية . وما أن تولى مقاليد الأمور سنة ١٨٣٩ حتى أخذت بعض المظاهر تشير بالتبدل . وكان يعاونه الوزير مصطفى باشا صاحب الطابع . وكان هذا الوزير رائد الباي في تربيته وفي توجيهه إلى العلم والإصلاح كما غرس فيه روح الإقدام وقوة الشكيمة . تولى الوزارة الكبرى خمساً وثلاثين سنة(*) وقد أراد أحمد باشا من ثم أن يطبع حكمه بطابع الاصلاح ورجح لدى الرجلين أن لا سبيل إلى ذلك إلا بتلقيح الحياة التونسية بأساليب الحياة الغربية . فأنشئت مدرسة عسكرية لتخريج الضباط والمهندسين والفنيين والموظفين وتولى نقل العلوم من اللغات الأجنبية بعض المستشرقين والعلماء بإشراف الشيخ محمود قبادو . كما جعل الأشراف على هذه المؤسسات لشاب من نبغاء مماليك الجراكسة هو خير الدين(٧٨) . وأصبحت هذه المدرسة بفضل من تجمع حولها سبباً لإيجاد حركة فكرية إصلاحية . أما قبادو فيوصف بأنه في القمة من أدباء تونس قال عنه الفاضل ابن عاشور إنه « كان عبقرياً خارقاً للعادة نشأ نشأة صوفية وأقبل على نواحي العلم فاتسعت دائرة معلوماته

(*) يقول أحمد ابن ابي الضياف في كتابه « اتحاف أهل الزمان » انه لما تولى الحكم الباي أحمد سنة ١٨٣٧ « استكفى في الوزارة بأبي تربيته شيخ الدولة أبي النخبة مصطفى صاحب الطابع . واصطفى لسرّه وبثّ نجواه والاحتفاظ بمال الدولة ابن تربيته الوزير أبا النخبة مصطفى خزنه دار ، وكان عنده بهذه الرتبة قبل تقدمه للولاية . واستكفى في أمور العسكر وما يتعلق بهم بصاحبه ومعاصره أبي النخبة مصطفى آغه . وثلاثتهم أصهاره على أخواته لابيه : (أحمد ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ـ تحقيق أحمد عبد السلام) ص ٤٤ . ويصف مصطفى صاحب الطابع بأنه كان : « خيراً ، فاضلاً ، سليم الصدر ، صبوراً ، غاض الطرف عن المصائب ، كريم النفس ، نديّ الكف » (أبو الضياف ج ٨ ص ١١٩) ويصف أحمد امين مصطفى الخزنه دار في كتابه « زعماء الإصلاح » بأنه : « شره في جمع المال أثقل الشعب بالضرائب والمظالم » (أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ١٥٣) .

إتساعاً منقطع النظير وتعاطى اللغة العربية وآدابها ففاق جميع علماء عصره في الإحاطة بمادة اللغة ورواية الأدب ».

* * *

بعث الشدياق بالقصيدة إلى الباي على يد من أوصلها إليه ولم يشعر بعد أيام إلا وربان سفينة حربية يطرق بابه . فلما دخل واستقر به المجلس قال للشدياق : « قد بلغت قصيدتك لجناب مولانا الأكرم وقد أمرني أن أحملك إليه في البارجة » فلما سمع ذلك استبشر بالفرج وقال : « لعمري ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيه ».

ركب الشدياق وزوجته وأولادهما البارجة ، وعندما وصلوا إلى تونس أمر الباي بإنزالهم في دار أمير البحر ، وأجرى عليهم الرزق والخير العميم ثم حظي الشدياق « بتقبيل يد المولى العظيم ونال منه الصلاة الوافرة . وانتقل بعد ذلك إلى المدينة وهناك تعرف بجماعة من أهل الفضل والأدب فمنهم من أدبه ومنهم من أترفه ». وكان ممن قابلهم الوزير مصطفى صاحب الطابع وكان هذا الوزير الفذ ، نير الذهن واسع الأفق ، يجمع بين يديه مهمات الدولة ونفوذها ويستقطب إداراتها ويصرف أمورها ولذلك كان بحاجة إلى أن يطلع على السياسة الدولية باستمرار ، من مختلف مصادرها . ويبدو أنه كان من المتعذر عليه أن يقف على هذه الأمور أو أن يباشرها بنفسه ، إما لفقد الأعوان الأكفياء أو لأنه كان يجهل اللغات الأجنبية كالفرنسية والانكليزية مثلاً ، وإما لأن مهمات الحكم كانت تمنعه عن ذلك ، فاتجه إلى أن يختار بعضاً من الأعوان يقدمون له ملخصات وافرة ومركزة عمّا سمعوه وعمّا قرأوه في الصحافة الأوروبية . فما ان رأى الشدياق حتى كانت عينه النافذة قد قيّمته على حقيقته وقد كانت له فراسة في الرجال لا تخطيء كما يقول أبو الضياف(٧٩) . سأل الوزير ضيفه : « هل تعرف الفرنسية ؟ قال الشدياق : لا سيدي ، ما عنيت بها ،فإني ما كدت أتعلم لسان الانكليز حتى نسيت من لغتي قدر ما تعلمته منه ».

روى الشدياق هذه الدعابة لزوجته فأنبته لأنه لم يتعلم الفرنسية ، فقد أدركت على الفور أن وراء هذا السؤال مهمة وتكليفاً . ولكن قد تفيد الانكليزية حيث تفيد الفرنسية .

في محفوظات الدولة التونسية رسائل من الشدياق تلقي ضوءاً على الموضوع

المذكور ، ففيها ما يوضح أن الوزير كلف الشدياق أن يكون له عيناً ومخبراً سياسياً أينما حل وأن ينقل إليه ما يهمه ويهم الدولة التونسية من أنباء السياسية الدولية وغير ذلك نقلاً عن مصادر الأخبار وكذلك نقلاً عن الصحافة الانكليزية . وقد أجرى عليه الوزير صاحب الطابع ومن بعده الوزير مصطفى الخزنة دار منحاً لا نعرف مقدارها . وظل هذا التكليف وهذه المنح جارية حتى بعد اصدار الجوائب[٨٠] .

بعد أن عاد الشدياق من تونس ، أصبحت أحواله المالية أحسن من ذي قبل فبالاضافة إلى التدريس في المعهد الحكومي ، وظيفته الأساسية . أخذ الآن يعلم في كلية سان جوليان البروتستانتية ، كما كان يقوم أيضاً بإعطاء الدروس الخصوصية في اللغة العربية وفي الترجمة ، مما جعل مجموع رواتبه ١٢٠ ليرة في السنة[٨١] . هذا فضلاً عما كان يصله من الوزراء التونسيين وفضلاً عما غمره به الباي من مال وهدايا ثمينة . وفر له هذا الدخل المتعدد المصادر اطمئناناً وراحة بال يمكنانه من الانصراف إلى الانتاج .

أما قصيدة « زارت سعاد » التي فتحت له باب تونس على مصراعيه فقد أمر الباي أحمد بمنعها كما سنرى ذلك في موضوع شعر الشدياق .



احمد باشا، باي تونس

VII

استدعاؤه إلى انكلترا للمرة الثانية لترجمة الكتاب المقدس برمته ـ عمله مع الدكتور لي ـ وفاة ابنه اسعد ـ محاولة التدريس في الجامعات البريطانية .

بعد هذه الطمأنينة المالية ، كان من المقدر للشدياق أن تستكن نفسه ويرضى براحة البال بالمال . إلا أن من درب نفسه على الطموح وحب التفوق ، لا يطمئن إلى البحبوحة وما ينجم عنها من دعة واستكانة بل يظل في قلق مستكشفاً ، مترصداً ، في سعي دائب إلى أن يجد له مفازاً يوصله إلى طموحه وقد كان القدر يهيء له مهمة جليلة ، مع لجنة الترجمة التابعة لجمعية نشر المعارف المسيحية ، ترضي هذا الطموح .

جاءت هذه الفرصة عندما رغبت اللجنة في ترجمة عربية جديدة للكتاب المقدس برمّته ، وذلك عن اللغات الأصلية .

كانت ترجمة الكتاب المقدس ترجمة جديدة وعن لغات الأصل ، بالنسبة للجمعية ، لها الأولوية على أعمالها جميعاً كما ذكرنا ، ولما وصل المشروع إلى مرحلة التنفيذ اقترح الدكتور لي على الأعضاء أن يعهدوا به إلى الشدياق على أن يكون ذلك تحت إشراف الدكتور لي نفسه ، فوافقوا فوراً وكتب الدكتور لي إلى الشدياق يخبره بالموضوع ، ويخبره أيضاً أن الأعضاء يقدرون أن العمل قد يستغرق سنتين لانجازه ولذلك لا مانع لديهم من أن يصطحب عائلته إلى انكلترا . فاغتبط الشدياق بهذا التكليف ولكنه اشترط أن تؤمن له العودة عند إنجاز عمله ، إلى وظيفته

في مالطة وأن يكون راتبه موازياً لمجموع دخله في الجزيرة ، فوافقت الجمعية ، بل وزادت عليه ، فأمنت له، بمساعيها ، العودة إلى وظيفته بعد الفراغ من المهمة ، كما اشترط .

استأذن الشدياق الحاكم في السفر . ثم أوثق أحماله وكان من بينها قواميسه وكتبه اللغوية وغادر وعائلته مالطة في أيلول ١٨٤٨ . وكان هذا التاريخ هو آخر عهده بهذه الجزيرة بعد أن مكث فيها نحو ١٤ سنة .

وكأني به قد برىء من سقم الإقامة فيها وختم على العودة إليها نهائياً . وبذلك يكون قد طوى صفحة حفلت بالأعمال الجليلة ، ليفتح صفحة ، أجل شأناً واغزر انتاجاً .

وأمامه الآن رحلة أراد أن « يعم نفعها » فنوى أن يجعل منها كتاباً ينقل فيه مشاهداته فأخذ يقيد خواطره وسوانحه وينقل من بعض الكتب ما يجدر نقله . فكان من هذا العمل كتاب « كشف المخبا عن فنون أوربا » .

من الجزيرة جاء إلى مرسيليا ومنها إلى باريس ثم إلى كاليه ومنها إلى لندن ومن لندن إلى بلدة وير في رويستان ثم إلى بارلي نهاية المطاف حيث يقيم الدكتور لي ، وقد وصلها في آخر أيلول ١٨٤٨ . وهي القرية ذاتها التي جاءها الشدياق سنة ١٨٤٦ لترجمة كتاب « الصلوات العامة». والعيش فيها كما يصفه ، مجهد ، فليس فيها غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر والخبز المخلوط بالبطاطس والبيض والكرنب ، على أن هذه المآكل إنما كانت نفاية ما يوجد في المدن . ومن كان عنده من أهل القرية دجاجة أو طرفة بعث بها إلى إحدى المدن . أما السمك فلا يرد منه شيء إلا مرة كل ثلاثة أشهر وهم يضعونه في الثلج ليلاً ويعرضونه للبيع نهاراً « فربما كان عمر السمك بعد صيدة أطول منه قبله ، ولكن ربيب الثلج هذا لا وجود له إلا في المدن ».

وليس في بارلي مواضع للهو والتسلية والحظ . « وأهل القرى في تلك النواحي إذا أرادوا اللهو عمدوا إلى أجراس الكنيسة يقرعونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب ». وكان الشدياق يذهب إلى كنيسة القرية لأنه من أقام في القرى الانكليزية « عليه من قبيل المجاملة والمحالفة أن يذهب إلى الكنيسة في يوم الأحد وإن نام فيها . وفي أوان الشتاء لا يمكن الإنسان أن يخرج لاستنشاق الهواء ، وذلك لكثرة الوحول ، وخلاصة القول فإنه من شاء أن ينقطع عن الدنيا أو يترهب فعليه بتلك القرية ».

خلال إقامة الشدياق في بارلي وقع له حادث مؤلم فقد احتسب في ابنه الأصغر أسعد وكان قد بلغ نحو السنتين من عمره . ويقول عنه أبوه : « كأنه قد سبك في قالب الحسن والجمال فجاء لم يعدله شيء مما تقر به العين . فكان إذا رنا إليه ينسى في الحال جميع أشجانه وهمومه » .

أصيب الطفل بمرض الخانوق أو الدفتريا ومات بعد أسبوع فرثاه أبوه بقصيدة رقيقة . قال فيها :

يا راحلاً عن مهجة غادرتها	تصلى من الحسرات كل أوار
خطأ وهمت فأين بعدك مهجتي	ما في حشاي سوى لهيب النار
أبني ما يجدي التصبّر قولهم	« حكم المنية في البرية جار »

والقصيدة هذه من أرق ما نظم الشدياق في الرثاء .

كره الشدياق أن يبقى في القرية المشؤومة بعد هذا الحادث ، ولكن الجمعية حرصاً منها على استمرار العمل في الترجمة رأت أن تنقله إلى كمبردج ، وهي قريبة من قرية بارلي التي يقيم فيها الدكتور لي فسافر بأهله إليها ولبث فيها ما يزيد على السنة .

وعندما قارب عمله الانجاز أخذ يرمي شباكه لاصطياد عمل يريحه من العودة إلى مالطة وهناك كلام منثور في كشف المخبا والساق على الساق ، وفي بعض رسائله إلى أهله إذا ما جمع بعضه إلى بعض يؤدي إلى أنه حاول أن يعمل في تدريس العربية في إحدى كليات أكسفورد ولكنه لم يوفق .

لم يحاول ذلك في كمبردج فحال اللغة العربية فيها سليم ، أساتذتها من المستشرقين المتمكنين ، تعرف إليهم وخبر علمهم ومدحهم : المستر ولس مدرس العربية في الجامعة ، والمستر برسطون الذي ترجم ٢٥ مقامة من مقامات الحريري والمستر جون برطول الذي قرأ على الشدياق بعض المقامات . لم يكن حال العربية في أكسفورد على هذا المستوى . يقول في كشف المخبا أنه ذهب ، ذات يوم إلى تلك الجامعة وأراد أن يتعرف إلى أستاذ العربية فيها فدل عليه . فطلب منه الشدياق أن يريه مكتبة الجامعة تفضلاً وتكرماً فأجابه إلى ذلك ، وسار الاثنان في المكتبة وتناول الأستاذ أحد الكتب العربية وكان بالخط الكوفي وإذا في أول الصفحة لفظة « الا » فقرأها « الاّ » وفسرها أنها « الله ». يقول الشدياق : « فتعجبت كيف أنه انخدع فهمه لسمعه ، لأنهم جميعاً يلفظون اسم الجلالة مرققاً هكذا » .

وقد تهكم كثيراً ، في كتاب « الساق » على هذا الأستاذ وأمثاله . لذلك أمل ذات يوم أن يعين مدرساً في إحدى كلياتها فذهب إليها ومعه كتاب توصية إلى أحد علمائها ، فرأى الوصول إليه متعذراً فعاد بخفي حنين . وقال في رسالة ، إلى شقيقه طنوس ، انه حاول أن يحصل على وظيفة ولكن لغة العرب غير مرغوب فيها ، وأن العربية وحدها لا تكفي فمن شاء أن يدرس إحدى اللغات الشرقية كان عليه أيضاً أن يعلم اللاتينية « وهم لا يوظفون الغريب في هذه المدارس وإنما يسمحون له بالتعليم لأشخاص على حدة . فلا هم يتعلمون حق التعلم ولا يأذنون لغيرهم أن يعلِّم حق التعليم »[٨٢] .

وبعد ، فقد لا يكون في مجموع هذا الكلام وهذه القرائن حجة قاطعة على أنه حاول أن ينتسب إلى هيئة التدريس في أكسفورد . ولكن النفي أيضاً قد لا يكون من سداد الرأي .

وهنا تأتي محاضر اللجنة من جهتها ، لتلقي ضوءاً على هذا الموضوع . في جلستها المنعقدة في ١٨ آذار ١٨٥٠ تليت رسالة من الشدياق يقول فيها انه لا أمل له بتجديد إجازته من مالطة وهو لذلك يرضى أن يتخلى عن وظيفته فيها ويبقى في انكلترا إذا ما توفر له عمل في كلية هالي بري (Haily Bury) أو في كلية الهند الشرقية (East India) فجاء الجواب من الكليتين بأنهما ليستا بحاجة إلى أستاذ للغة العربية[٨٣] .

عاد الشدياق ، في رسالة ثانية ، وأبلغ اللجنة أن وظيفته كمعلم للغة العربية في الكلية البروتستانتية ، سانت جوليان ، في مالطة ، قد أسندت إلى أستاذ غيره أيضاً ولهذا فهو يفضل أن يقطع علاقاته بالجزيرة نهائياً ويبقى في انكلترا لممارسة تعليم العربية . ولكن اللجنة لم تستجب إلى أي مساعدة من قبلها بل حرصت على الوفاء بالتزاماتها فقط . وأوصت أمين سرها أن يسهل له العودة ، ما أمكن ، إلى مالطة ، وقررت أن تصرف له ٣٠ ليرة أجور العودة إلى الجزيرة أو إلى حيث يشاء وكذلك إعطاءه ٢٥ نسخة من كتاب العهد الجديد كهدية ليوزعها في باريس إذا ما ذهب إليها . ولكنها عندما رأت منه الاصرار على قطع علاقاته بمالطة والبقاء في أوروبا نهائياً على مسؤوليته ، اتفقت معه ، وبناء على اقتراح الدكتور لي ، على القيام بتصحيح طباعة الكتاب المقدس ، سواء في لندن أو في باريس وخصصت له ٣٠ شلناً في الأسبوع ، لقاء هذا العمل[٨٤] .



مكتبة جامعة اوكسفورد

VIII

في باريس وحياة التسكع ـ تعليم العربية لبعض المستشرقين ـ « كتاب مماحكات التأويل » و « كتاب الساق على الساق » .

بعد أن فشل الشدياق في الحصول على منصب في إحدى الكليات الانكليزية وبعد أن فشل في استدراج جمعية نشر المعارف المسيحية إلى التزام تدبير أمره ذهب إلى باريس لأسباب متعددة منها أن المعيشة في فرنسا أرخص ولغة العرب فيها أكثر نفعاً وأشهر ، كما يقول ، ثم منها رغبته في تعلم الفرنسية فلعل في تعلمها ما يفتح باباً للرزق ، ومنها أيضاً المرض الذي نزل بزوجته ، فقد أصابها الخفقان ونصح الأطباء بنقلها إلى العاصمة الفرنسية .

جاء الشدياق إلى باريس وسكن بيتاً في إحدى عمارات « روبلانش » ولكن زوجته لم تستفد شيئاً ، وكان الخفقان يلازمها أياماً متوالية . فأشار الأطباء بأن تترك باريس إلى مرسيليا لأنها أدفأ ، فلما نقهت فضلت السفر إلى اسطنبول. فكتب لها زوجها كتاب توصية إلى سامي باشا وأصحبها بأصغر ولديهما ، سليم ، تسلية لها « ولما حان الفراق توادعا ، كما يقول في كتاب الساق وتباكيا وتواجدا ، حتى إذا لم تعد العين تجيبهما بالدمع رجع إلى منزله مستوحشاً مكتئباً » .

في غياب الزوجة لا نرى الشدياق إلا وقد عاش في باريس حياة حرة ، طليقة ، يشيع فيها الاستسلام للنزوات ، فمن يقرأ كتاب الساق على الساق وهو من مواليد باريس ، يرى فيه نهم المراهق وتهافت الظميء وشراهة المحروم وقد يكون ، من ثم ،

استسلم إلى التبطل وأخذ في دروب التسكع ودخل في زمرة المقامرين فأفرغ هذا الطراز من الحياة كيسه ، أو كاد ، ولم يبق في قعره إلا دراهم قليلة . فاضطرته هذه الحال إلى التحول إلى غرفة صغيرة في بناء عال ، فيها يأكل ويشرب وينام وفيها يطبخ طعامه بنفسه ، وفيها يستقبل زواره ، وقد غصت الغرفة الصغيرة بكراريسه .

في حاله هذه من الضيق أطل على باريس الأمير عبد القادر الجزائري بعد أن أطلقه نابليون الثالث من الإقامة الجبرية في امبواز فلما وصل إلى العاصمة الفرنسية استقبله الناس استقبالاً رائعاً وغصت شوارع المدينة بالباريسيين الذين جاؤوا يشاهدون الأمير ويهتفون له . وبقي الأمير في باريس نحو شهر موضع حفاوة الدولة والشعب . وقد سر الشدياق بهذه الحفاوة البالغة التي تجري لهذا الأمير العظيم فنظم قصيدة في مدحه وأرسلها إليه .

فسر الأمير بالقصيدة واستدعى الشدياق لزيارته وقابله بغاية الاحترام وبوسائل الأمراء في الإكرام(٨٥) .

قد تكون منحة الأمير فرجت أمر الشدياق ولكن لبعض الوقت ، ولكنها لم تمنع الضيق من أن يظل آخذاً عليه سبل العيش كما أن الحياة في باريس لم تهيء له ، بالرغم من مساعيه ، أي باب للارتزاق ولم تسعفه الظروف للالتحاق بأي عمل كان ، مما دفعه إلى أن يستنجد بالوزير التونسي مصطفى الخزنة دار في رسالة يطلب فيها منه عوناً .

ولما كانت هذه الرسالة تلقي ضوءاً على زوايا متعددة من حياة الشدياق الباريسية فضلاً عما جاء فيها من بعض التفاصيل آثرنا نقلها برمتها . قال الشدياق :

« الحمد لله ، سني الهمم كريم الشيم فخر الأمراء وقدوة الوزراء أدام الله تعالى اجلاله وخلد اقباله .

أقبل الأرض خاشعاً ، ادعو للجناب الرفيع ضارعاً ، وأعرض ، أني كنت قد وجهت للحضرة السنية منذ عام فأكثر الوكة بينت فيها أسباب استعفائي من الخدمة في مالطة ، وباعث قدومي إلى مدينة باريس وهو الرغبة في تعلم اللغة الفرنساوية ، رجاء أن أنال في باب سيدنا ولي النعم أدام الله عزه خدمة تكسبني رضاه وتحصيني في عداد القائلين في ظله . فإني من بعد أن تشرفت بلثم أعتابه ، لم تزل همتي كلها منصرفة إلى تحصيل هذه البغية ، إلا أن الله سبحانه وتعالى قدر لي بموانع كثيرة صرفت عزمي عما نويته ، منها وقوع زوجتي في داء عضال منذ قدومنا إلى هذه الديار حتى أني أنفقت عليها

كل ما كنت أدخرته للعلم ، لأن بذل المال في حياة نفس أوجب منه في تحصيل علم ، ومع ذلك فلم يستفد أحدنا شيئاً ، فاضطرت هي أخيراً إلى السفر إلى اسلامبول بأحد ولدينا وأحوجت أنا إلى الإقامة هنا مع مقاساة الوحشة ، والإيجاس وعدم الاستطاعة على اتخاذ معلم اقرأ عليه ما أريد من كتب وغيرها وشراء شيء من الكتب في اللغة الفرنساوية ، إذ ان لا مصلحة لي هنا تمكنني من أحدهما ، مع أني بحمد الله أستطيع على الترجمة منها دون ارتكاب غلط فاضح ، بيد أني لا أكتفي بذلك ، إذ المقصود دائماً هو اتقان اللغة ، وذلك لا يتم لي ما دمت على هذه الحال ، ومن المحال أن يتمكن أحد من معرفتها من دون اتخاذ مدرّس أو شراء كتب ، ثم توخيت الآن أن أعيد ذكر ذلك على مسامعكم معتمداً على كرم سيدنا المعظم وعلى محامدكم وراجياً من مراحمكم أن تنظروا في أمري فإني أصبحت ولا أمل لي في الدنيا إلا في فضل سيدنا وخيره وفي عواطفكم فإن راق لخاطركم الشريف أن تشرفوني بخدمة نحو ترجمة جرنال أو غيره فإنني أجعل مقامي في مرسيلية ، ليكون توجيهها من ثم أسهل وأخف ، ويكون من أوفر الحظ عندي أن أنال من لدنكم شيئاً زهيداً في مقابلة ذلك أصرفه في وجه العلم فقط ، وأرجو ألا تتخذوا كلامي هذا احتقاراً لشأن سيدنا وتهاوناً بجوده معاذ الله من ذلك ، وإنما الغرض أن أبين لسيادتكم أني إذا كنت الآن غير أهل لترتيب جمكية (راتب) معينة فإنما أنا أهل لنوال قطرة من بحر سخائه الخضم بحيث أقدر به على تحصيل ما يوصلني فيما بعد إلى الخدمة في بابه تنعشني من التعسة هذه وترفعني من هذا الخمول الذي شملني ، فقد مضى علي في باريس نحو عامين من غير فائدة حقيقية في علم أو مال وقد خسرت وظيفتي في مالطة وأصبحت غريباً محروماً وناهيك بالغربة لمثلي ضياعاً وما لي من أشكو إليه بعد الله سبحانه إلا كرمكم . فكن يا سيدي لي كما جرت العادة الحميدة واسطة إصلاح أمري ولمّ شعثي وجمع شملي ، فإني الآن ضائع المسعى مبلبل البال مشوش الخاطر ، كيف لا وقد فارقت أهلي وولدي ونفد ما عندي ، فبحق من أنزلك هذه المنزلة السنية ألا ما تصفحت كتابي هذا بعين الشفقة ورحمت من به افتقار إلى التذرع بفضلك وكرمك .

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد ... أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتك التي عودتنا ... أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

وقد كنت أروم إنهاء ذلك إلى مسامعكم الشريفة قبل الآن ولكنه بلغنا ما حصل لسيدنا المعظم حرسه الله ووقاه من انحراف المزاج مما لم يدع في هذه الديار قلباً خالياً من

الهم فكيف بمن تطوق بأطواق مننه السابغة فأما الآن وقد منّ الله عليه بل على الناس كافة بالشفاء فإني اغتنمت هذه الفرصة ووجهت هذه الألوكة إلى ناديكم الرحيب على يد بعض أصحاب الكونت ديكرانج ترجمان الدولة هنا مبشراً بمننه تعالى تلك التي تجل عن الشكر أن يوفق لبلوغ كلامي مسامعكم ساعة رضى واستجابة . ثم إني واجهت مسيو الياس مصلّي منذ أيام وأخبرني بأنكم رسمتم له من مدة مديدة أن يكتب لي ويسألني هل وصل إلي من لدنكم حقة تكرم بها علي سيدنا المعظم نصره الله وأنه لجهله محل إقامتي بباريس لم يكتب لي فاقتضى الآن أن أعرض على مسامعكم أنه بعد سفري من تونس لم يصلني شيء من طرف جنابكم ولم أعرف كيف كان من أمر الحقة ، وأرجو يا سيدي من مكارمكم أن تنعموا علي بجواب سواء كان إيجابياً أو سلبياً لكي أفعل بموجبه ما ينتجه لي من السداد وان رأيتم توجهه على يد الكونت الموما إليه فإنه يوصله إلى حيث كنت . وأسأل الله تعالى أن يكلأ سيدنا المعظم ويديم وجوده وأن يزيد الجناب العالي مجداً وسيادة ورفعة وسعادة آمين .

في باريس سادس ماي سنة ١٨٥٣ — من الخادم الداعي

فارس الشدياق

مكث الشدياق في باريس نحو سنتين ونصف من كانون الأول ١٨٥٠ إلى حزيران ١٨٥٣ وتعرف إلى بعض المستشرقين . وتبادل التعليم مع واحد منهم . الشدياق يعلمه العربية وهو يعلم الشدياق الفرنسية. وتوطدت بشكل خاص العلاقة بينه وبين المستشرق الكونت ديكرانج رئيس تراجمة الدولة وكان يتردد عليه لما كان عنده من البشاشة كما كان الكونت يتردد على الشدياق إذا لزمه ترجمة أو إنشاء رسالة باللغة العربية وكذلك اشترك مع كستاف دوغا عضو الجمعية الاسيوية ، في تأليف كتاب « السند الراوي في الصرف الفرنساري » . وهو كتاب قواعد فرنسي يدل عليه اسمه طبع في باريس سنة ١٨٥٣ .

أما المستشرقون وأساتذة اللغة العربية والشرقية فلم يكن ليقاربهم لأنهم نفسوا عليه بمائهم ، كما يقول ، حتى انهم أبوا أن يطبعوا له قصيدته التي مدح بها باريس بعد أن وعدوه بذلك .

وصادف أثناء وجود الشدياق في باريس أن جاء وفد من حلب إلى أوروبا لجمع المال للكنائس الحلبية وكان الوفد يتألف من فتح الله مراش وشكري عبود والمطران

أثناسيوس التتنجي صاحب النزاع القديم مع الشدياق . وجاء مراش وعبود إلى باريس وتخلف عنهما التتنجي في النمسا فالدخول إلى فرنسا كان محظوراً عليه . وأخذ فتح الله مراش ورفيقه يترددان على الشدياق مدة مكثهما في باريس . ثم سافرا بعد أيام الى لندن ليوافيا التتنجي . بعد سفرهما أفتقد الشدياق كراريسه وإذا ببعضها قد سرق وهي من كتاب فيه مطاعن الَّفه وعزم على عدم افشائه(٨٦) فقلق الشدياق أشد القلق . ولكن بعد برهة رُدت إليه الكراريس من لندن مع رسالة من كاتب جمعية نشر المعارف المسيحية ، فهم منه كل شيء ، وأيقن حينئذٍ أن أحد رفيقي التتنجي عند ترددهما عليه سرق الكراريس من مخدعه بإشارة من التتنجي . وأنه لما اجتمع به في لندن سلمها إليه فأهداها إلى الجمعية طمعاً في إيذاء الشدياق، فأخذه الذهول من هذه المؤامرة لأن في الكراريس ما يسوء الجمعية ولكنها مع ذلك ردتها إلى صاحبها دون أن تأبه لنميمة التتنجي ورفيقيه . والكتاب الذي الَّفه الشدياق « وعزم على عدم افشائه » هو في يقيننا « مما حكات التأويل في مناقضات الإنجيل »(٨٧) وفي مكتبة الأوقاف في بغداد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب(٨٨) .

لا نعلم كيف وصل هذا الكتاب إلى بغداد ولكن قد يعود الأمر إلى الصلة الوثيقة التي كانت بين الشدياق وبعض أدباء العراق وكان يتحفهم أحياناً ببعض كراريسه وقصائده بخطه الجميل . منها مثلاً مقدمة ديوانه ، أهداها إلى السيد نعمان الآلوسي بخطه في أربعين صفحة وقد آلت هذه المخطوطة إلى مكتبة الأوقاف العامة في بغداد من المكتبة النعمانية(٨٩) . ومنهم حامد الآلوسي الذي كان يقرأ على تلاميذه في دار المعلمين في اسطنبول جريدة الجوائب لتقوية لغتهم العربية(٩٠) .

وعلى هذا يميل بنا الافتراض إلى أن الشدياق ارسل كتاب المناقضات إلى السيد نعمان كهدية أو ربما إلى صديق آخر ثم نسخت منه النسخة المذكورة ثم فقد الأصل ، أو أنه لا يزال مهملاً في إحدى مكتبات بغداد .

وليس من مجال للشك في نسبة المؤلف للشدياق . نترك الاسباب الظاهرة وهي عديدة لنأخذ مثالاً واحداً من المتن . وهو اعتراض على صحة الترجمة وسلامة التعبير ، قال في النص : « قال لهم انظروا لا يضلكم أحد فإن كثيرين يأتون باسمي قائلين أنني أنا هو المسيح ويضلون كثيرين » (متى ٢٤ ـ ٥) .

ويأتي الاعتراض هكذا : « إذا قال كثير من الناس أن عيسى هو المسيح فما يكون

ذلك اخلالاً والصواب أن يقال : « إن كثيرين ينتحلون اسمي وكل منهم يدعي بأنه هو أنا وبأنه هو المسيح فلا تتبعوهم ».

هذا الاعتراض وغيره ورد في كتابي الساق وكشف المخبا ، فصاحب الاعتراضات في الكتب الثلاثة واحد.

أما كتاب المناقضات هذا فهو محاولة من الكاتب أن يبرهن على ما جاء في معاني عنوانه ، فقام بمقارنة ١٥٧ نصاً وردت في الأناجيل الأربعة متخذاً إنجيل متى أساساً . وقارن بين ما ورد فيه وما لم يرد في الأناجيل الثلاثة الباقية . وكان بودنا أن نقدم أمثلة على تلك المقارنات ، فلم نجد إلا ما لا يصح نقله .

جاءت مقدمة الكتاب في أربع صفحات ذكر فيها الكاتب غرضه منه ثم يقول في خاتمته أنه « كتب في ٢٠ شباط ١٨٥١ ميلادية » . وهذا يعني أنه كتبه بعد أن انتهى من ترجمة الكتاب المقدس بما يقارب السنة . وهو ككتاب الساق على الساق من مواليد باريس.

وبالاجمال فإن في هذا الكتاب من الجرأة على الدين المسيحي والاستهانة به ما يدعو إلى التساؤ ل عما طرأ من المؤثرات الجديدة على الشدياق .

في كتاب « الساق على الساق »، الذي وضعه في تاريخ قريب من تاريخ هذا الكتاب ، ذكر لقضية شقيقه اسعد التي مرّ على حدوثها نحو عشرين سنة وكأنها وقعت في حاضر يومه، فجاءت نقمته على رجال الكنيسة المارونية عنيفة قوية عارمة، ولكن نقمته عليهم لم تجر وراءها نقمة على الدين، والذي جاء في المماحكات لا يقاس بشيء ففيه من الطعن ما يستبعد أن يصدر حتى عن رجل في مثل وضع الشدياق . اغلب الظن أنه ترجمه عن الانكليزية أو الفرنسية أو اقتبسه في فترة نقمة ، وبالواقع فقد قال في الساق على الساق عندما ذكر حادثة سرقة الكراريس انه كتاب « عربه الفارياق من كتب العجم »(٩١).

في مقدمة المماحكات ذكر لكتاب آخر ألفه اسمه « العقائد المبهمة » هذا الكتاب لم يظهر مخطوطاً ولا مطبوعاً ولعله اخفاه بعدما أصابه القلق بسبب سرقة كراريس من كتابه الأول .

بعد أن أنتهى الشدياق من « مماحكات التأويل » بدأ في كتابة سيرته الذاتية

وورائعته الأدبية « الساق على الساق في ما هو الفارياق »(*) وكان ذلك في أواخر عهده في باريس ولعله كان في مطلع سنة ١٨٥٣(٩٢) كتبه في ثلاثة أشهر كما يقول :

حَبِلَتْ بـه رأسي خـلافـاً للنسـا   عـامـاً وكـل العـام كـان خـريفـا
لـكـن تـولّـدَ في ثـلاثـة أشـهـر   وحَبَـا عـلى عَجـل وشبّ لـطيفـا

ولما جهز الكتاب سُبكت له حروف جديدة وتم طبعه سنة ١٨٥٥ على نفقة التاجر رفائيل كحلا في ٧٥٠ صفحة .

ولا ريب أن أقـدام الشدياق على كتـابة سيـرته الـذاتية وهـو يعاني أزمـات ماليـة ومعيشية تدل عليها رسالته إلى الخازندار وغيرها من مصاعب متنوعة ، مظهر من مظاهر الشعور بقيمة الذات وحقها في التأريخ لها والتسجيل ، فكأن الشدياق كان بحـاجة إلى عمل أدبي يرد به على حظه العاثر بإبـراز استحقاقـه الكبير ولعـل الأمر كـان مخاطبـة منه لنفسه وحواراً معها قبل أن يكون مخاطبة للآخرين ومحاورة لهم .

وسوف نتكلم عن هذا الكتاب مفصلاً عندما نتكلم عن أدب الشـدياق في فصـل مقبل .

(*) يبدو أن هذه التسمية لم تعجب شقيقة طنوس وذهب بعيداً في تصور معنى الساق على الساق فأجابه في رسالة قال فيها : « ليس هذا العنوان بمستنكر عند ذوي الادب فإن الساق في اللغة بمعنى الشدة . فهل ينكر قوله في القرآن والتفت الساق بالساق (سورة المائدة) ؟ ثم يقول له : وليس في كتابي قدح في الاديان كما اخبرتكم سابقاً . والذي حملني على تأليفه اسباب طويلة لا يمكنني الآن ذكرها » (رسالة إلى طنوس في ٢٠ نيسان ١٨٥٦ ـ من مجموعة الاستاذ يوسف إبراهيم يزبك) .

IX

ـ الاستقرار في لندن وعمله ككاتب تجاري في محلات حوّا ـ طبع كتاب الواسطة وكشف المخبأ ـ تعيينه ترجماناً في الديوان العالي في الاستانة ـ التقاؤه وخير الدين التونسي.

في تتبعنا لخطى الشدياق في باريس لم نعثر على دليل يوضح أنه عمل في وظيفة ما . لذلك أخذ يتردد على لندن بحثاً عن عمل ، لكنه لم يوفق في بادىء الأمر . ولما شاعت أنباء الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا نظم قصيدة في مدح السلطان تضمنت دعوة أهل السلطنة إلى الجهاد . وقدم القصيدة الى سفير الدولة العلية في لندن فأرسلها هذا إلى رشيد باشا الصدر الأعظم ، فلم تمض أيام حتى بعث رشيد باشا يخبر السفير أنه قدم القصيدة « للحضرة السلطانية » فوقعت لديها موقعاً حسناً وأنه صدر الأمر العالي بتوظيفه في ديوان الترجمة السلطاني(٩٣) .

أخذ الشدياق في الاستعداد للسفر إلى اسطنبول ، ولكن لأمر ما لم يسافر بل بقي في لندن . ولم يذكر السبب في كتاب الساق ولا في كشف المخبأ حتى ولا في رسائله لأهله . ولكنه في رسالة إلى شقيقه مؤرخه في ٨ تشرين الأول ١٨٥٥ يقول أن زوجته عادت من اسطنبول إلى مالطة بسبب الضيق الناجم عن الحرب . أتكون زوجته اثنته عن السفر . ليس للأمر سبب آخر كما نرى .

وكان الشدياق في هذه الأثناء دائب السعي والبحث هنا وهناك عن عمل يوفر له الكفاية أو حتى الكفاف له ولعائلته . وتحت وطأة هذه الحاجة اضطر أن يعمل كاتباً في محلات الخواجات حوّا في لندن . أقبل على عمله بجد وانغمس في الجو التجاري

انغماساً تاماً . ولم ينصرف ، بالرغم من وظيفته المتعبة ، عن الكتابة ، فأكب على وضع كتابه « كشف المخبا عن فنون أوروبا » وهو كتاب رحلته الذي كان قد أعد موضوعاته ومراجعه منذ أن ترك مالطة سنة ١٨٤٨ .

قال عن الظروف التي كان يكتب فيها انها تذهب بالصبر من الزحام والتوارد ودوي المراكب في حي الستي في لندن حيث لا يمكن أحداً من سكانها أن يعمل فكره في شيء إلا فيما هو بين يديه .

أودع كتابه هذا ، كما يقول ، ما رأي في بلاد الانكليز وغيرها وما هم عليه من الأحوال والأطوار والأشغال والصنائع وجعل ذلك على سبيل الموازنة بينهم وبين الفرنسيين . ثم استطرد إلى ذكر المخترعات واصل استخدامها وإلى تعداد ما تهم معرفته . واستخرج كثيراً من المعلومات من كتب يعتمد عليها .

ظلت حال الشدياق على وضعها من حيث الضيق المالي فكان يقبض من محلات حوا عشر ليرات فقط يبعث منها إلى زوجته في مالطة ست ليرات لمعيشتها هي وابنها سليم وللانفاق على الأدوية والمعالجة ويبقى له ولابنه فائز المصاب بداء الخنازير أربع ليرات . فهذا المبلغ يكاد لا يكفيه ، على تقتير ، وفي سبيل تحصيل هذا القليل كان يعاني أجهاداً لا يطاق . فهو يمشي تحت المطر والثلج وفوق الوحل . ويخرج من بيته في ساعة مبكرة من الصباح ولا يعود إليه إلا في الليل . هذا ، عدا تشتت الشمل والكرب الذي يأتيه من كل صوب . وذات يوم ارسل اليه من مالطة ابنه سليم يخبره أن أمه في النزع وأنه خائف من أن يبقى يتيماً وحيداً . وابنه فائز ، أشار الطبيب بإرساله إلى المناطق الدافئة . فنوى إرساله إلى مالطة ، « فإذا وجد أمه حية بعد ، أقام معها ، وإلا ، كما يقول لشقيقه ، فإني مضطر إلى السفر بنفسي إلى هناك لأرى طريقة معيشته له ولأخيه » وهنا تنقطع عنا أخبار زوجة الشدياق نهائياً فلا نعثر لها على أي أثر وعلى هذا يصح قول سليم أن أمه كانت في آخر أيامها . أما ابنه فائز فقد غاب عنه الكلام أيضاً ، فبعد أن أشار الأطباء بإرساله إلى البلاد الدافئة وبعد أن نوى أبوه إرساله إلى أمه في مالطة نراه وقد أرسله إلى خاله في دمشق وانقطعت اخباره نهائياً.

بعد تشتت العائلة بسبب الفاقة والمرض أتته الكارثة بأن ابلغه مدير محلات حوّا أنه فصل من وظيفته التي امضى فيها سنتين وأنه « لم يبق له لزوم الا شهرين فقط»(٩٤) . في خلال هذه الأزمة التي أخذت تضيق شيئاً فشيئاً على خناق الشدياق ، أطل على لندن الوزير التونسي خير الدين باشا.

X

من هو خير الدين ؟ ـ الشدياق في تونس للمرة الثالثة ـ تعيينــه مؤسساً للرائــد التونسي ـ انقـلاب الأمور وذهـاب الامتياز الى هـولـط الانكليزي ـ اعتناق الشـدياق الإسلام ـ تعيينه مصححاً في دار الطباعة بالاستانة .

كان خير الدين من رجالات الشرق الذين كتب لهم أن يقـوموا بـأدوار تاريخيـة . وقد اضطلع بمهمـات كبيرة في تـاريخ تـونس في القرن التـاسع عشـر وكان أحـد الأفراد القلائل الذين قامت على أكتافهم نهضتها وقد عاش خير الدين باشـا في أوروبا سنـوات عديدة ثم ولي الحكم والمسؤوليات أيام الباي أحمد والباي محمد والباي محمد الصـادق ، وكذلك ولي الصدارة العظمى في اسطنبول أواخر سنة ١٨٧٨ وكتابه « أقـوم المسالـك في معرفة أحـوال الممالـك » يعتبر ، كما يقول الفـاضل ابن عـاشـور من أنفس آثار القلم العربي في القرن الماضي في السياسة والاجتماع .

جاء في مطلعه بمقدمة قيمة شرح فيها أسباب تأخر العالم الاسلامي ووصف السبل الى نهضته ، وأن ذلك لا يكون إلا بالاقتباس من المعارف والنظم التي تحققت بها النهضة الأوروبية ، وبيّن ما كان لانتشار المعارف في أوروبا وخاصة في فرنسـا من أثر في سعـادة الأمة ، وتكلم عن حقيقة الملك والحرية والشورى والمسؤولية الوزارية وما يقوم في وجـه التناسق المطلوب بينها من المصاعب . وأنه إذا تكونت تلك المصاعب فقد تبيح الضرورة تفويض إدارة المملكة لشخص واحد مستبد في ظروف معينة وعلى قوانين محصورة . وقد أراد خير الدين أن يثبت أن السبيل الوحيد في العصر الحاضر لتقـوية الـدول الاسلاميـة

إنما هو اقتباس الأفكار والمؤسسات عن أوروبا وأقناع المسلمين المحافظين بأن ذلك ليس مخالفاً للشريعة بل منسجماً مع روحها(٩٥) . ولـذلك يـوصف خير الـدين بأنـه من زعماء الإصلاح في العصر الحديث . قال عنه أحمد أمين « كانت فضـائله التي تكون شخصيتـه الجرأة في قول الحق وعمله من غير خوف وصلابته في ما يعتقد من غير انحناء وحريته في تفكيره من غير جمود وقوة كواهله على حمل الاعباء من غير تبرم » .

هذا هو خـير الدين الـذي أطل عـلى لنـدن فبـادر الشديـاق إلى تهنئته بـالوصـول وأنشده قصيدة مدحه بها « فوقعت لديه موقعاً حسناً وتكرم عليه بوظيفـة حسنة عنـده في تونس » .

جاء هذا الكلام في كراس عنـوانه « الحمـد لله »(*) مؤرخ في ٨ حزيـران ١٨٥٧ ويحتوي على أربع قصائـد مطولـة في مدح رجـالات تونس . وللكـراس مقدمـة بإمضـاء انطونيوس الأميوني . وهي وإن تكن بامضاء الأميوني ، إلا أن أسلوبها ينم على الشدياق وهي مترجمة إلى الانكليزية .

جاء في هذه المقدمة أن الوظيفة التي تكرم بها الوزير التونسي هي « مباشرة جرنال عمومي يشتمل على أخبار داخلية وخارجية معربة من اللغات الافـرنجية وغـير معربـة . فإن المشار إليه عازم على إنشاء مطبعة عـربية في ذلـك الطرف لاشتهـار الكتب والأخبار المفيدة » وإن ذلك كان لأن خير الدين عازم على « الحاق تلك المملكة بالممالك الأفرنجية في جميع ما يتهيأ من أسباب التمدن » .

وقد نرى في هذا الكلام ولادة « الرائد التونسي » وولادة مطبعته .

لم تكن حاجة خير الدين إلى الشدياق بأقل من حـاجة الثـاني إلى الأول . وكما أن خير الدين وجد في الشدياق ضالته ، كذلك وجد الشدياق في خير الدين الـرجل الـذي أقاله من عثاره فأنهى ازمته المالية وغير المالية .

ولعله من حقنا أن نتساءل هل أن خير الدين هو صاحب الفكرة في انشاء الجريدة أم أن الشدياق هو الذي القاها إليه فوقعت لديه موقعاً حسناً ؟

وفي رأينـا أن الأمـر الثـاني يجب ألا يستبعـد ، فقـد سبق للشـديـاق أن قـدم إلى الخازندار اقتراحاً مماثلاً .

(*) مكتبة المتحف البريطاني (14583 b7) .

ومهما يكن من أمر صاحب الفكرة وأيهما كان فقد سافر الشدياق إلى تونس مصطحباً زوجته الجديدة الانكليزية ، (لا نعلم متى تزوجها ، ولكن من المتواتر عند المعنيين بسيرة الشدياق أنها كانت معه في تونس . وفي كتاب كشف المخبأ الذي كتبه في لندن يقول : « ومن تزوج احداهن (الانكليزيات) فقد هنأه العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد في النفقة وراحة البال من الأسباب الباعثة على الغيرة » . ولعل مدحه للانكليزية يتضمن شكواه من الأولى . ومع ذلك فقد احتلت الأولى كتاب الساق على الساق في معظم فصوله فبقيت « الفارياقية » على الأيام ما بقي هذا الكتاب) .

ماذا عمل الشدياق في شأن الرائد ومطبعته .

قبل أن نجيب على هذا التساؤل نرى أنه من الأفضل أن نقسم الكلام إلى قسمين . الأول ما يتعلق منه بالمطبعة والثاني ما يتعلق بالصحيفة .

أما بشأن الموضوع الأول فيقول الطرازي أن الباي محمد الصادق « استدعى لديه رجلاً فرنسياً شهيراً من مشاهير المستعربين يسمى منصور كرلتي ، صاحب جريدة عطارد سابقاً في مرسيليا فقام منصور بمهمته أحسن قيام إذ هيأ المطبعة ونظم أدواتها وعلّم العملة ترتيب الحروف» . ويقول الفاضل ابن عاشور أن المطبعة كانت في عامها الخامس عشر والجريدة في عامها الرابع عشر حينما اسند تحريرها الى الشيخ محمد بيرم ، وإدارتها إلى فرنسي مستعرب نشأ في بيروت في كلية اليسوعيين هو منصور كرلتي . ويقول الاستاذ الهادي المدني في محاضرة له القاها في بيروت أنه كان للشدياق مطبعة في مالطة نقلها من ثم إلى تونس .

أما الواقع كما نراه فهو ما يلي :

لم يكن للشدياق مطبعة في مالطة كما قيل . فالمطبعة أو المطابع التي كانت موجودة في مالطة هي للحكومة المالطية ولبعثات تبشيرية معروفة ذكرناها في فصل سابق . وعندما جاء الشدياق إلى تونس جاءها من لندن وكان قد مضى على مغادرته مالطة نحو تسع سنوات ، أما كارلتي فجاءها في سنة ١٨٧٦ وغادرها إلى لندن سنة ١٨٧٧ لأنشاء جريدة خاصة به(٩٦) .

صدر العدد الأول من الرائد في ٢٢ تموز . ١٨٦٠ أي بعد تولي الباي الجديد محمد الصادق بعشرة أشهر . مما يرجح لدينا أن المطبعة كان قد تم تأسيسها ، أو كاد في

عهد الحاكم السابق الباي محمد . وليس من المحتمل أن يحصل هذا الأمر في نحو عشرة أشهر وفي مثل ظروف ذلك الزمن من الصعوبة في وسائل النقل والمواصلات . وقد يكون التأسيس مرّ بتباطوء أيام الباي محمد، أما مشروع الصحيفة فقد أجل تنفيذه لأمر لا نزال نجهله ، ولكنه يجب أن يحوم ، في الغالب ، حول آراء الباي محمد ومزاجه . فقد عرف عنه أنه كان بعيداً جداً ، بطبعه ، عن مسايرة الحياة الغربية في الشؤون العامة ، وأنه كان شديد الأنتقاد لتأثر أحمد باشا بالحياة الأوروبية، وكان رجعياً بطبعه يعيد النظر في التشريعات التي قام بها سلفه حتى أنه أعاد الاسترقاق بالرغم من اعتراض رجال الدولة وكان إلى ذلك يكره الأسراف ويكره المظاهر التي لا تتلاءم وقدرة تونس ، فألغى الجيش المحلي ليوفر نفقاته واكتفى بكتيبة صغيرة لحفظ الأمن .

فهل تكون فكرة المطبعة والجريدة من الأمور التي نظر فيها وری أن يتباطأ في الصرف عليها ؟ أم أنه لم ير فيها ضرورة تتلاءم ووضع تونس غير المتطور ؟ أو لأسباب شخصية تتعلق بشخصية خير الدين إذ كان خير الدين وجماعته هم في نظره حزب الباي أحمد[٩٧] ؟ ، ومهما يكن من أمر فإن المطبعة لم تعمل إلا بعد وفاة هذا الباي وتولي خلفه الباي محمد الصادق .

هذا ما نرجحه في ما كان من أمر المطبعة وما كان من أمر تأسيسها . أما في شأن الموضوع الثاني أي مسألة الجريدة فنبدأ بإيراد بعض ما جاء في هذا الموضوع .

قال زيدان : « وبعد صدور « الجوائب » بسنة ، صدر « الرائد التونسي » وهو جريدة رسمية لتونس صدرت سنة ١٨٦١ ولا تزال » . وقال شيخو أن الباي أحمد استقدم الشدياق إلى تونس « وكان هناك يحرر جريدة الرائد التونسي » . وقال الطرازي عن الجريدة : « هي صحيفة رسمية أسبوعية تأسست غرة محرم ١٢٧٨ (٩ تموز ١٨٦١) على يد محمد الصادق باشا الباي الثالث عشر إلخ . . . وصدرها بهذه الآية « حب الوطن من الإيمان فمن يسع في عمران بلاده إنما يسعى في إعزاز دينه إلخ . . . » ثم يقول الطرازي وكان يحرر أكثر فصول الجريدة « منصور كرلتي » وبعد استقالته من هذه الوظيفة خلفه الشيخ محمد السنوسي ثم السيد محمد بيرم الخامس والحاج حسن لازغلي إلخ . . . . ثم يقول : إن زيدان وشيخو ذكرا أن الشدياق حرر الرائد ، ولكنه لما صدر الرائد التونسي كان أحمد فارس الشدياق يحرر جريدة الجوائب في الأستانة التي لم يزايلها إلى أواخر أيامه » وقال الأستاذ عثمان الكعاك في محاضرة ألقاها

في نادي متخرجي المقاصد الإسلامية في بيروت في مطلع سنة ١٩٦٣ : « ظهرت الصحافة بتونس سنة ١٨٦٠ حينما أسس الرائد الرسمي التونسي وانتدب إلى إدارته وتحريره أحمد فارس الشدياق وحمزة فتح الله » وقال الأستاذ الهادي المدني : « وكانت الحاجة تدعو آنذاك لإصدار صحيفة عربية وإذ كان أحمد فارس الشدياق في ذلك العهد بمالطة وكانت له بها مطبعة عربية طبع بها بعض مصنفاته لذلك استدعي إلى تونس للإسهام في إصدار تلك الجريدة فهب في نجدة عرف بها أنجاد لبنان الأشاوس مصطحباً معه مطبعته العربية ثم تعاون مع قبادو سنة ١٨٦٠ على إصدار جريدة عربية سميت بالرائد التونسي »(٩٨) .

فما حقيقة الأمر في هذه الأقوال كلها ؟

يقول المرسوم الذي أذن بإنشاء المطبعة وإصدار الجريدة ، وهو موجه إلى أمير اللواء حسين مستشار الأمور الخارجية ورئيس المجلس البلدي لتونس العاصمة ما يلي : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فإننا كنا قد سرحنا الوجيه التاجر الإنكليزي السنيور ريتشارد هولط بأمرنا المؤرخ بتاريخ ثاني عشر جمادي الثانية سنة التاريخ لعمل مطبعة باللغة العربية وغيرها في حاضرتنا تونس لما فيها من الفوايد التي لا تحصى ولا يفي بها العدد ولا تستقصى ، تطبع بها الصحيفة الدورية المعروفة بالجرنال لإفادة عامة الناس والأوامر الحكمية والأخبار المتجرية والأسعار الوقتية وحوادث الأزمان في قواصي البلدان وغير ذلك مما يعم نفعه على شروط منها أن الناظر في أحوالها وساير أمورها رئيس المجلس البلدي ومنها أن لا يتعرض لشيء من الأمور السياسية إلا إذا سوغه له الرئيس المذكور ومنها أن لا يطبع كلاماً يتعلق بأحد من الناس مما يشين العرض والمروءة ولو كان منقولاً من جرنالات البلدان فالذي نأمرك به الآن أن تشرع في العمل بما تضمنه أمرنا الذي بيد التاجر المذكور وأن تسمي صحيفة الأخبار بإسم الرائد التونسي وأن تخصص منها قسماً لذكر أحكامنا الرسمية التي ترد إليكم بواسطة وزيرنا الأكبر وزير العمالة والله تعالى يتولى إعانتكم ويديم حفظكم ورعايتكم والسلام .

من الفقير إلى ربه تعالى عبده المشير محمد الصادق باشا باي صاحب المملكة التونسية سدد الله أعماله أمين وكتب في ٢٨ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٧٦ »(*) .

(*) العدد الأول من الرائد التونسي ـ ٤ محرم ، ١٢٧٧ هـ ـ ٢٢ تموز ١٨٦٠ .

ومن نص المرسوم يتبين :

أولاً : أن صاحب الإمتياز بإنشاء الجريدة هو التاجر الإنكليزي ريتشارد هولط . والمرسوم مؤرخ في ٢٨ ذي الحجة ١٢٧٦ والاذن بالتأسيس كان في ١٢ جمادي الثانية ١٢٧٦ أي قبل صدور المرسوم بنحو خمسة أشهر ونصف . وصدر العدد الأول في ٤ محرم ١٢٧٧ الملاقي ٢٢ يوليه العجمي (تموز) ١٨٦٠ .

ثانياً : ان المراقب المنتدب من الدولة والمشرف كان أمير اللواء حسين باشا رئيس مجلس بلدية العاصمة .

ثالثاً : لم نرَ وجوداً لكارلتي في مرسوم التأسيس . ولو تصفحت العدد الأول من الرائد لما وجدت إسمه ولا « حب الوطن من الإيمان » ولا غيرها مما ذكر .

رابعاً : أما القول « انه لما صدر الرائد التونسي كان أحمد فارس يحرر جريدة الجوائب في الأستانة » فهذا غير واقعي أيضاً . فلم تصدر الجوائب قبل الرائد بل العكس هو الذي حدث . فقد صدر العدد الأول من الرائد في ٤ محرم ١٢٧٧ (٢٢ تموز ١٨٦٠) وصدر العدد الأول من الجوائب في ٢١ ذي القعدة ١٢٧٧ (٣١ أيار ١٨٦١) أي بعد نحو عشرة أشهر .

لماذا لم يتول الشدياق مهام الرائد كما كان منتظراً ، وكما هو شائع عند بعض الأدباء ؟

يبدو أنه بعد أن تم تأسيس المطبعة ، كما قلنا ، قامت من دون توليه أمر الرائد موانع لا نعلم طبيعتها ، قد يكون من بينها أو أهمها ضغطاً مارسه القنصل البريطاني لمصلحة هولط المذكور . وقد يكون التنافر الذي كان بين الشدياق وبين الشيخ محمود قبادو ، وهو ذو نفوذ في بلاط الباي ، وقد ظهر هذا التنافر في ظرف من الظروف في أبيات هجا فيها قبادو الشدياق :

أضحوكة لمسخرة ... جاءت من أرض الكَفَرَة
قرد يسمّى فارساً ... يهوى ركوب الكَمَرة

كما اتهمه مرة بسرقة شعره :

يا لها من حماقة وخلاق ... ظهرت من تشدق الشدياق
ظن شيطان طبعه شهب الآ ... داب زالت فحام حول استراق(٩٩)

وقد ظلت جفوة الشدياق من قبادو قائمة وطال أمدها . وحين وقعت الواقعة فيما بعد بين الجوائب وبرجيس باريس انتصر قبادو للجوائب فأرسل إلى الشدياق رسالة وقصيدة ، ولكن القصيدة أدرجت في الجريدة على أنها لأحد شعراء تونس ونقلاً عن الرائد . فلم يذكر إسم صاحبها . مما يكشف العداء الشخصي القديم بين الرجلين .

إن انعدام صلة الشدياق بصدور الرائد أمر واضح فإذا ما تصفحت الجريدة لم تجد شيئاً ينم عن قلمه . فالمقال الأول يتحدث فيه كاتبه عن « الكمال العلمي » وكيف أنه يحصل من طريقي « المشافهة والمكاتبة » وهو مكتوب بقالب فيه يبوسة وجفاف ينم عن أسلوب قبادو . وفي آخر المقال خمسة أبيات في تاريخ صدور الجريدة من نظمه أيضاً ، قال في هذه الأبيات :

يا طالباً للخبر الصادق	أنعم بهذا الرائد الرايق
يأتيك بالأخبار من قصِّها	منتخباً للفايد الفايق
روض من الآداب أزهاره	تحسُن للناظر والنَّاشق
زان به الخضراء مالكها	دامت به تحمي من الطارق
يفصح عن فحواه تاريخه	ابنا نجد رايد الصادق

وليس في الرائد مقال يغاير أسلوب قبادو هذا ، فإنشاء الجريدة كله من نسيج واحد .

والمقال الثاني يشتمل على معلومات سياسية عامة من مختلف الأقطار لا سيما بريطانيا .

ومجمل القول انه من المحتمل لدينا أنه كان للشدياق علاقة في إنشاء المطبعة وتهيئة أسبابها . أما أن يكون عمل في الرائد التونسي فهو شيء مستبعد كما بيّنا ، والله أعلم .

وهناك كلمة لا بد من قولها في شأن إنشاء المطبعة والجريدة فإن نسبة ذلك إلى الباي محمد الصادق يجانبها الإنصاف فالفكرة كما بيَّنا هي لخير الدين قبل تولي محمد الصادق بنحو عشر سنوات .

ليس في الوثائق التي تتعلق بالشدياق ما يشير إلى المدة التي قضاها في تونس ولا زمن رحيله عنها . ولكن قد يأتي في باب الإحتمال أنه غادرها بعد أن علم أن امتياز الرائد إتجه إلى هولط وأن التحرير اتجه إلى قبادو أي قبل صدور الجريدة بأشهر أو أكثر

فضاق ، والحالة هذه ، الجو عليه وفضل الإنتقال إلى الأستانة فترك تونس في نحو السنة ١٨٥٩ وربما قبلها(١٠٠) .

ولعل أبرز واقعة في حياة الشدياق في تونس اعتناقه الإسلام . وفي تقديرنا أن ذلك جرى في بساطة متناهية لذلك لا يجد الباحث أي تفصيل يتعلق بهذا الأمر . ومن المتواتر عند أهل الأدب في تونس أن إسلامه حدث بعد سنة ١٨٥٧ على يد مفتي الحنفية محمد بيرم الرابع وإضافة إسم أحمد إلى اسمه هي تيمُّناً باسم الباي المصلح ، وقد كني بأبي العباس على عادة بعض العرب وأهل تونس في تكنية من كان اسمه أحمد .

ويقول الأب شيخو في مجلة المشرق أن الشدياق « أسلم طمعاً في المناصب »

لم نجد في سيرة الشدياق ما يؤيد ما ذهب إليه الأب شيخو وإذا دققنا في تفاصيل هذه السيرة نرى أنه قد عُين محرراً في الوقائع المصرية سنة ١٨٣٣ أي قبل اعتناقه الإسلام بنحو ربع قرن ، كما أن وزير تونس الأكبر وظفه بعيد سنة ١٨٤٩ مراسلاً له وعيناً في مالطة وأوربا فضلاً عما اغدقه عليه الباي أحمد وخلفاؤه ووزراؤهم من هدايا ومنح . وعندما كان موظفاً تجارياً في لندن سنة ١٨٥٦ عُين ترجماناً في الباب العالي في اسطنبول وهو منصب رفيع في تسلسل الوظائف العثمانية ـ ولو أنه لم يلتحق بالوظيفة لأسباب خاصة ـ وفي سنة ١٨٥٧ عينه خير الدين مؤسساً للرائد التونسي ومطبعته . عُين في هذه المناصب جميعها وجرت عليه المنح قبل اسلامه . والوظيفة الوحيدة التي عين فيها بعد ذلك هي مصححاً في المطبعة السلطانية ثم رقي إلى رتبة رئيس مصححين نظراً لكفايته . وأما جريدة الجوائب فلم تكن طريقها في أول عهدها مفروشة بالورود كما سيرى القارىء في فصل مقبل من هذا البحث .

إن كلام الأب شيخو يدعو إلى التأمل .

ومهما يكن من أمر فقد أخذت قضية إسلامه من اهتمام الدارسين حيزاً عاطفياً سلبياً وإيجاباً ، والأصل هو اعتبار قرار إسلامه اختياراً حراً قائماً على اقتناعه بالإسلام كدين . ولا يستبعد أن يكون قد اتخذ قراره بعامل الرغبة في مماشاة الجماعة والإندماج مع الأكثرية حتى الذوبان في جو التراث الحضاري والفكري واللغوي الذي عاش فيه بحكم ميوله ومواهبه واحترافه . والأكيد أن الشدياق قضى الثلث الأخير من عمره مسلماً كما هي الأغلبية الغالبة من المسلمين لا ينقص عنها في شيء ولا يزيد . ولا نقع له على كلام إلا ما ينم عن اعتزاز بالتراث الإسلامي .

وآيات الإيمان بالله وبالإسلام والتعلق بالدين ، والإحتجاج بالقرآن والحديث والشريعة تكاد لا تخلو منها مقالة من مقالاته .

جاء الشدياق إلى عاصمة الخلافة ، وكان سامي باشا على رأس وزارة المعارف ، فعين ، في أول الأمر مصححاً في المطبعة السلطانية ، أو « دار الطباعة العامرة »[١٠١] وهي تابعة للوزارة المذكورة ثم رقي إلى رئيس مصححين[١٠٢] . ومن هذه الوظيفة انتقل إلى الجوائب مؤسسته الكبرى .



خير الدين التونسي

الفصل الثاني

جريدة الجوائب

I

الجو العام في عاصمة الخلافة ـ صدور الجريدة برأسمال متواضع ـ توقفها بعد تسعة أشهر بسبب مصاعبها المالية ـ عودتها بمساعدة محدودة من الصدر الأعظم فؤاد باشا .

جاء الشدياق إلى اسطنبول في ظروف مؤاتية أمام طموحه ، فعهود عبد المجيد وعبد العزيز ومراد وعبد الحميد كانت فترات غير عادية في حياة الأمبراطورية العثمانية . وقد حفل جو العاصمة بصراع سياسي عنيف ومتعدد الأطراف كان من شأنه أن يفتح الفرص لصدور الصحف .

فمن التنظيمات الخيرية في عهد السلطان عبد المجيد الأول إلى قضية السويس في عهد عبد العزيز إلى انفجار القوميات وولادة الحياة الدستورية في ظل السلطان عبد الحميد الثاني : سلسلة من الأحداث الضخام تطرح التحديات أمام الهمم .

وكان أبرز ما يسيطر على جو العاصمة ، في تلك الفترة ، من الناحية الدولية النزاع العثماني الروسي ، وقد أصبح هذا النزاع ملتقى لضغوط ومصالح أطراف متعددة ، قريبة وبعيدة ، منها إنكلترا وبروسيا والنمسا وفرنسا وروسيا ، تتحرك كلها باتجاه أو بآخر . وينعكس ذلك على الأوضاع الداخلية في السلطنة ، فتنبه النزعات القومية وتنشأ الحركات الإنفصالية .

وينقسم العثمانيون في الطريقة الفضلى لمواجهة الحاضر والغد ، فتشتد من جهة

العصبية للسلطان ، وخصوصاً عبد الحميد ، باعتباره الرمز ونقطة الإستقطاب القادرة على وقف التدهور . وتشتد بالمقابل النزعة لتحديث السلطنة مجسدة في رجل الإصلاح مصطفى رشيد باشا ومن بعده في « المتغمرب » مدحت باشا . ويبرز وزن العرب كعنصر أساسي من عناصر السلطنة وتأخذ الوجاهات والكفايات العربية حجماً في عين نفسها وعين الآخرين .

وقد انبثقت الجوائب عن هذا الجو الولود ، واستفادت من كل ما فيه من زخم . ومهما يقل المرء في إقدام الشدياق وتضحياته وبذله ، ووصوله إلى حد الإملاق في تحمل أعباء الجريدة ، فإن الجو كان يهيء للمشروع الصحفي ظروف التغلب الدائم على الصعوبات .

ولا شك في أن مخيلة الشدياق لم تكن خالية ، وهو يقدم على هذا المشروع ، من أسماء ومؤسسات وقوى محلية ودولية ترحب بصدور جريدة من هذا النوع . وأغلب الظن أنها ستكون مستعدة لتجسيد هذا الترحيب في معونات معنوية ومادية ثمينة . وفي صفحات الجوائب دلائل على نزعات وميول عند صاحبها توحي باحتمال أن يكون بينه وبين بعض الجهات ارتباطات وثيقة . فلا شك مثلاً بالصلة التي كانت تشده إلى خديوي مصر كما أنه لا شك كذلك بصلته بالخازندار وكذلك خير الدين . وقد قدم له الصدر الأعظم فؤاد باشا مساعدة مادية صريحة أقالت الجوائب من عثارها .

وبكل حال لا يمكن تصور خلو بال الشدياق عند التفكير بإصدار الجوائب من إسم سامي باشا وزير المعارف في ذلك الوقت والرجل الذي رعاه محرراً في جريدة الوقائع المصرية وكان له على الأرجح فضل ترغيب الشدياق في ذلك الزمن بالمهنة الصحفية .

وسنرى أثناء الحديث عن سياسة الجريدة بعض ملامح ارتباطات الشدياق بما فيها القول الذي كان ينسب إليه بالعمل لخدمة المصالح الإنكليزية وهو ما سوف نتحدث عنه في فصل مقبل .

وعندما يرد الكلام على الشدياق صاحب الجوائب ، فإن صحيفتين تقفزان إلى الذهن مع الجوائب ، هما الوقائع المصرية والرائد التونسي .

أما الوقائع المصرية فقد جاء في القسم الأول من هذا الكتاب أن عمله فيها لم يكن ذا شأن ، إذ أن هذه الجريدة كانت في تلك المرحلة قليلة الموضوعات ، لا تتطلب

كفاية خاصة ولا تدعو إلى شحذ موهبة وما يراد ترجمته أو تصحيحه لا يدخل في الصناعة وتجويدها .

وإنما أهمية عمله في الوقائع جاءت من كونها بذرت فيه بذرة العمل الصحفي ، ومن كونها وصلته ببعض الأوساط والشخصيات الهامة التي لعبت دوراً في حياته كسامي أفندي وبعض شيوخ الأدب في مصر .

وأما الرائد التونسي ، فإن الشدياق على عكس ما هو رائج لم يعمل فيه ، كما بيّنا .

وأما الجوائب فقد كادت تكون مرادفة لإسم الشدياق . على صفحاتها انعكست شخصيته ، وفي مقالاتها وبين سطورها ظهرت آراؤه في السياسة والحكم والشورى ، وفيها برز ترسله في السهل الممتنع وأدب المقالة الصحفية ، وفيها اشتهرت قدرته في الترجمة ووضع المصطلحات الجديدة للمستحدث من المعاني والإختراعات وبها شاعت أفكاره كداعية تمدن وإصلاح وفيها أخذت جدلياته وحملاته الطنانة مداها .

من الطبيعي أن نرى أن عمل الشدياق في « المطبعة السلطانية » قد أيقظ في نفسه حلماً قديماً في إنشاء جريدة خاصة به تعبر عن أفكاره . والمطبعة ، في العادة ، تغري بإنشاء الصحف ، فهي بالواقع باب الصحافة بل نصفها الأفضل . ومن الطبيعي أيضاً أن نقدر أن الشدياق لم يفكر في المشروع جدياً إلا بعدما طوى مدة كافية ليتمكن من وظيفته الجديدة ويأتلف وعمله الجديد ، ثم ينظر ، بعدئذٍ ، في إمكانيات « المطبعة العامرة » . وقبل هذا وذاك كان عليه أن يهيىء الأسباب المالية وقد كانت يومئذ محدودة . أغلب الظن أنه عمد إلى مصادر ذاتية متواضعة . ولكن في يقيننا أن وجود سامي باشا رئيس تحرير الوقائع المصرية القديم على رأس وزارة المعارف ، وكذلك تولى إبنه صبحي بك نظارة المطبعة ثم وزارة المعارف بعد والده ، كانا من أهم العوامل التي فتحت للجوائب إمكانات الصدور . أما القول بأن السلطان أرسل في طلب الشدياق من الباي لإصدار جريدة تعبر عن رأيه(١) ، فهو قول يجانبه الصواب وهو تحميل للكلام المتواتر والإستنتاج أكثر مما يتحملان وسنرى ذلك عندما وقعت الجوائب في أزمتها المالية في السنة الأولى من حياتها .

صدر العدد الأول من الجوائب يوم الخميس في ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٧٧

هجرية الموافق لـ ٣١ أيار سنة ١٨٦١ . والجوائب تعني ، كما يقول صاحبها ، « الأخبار الطارئة » .

ومع الأسف لم نعثر على هذا العدد في أية من المكتبات ، بيد أننا وجدنا في كتاب « كنز الرغائب في منتخبات الجوائب » بعضَ المواد التي نشرت في العدد الأول هذا . من هذه المواد مقالة في مدح السلطان عبد المجيد الأول . ويأتي بعد هذه المقالة قصيدة في مدح السلطان أيضاً مع شروح لغوية مطولة لها[٢] . وننقل في ما يلي المقالة فهي افتتاحية العدد الأول من الجوائب .

قال في الافتتاحية : « أما بعد ، فقد جرت عادة المتألفين على موائد الفرح أن يطربوا ويشربوا على ذكر من يحبونه أو يعظمونه فحق علينا عند الاجتماع على مآدب الأدب أن نطرب على ذكر مولانا المعظم وسلطاننا المفخم ونبتدىء هذه الجوائب بمدحه إذ هو انفع من المدام وانجع من الأدام فأدام الله عليه نصره ورفع على جميع ذوي المقدرة قدره وفخره فإنه اندى من ملك واهدى من سلك واقصد من أمر وأعف من قدر وافضل من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وما قلته في جنابه الرفيع وشأنه البديع فإنه بعض مكارمه إذ لا يستوعب المدح جميع محاسن شيمه فلا زال يزداد في أكرم المناقب ويعلو شأنه على جميع المراتب » .

ويأتي بعد هذا الكلام القصيدة . وهي تتألف من خمسين بيتاً منشورة في صفحتين من كتاب كنز الرغائب . وشروحها تربو على الخمس صفحات .

ونشرت الصحيفة في العدد الأول ، أيضاً ، معاهدة باريس التي عقدت سنة ١٨٥٦ بين الدولة العثمانية وروسيا . بعد الحرب المعروفة بحرب القرم . وكانت هذه المعاهدة قد نشرت في حينها باللغتين التركية والفرنسية وغيرها من اللغات الأوروبية . ولكن الشدياق ترجمها إلى العربية ونشرها بالرغم من مرور خمس سنوات عليها . ويبرر هذا الأمر بأن المعاهدة المذكورة وثيقة خطيرة تتضمن قواعد مهمة تنبني عليها مصالح وأمور سياسية جمة فالإطلاع عليها وعلى أمثالها من الوثائق يفيد القارىء العربي ويجعله على مستوى مرموق وفهم واضح وإدراك جيد للسياسة الدولية وأحداثها ، هذا فضلاً عن جعل الجريدة مصدراً وسجلاً للوثائق الدولية الهامة .

هذه هي الموضوعات الثلاثة التي نشرت في العدد الأول من الجوائب وهي كافية لملء الصفحات الأربع للجريدة اللهم إلا إذا كانت قصيدة مدح السلطان قد نشرت

بدون شرحها عندئـذٍ كان باستطاعة المحرر أن ينشر مجموعة وافية من الأخبـار الخارجيـة وأخبار الأقاليم العثمانية[٣].

توفي السلطان عبد المجيد بعد أيام من صدور الجريدة وتـولى الملك بعده السلطان عبد العزيز فأتت الظروف بأنباء هذا التبدل التاريخي وبأخبار ملأت العدد الثاني فنشرت الجريدة نبذتين عن عبد المجيد وعبـد العزيـز وخبراً مفصـلاً عن تنصيب عبد العـزيز ثم خطابه الذي يتضمن توجيهاته في الحكم وإراداته السنية . . . الخ .

من المؤسف اننا لم نجد الاعداد الأولى من الجريـدة كذلـك لم نجد مجمـوعة شبـه متكاملة في المكتبات التي راجعناها . وأقدم نسخة عثرنا عليهـا كانت في مكتبـة المتحف البريطاني في لندن وهو العدد ١٦ والعدد ٤٣ كما إننا وجـدنا عنـد السيد شـارل شديـاق مجلداً لمجموعة تبتدىء من العدد رقم ٣٢٤ (٢٦ كانون الثـاني ١٨٦٨) إلى العدد ٥٩٨ (١٤ آب ١٨٧٢) ولـدى مكتبـة يـافث في الجـامعـة الأميـركيـة في بيـروت ميكـروفيلم لمجموعة السيد شدياق .

وفي المكتبة الشرقية التابعة لجامعـة القديس يـوسف مجموعـة لا بأس بهـا في أربعة مجلدات . المجلد الأول يحتـوي من العدد ٤٨٧ (١ كـانـون الثـاني ١٨٧١) إلى العـدد ٦٧٦ (٣١ كانون الأول ١٨٧٣) في هذا المجلد مفقود سلسلة من الأعداد من ٥٢٠ إلى ٥٦٤ وهي منـزوعة نـزعاً بعـد التجليد . ومن المـلاحظ أن هـذه الأعـداد تحتـوي عـلى المجادلة التي قامت بين الجوائب ومناصريها من جهة واليازجي وأنصـاره من جهة أخـرى ولعل أحد الدين ألّفوا في هذه المناقشة اللغوية العنيفة انتزع هذه الأعداد للاستعـانة بهـا في تأليفه اختصاراً للجهد . . . .

والمجلد الثـاني فيـه من العـدد ٨٣٦ (٤ كـانـون الثـاني ١٨٧٧) إلى ٩٨١ (١٩ حزيران ١٨٧٩) ، والمجلد الثالث من العدد ٩٨٤ (٧ كانون الثـاني ١٨٨٠) إلى ١٠٥٦ (٨ تشرين الثاني ١٨٨١) والمجلد الرابع والأخير من ١٠٦٠ (٦ كانـون الأول ١٨٨١) إلى ١١٧٧ (٥ آذار ١٨٨٤) والعدد ١١٧٧ هو آخر ما صدر من الجوائب .

وعلى هذا يمكن أن يؤخذ العدد السادس عشر كانموذج للشكل الذي كـانت عليه الجريدة في أول أيامها .

كان قياسها ٣٣ × ٥٠ والصفحة مقسمة إلى ثلاثة أعمدة ، وفي كل عمود خمسـين سطراً . وهي ذات أربع صفحات . وحروفها من النوع النسخي الأسطنبولي من قيـاس

Per. Pub. – Constantinople

(al Jawâ'ib)

الجوائب

No 16.

عدد ١٦ في يوم الجمعة في ٨ را الموافق الى ١٤ سبتمبر الافرنجي ـ بارل

سنة ١٢٧٨ سنة م ١٨٦١

الوكيل في تونس سي سليم الشباق
في بيروت يسأل من جناب السيد محمد
في لندره عند مستر ... ستراند عدد
في مالطه عند مستر ميوز ستزادا ريالي
بمصر القاهرة عند احمد افندي ...
في طرابلوس الشام الخواجا نقولا ...

هذه الجوائب تصدر في كل اسبوع مرة مترجمة من التركية والافرنجية وثمنها في العام مائة وخمسون قرشا في اسلامبول وفي الممالك الخارجية ٣٥ فرنكا خالصة ... ثلثة قروش ونصف وثمن كل اعلام يدرج فيها هنا خمسة قروش ولا اجر على الاخبار المفيدة لعموم ... ويبيعها في دار الطباعة العامرة وعند كا ... افندي ... ان تكون الرسائل الواردة اليها من الخارج مما يتعلق بها خالصة الاجرة

الحوادث الداخلية

وقع انفصال المفخم سليمان باشا والي ادرنه وعين في محله المفخم محمد باشا الصدر الاعظم سابقا

وقع انفصال المفخم عصمت باشا والي حلب وعين في محله المفخم رضا باشا السرعسكر سابقا

وقع انفصال المفخم ميرزا سعيد باشا والي ودن وعين في محله

قد كان يطبع بالاستانة العلية جرنالان ... احدهما باللغة الارمنية وكان يصدر في كل عشرة ايام مرة والثاني ... باللغة الارمنية والفاظ تركية وصدوره في كل يومين مرة وحيث كانا ... فيهما الطعن الشديد على رؤساء ملتهم مما لا يليق اشهاره في الجوائب صدر الان امر من طرف الباب العالي بتوقيفهما

وصل الى الاستانة العلية عائدا من الحج الشريف الحاج ميرزا ...

وقعت نار في الثامن عشر من ... منار وكان ثم صومعة قد ... صندوق ... بارودا فلما بلغ ... امر بهدم الدكاكين الان النار ... الصومعة فصار الناس يفرون ... امر المشار اليه حافظا ...

العدد السادس عشر من الجوائب

١٤ وليس فيها حروف من قياسات اخرى كما أنه ليس فيها من خطوط التشكيل الا شريط الفصل بين الأعمدة وشريط الفصل بين موضوع وآخر ، ويسميه الطباعون سمكة .

وجاء اسم الجريدة من الخط الثلث المصنع نوعاً ما بقياس ١/٢ ٣ × ٦ فهو متناسب مع قياس الجريدة فلا هو بالصغير المغمور ولا بالكبير النابي الحجم .

وإلى يمين اسم الجوائب جاء تاريخ صدور الجريدة بالحسابين الهجري والميلادي ولكن بغير ما ترتيب ولا تناسق . وإلى يسار الأسم قائمة بأسماء وكلاء الجريدة(٤) .

وتحت هذه « الترويسة » جاءت المعلومات العامة عن الجريدة بين شريطين اثنين وعلى عرض الصفحة . وتقول هذه المعلومات أن : « الجوائب تصدر في كل اسبوع مرة مترجمة من التركيّة والافرنجية وثمنها في العام مائة وخمسون قرشاً في اسلامبول وفي الممالك الخارجية ٢٥ فرنكاً خالصة الأجرة وثمن كل نسخة منها ثلاثة قروش ونصف وثمن كل اعلام يدرج فيها خمسة قروش ، ولا أجر على الأخبار المفيدة لعموم الناس وبيعها في دار الطباعة العامرة وعند كامل افندي الوراق في بايزيد ،وينبغي أن تكون الرسائل الواردة من الخارج مما يتعلق بها خالصة الأجرة» .

أما مواد الجريدة وموضوعاتها فقد ادرجت تحت ثلاثة عناوين فقط هي « الحوادث الداخلية » و« الحوادث الخارجية » و« حوادث شتى » .

تحت العنوان الأول ادرجت انباء رجال الدولة وتنقلاتهم وتعيينهم وعزلهم وتشريفهم بالالقاب والرتب وغير ذلك من الأخبار المشابهة وهي على هذا المثال :

« وقع انفصال المفخم سليمان باشا والي ادرنه وعين محله المفخم محمد باشا الصدر الأعظم سابقاً ، وقع انفصال عصمت باشا والي حلب وعين محله المفخم رضا باشا السر عسكر سابقاً الخ . الوزير المفخم محمد علي باشا أمير البحر صنع وليمة فاخرة في داره بالساحل لجانب الوزير المفخم سعيد باشا والي مصر » . الخ . . .

وقد ملأت هذه الأخبار الصفحة الأولى تقريباً ، ولكن صاحب الجوائب كان ينشرها على مضض لأنها لا تفيد احداً كما كان يقول ، وإنها لا تهم إلا القليل من الناس .

أما تحت عنوان « الحوادث الخارجية » فقد نشرت الجريدة اخباراً سياسية من جميع

اقطار العالم مترجمة عن الصحف الأجنبية لا سيما الانكليزية والفرنسية . وكانت هذه الأخبار غزيرة المادة لا سيما ما يتعلق منها بالأزمات الكبرى، وكتبت بأسلوب مركز مع تعليق للمحرر حيث لزم التعليق . وملأت هذه الأخبار نحو صفحتين .

أما « حوادث شتى » فقد شملت الصفحة الرابعة كلها وهي انباء علمية وأدبية وطرائف وأخبار سياسية مجتزأة وحوادث يومية . الخ . . .

وسوف نتكلم بالتفصيل عن أسلوب الجوائب في هذين البابين حين نتحدث عن تحرير الجريدة دون العودة إلى الكلام عن باب « الحوادث الداخلية » فالأنموذج الآنف الذكر يكفي في نظرنا .

في آخر الصفحة الرابعة ختم الشدياق الجريدة بهذين البيتين :

يا ليت إني والجوائب كاسمنا   وكذلك الدنيا ترى لي دانية

فيجيئني متملقاً متودداً   من كان يشنأني ويحمد شانيه

ومن يدقق النظر في هذا العدد من الجوائب يرى فيه غزارة المادة ولا سيما ما جاء منها في السياسة الدولية والأنباء العالمية ، ولكنه يرى أيضاً بوضوح تعب المحرر .

فحشد الأخبار الخارجية دون تنسيق ، وسرد الأخبار الداخلية دون تبويب ، ومزج الطرائف بالأحداث اليومية والأنباء السياسية في « حوادث شتى » وفقدان التوازن في « ترويسة » الجريدة ، والاضطراب في ذكر وكلائها كل هذا يدل على أن المحرر كان يعاني مصاعب جمة وكثيرة شوشت عليه صفاء الذهن فبدت الجريدة في هذا الضعف .
فما هي هذه المصاعب؟

كانت هذه المصاعب تتوالى في كل فترة ، بوجه الشدياق ، وبشكل لا يدركه إلا من عانى العمل في الصحافة الناشئة وفي تأسيس جريدة أو مجلة . ومن ذلك مثلاً ندرة العمال المدربين على هذه الصنعة . فهو لم يستطيع أن يجد إلا عاملاً واحداً ضعيف الدراية فتعاقد معه . وعامل واحد بالنسبة الى حجم الجريدة ، يكاد لا يكفي لصف احرفها في أسبوع ، إلا بصعوبة . ويأتي بعد هذا هموم التحرير وجمع الأخبار وكتابتها وكتابة المقالات والتعليقات وهي أمور قد لا تدرك صعوبتها في قياس اليوم . فالمواصلات صعبة وهذا شيء مجهد في مدينة كبرى كاستنبول ، ووسائل الاتصال ، كالهاتف مثلاً لم تكن معروفة بعد . فكان على صاحب الجوائب أن يقوم بالجولات بين دوائر الدولة المختلفة ، كما كان عليه أن يجد الوسيلة للأتصال بكبار رجال السلطنة

للاطلاع على انباء الدولة والأحوال الطارئة في الداخل والأقاليم ومواقف « الدولة العلية » في سياستها الخارجية والدولية . فإذا ما تم ذلك كان عليه أن ينسخ كل ما يجده في الدوائر الرسمية من فرمانات وأوامر سنية وقوانين جديدة وانعامات وقرارات وبيانات ثم يعود الى مطبعته وفي جعبته الصحف الأجنبية . فيكتب حصيلته ، ثم يترجم حاجته من الأخبار الخارجية والأنباء العالمية وطرائف الأحداث . وبعد ذلك ينصرف إلى تعليقاته ، « وجمله » الأدبية والسياسية .

ثم يسلم ما يكتبه ، إلى العامل لصفها .

ويبدو أن هذا العامل كان غير عربي ولا يعرف من قراءه الخطوط إلا الخط النسخي المشابه لاحرف الطبع ولذلك كان على الشدياق إلا يسلمه المقالات إلا بهذا الخط . فإذا جاءته رسالة من الأقاليم أو مقال ادبي أو قصيدة مكتوبة على غير هذا الشكل توجب على الشدياق إعادة كتابتها بالخط الذي لا يعرف العامل الفذّ قراءة سواه . وتوفيراً للوقت نشرت الجوائب إعلاناً في صدر الجريدة قالت فيه : « المرجو ممن يروم نشر خبر في الجوائب أن يكتب بالخط النسخي لان من يصف حروف الجوائب لا يدري غير حروف الطبع فإذا وردت الينا رسالة بحروف لا تشاكلها يتعين علينا أن ننسخها والوقت لا يطاوعنا على ذلك فليكن معلوماً»(٥) ونشر الاعلان على مدى أشهر .

هذا بالنسبة إلى تحرير الجريدة وصف أحرفها وتوضيبها أما بالنسبة إلى الطبع والعمل في الإدارة فإن المطبعة السلطانية لم تألف اصدار الصحف الدورية فهي منصرفة إلى طباعة الكتب ومستلزمات الدوائر الحكومية . ويشترط في العامل الذي يقوم بهذا العمل أن يتصف بالدقة والروية والتؤدة . بينما العمل في الصحف الدورية يتطلب سرعة البديهة والحركة وقراءة مختلف الخطوط مع التسامح ببعض الهنات احياناً .

لهذه الأسباب كان إصدار جريدة دورية في المطبعة السلطانية عملاً شاقاً . أما الآلة الطابعة فكانت تدار باليد فكانت سرعتها بمعدل عدد واحد إلى ثلاثة أعداد في الدقيقة الواحدة تقريباً . وهذه السرعة مرتبطة بطبيعة الحال بنشاط العامل عند بدء العمل وبتعبه في الفترات التالية .

ثم يأتي امر طيّ الجريدة وتوضيبها وشراء الطوابع ولصقها على اللفافات وكتابة عناوين من سترسل إليهم وإرسال الأعداد الى البريد وشركات السفر الخ . . .

وهذه الأمور كلها ، كان على الشدياق أن يدرب عاملاً خاصاً بها ويشرف عليه .

فإذا ما تمت هذه الأمور كان على الشدياق أن ينصرف إلى التفكير فيمن يرسل إليه الجريدة ويراسل من يتوسم فيهم الأقبال على الجوائب من معارفه وأصدقائه في اسطنبول ومصر وتونس وسوريا وجبل لبنان والعراق وغيرها من البلدان . فضلاً عن إيجاد وكلاء في المدن والأقاليم .

جابت الجوائب الآفاق . وكان صاحبها يحمل كل عدد من أعدادها اقصى جهده ، ثم يلبث ويترقب قول الناس وأهل الرأي في الجريدة . . . أتراها تعجب من ترسل إليهم فيثابرون على قراءتها ؟ ايكتب لهذا المشروع البقاء والدوام ؟

لم يكن من الميسور أن تصله الأصداء بالسرعة التي كان يرجوها ، فكان يراوده التشاؤم ، وينشر في آخر أحد الأعداد :

تجوب جوائبي الدنيا ولكن ... ترود ولم يرد عنها جواب
فهل خفا حنين عائقاها ... وإلا صار مغنماً الأياب

وتساءل مرة في أحد الأعداد :

لقد طفت في الدنيا على غير طائل ... فلما بدا عجزي أنبت جوائبي
فيا ليت شعري والنوائب جمة ... ايخفق كل من منيب ونائب؟

كان من المقدر أن تكسد الجوائب في صدر حياتها عند الجمهور وأن تصادفها المصاعب ، ذلك أن الناس لم يلتفتوا إلى ذلك الشيء الجديد الذي أتى به الشدياق واعتبره مصدر ضياء لهم ، فالصحافة اختراع جديد وقد يكون ترفا كمالياً لا ضرورة له ، فلم يعنوا بالتواصل معه ، فكان على الجوائب إذاً أن تدأب وأن تنتظر إلى ان تنشيء جيلاً من القراء يستهويهم حب المطالعة والاستطلاع ويرتبطون بها ويتخذونها مصدراً للمعرفة والثقافة ومرجعاً لأنباء العالم وتمدنه .

ولكن إلى أن يأتي ذلك اليوم أصيبت آمال الشدياق بالتقلص ورانت فكرة التشاؤم فكسدت الجوائب فحزن وتأسى وبدا هذا الحزن وهذا التأسي في قصيدة قال فيها :

إلى الله أشكو من كساد الجوائب ... ومن شانيء شأناً لها ومشاغب
وما الذنب لي أن أفدت ولم أفد ... وما الذأم بي إني اسغت مشاربي
وأبديت منها كل ما راق للنهى ... وأعجب من راقته ذكرى العجائب

فأبصر منهـا العمي طرف رغـائب واسمـع منها الصم فرط غرائب
ولكنهـا الأيـام تلوي مقـاصـدي وتـعـكس آمـالي بهـا ومـآربي
ولـو أن قـومي انصفـوني لنـوهـوا لحسن وإحسـان لهـا في المخـاطب
أتيت بشيء لم يـرَ النـاس مثله فَبَدّع لما لاح بِـدعُ المطالب(٦)

ولم تكن شكـواه من الكساد نفثـات متشـائم وتنقضي بـل أن الكسـاد كـان شيئاً واقعاً ، وها هو الآن في سبيل إيقاف الجريدة عن الصدور .

أقـول وفي فؤادي النـار تـزْكـو ودمعي سـاجم فـوقَ التـرائب
كـذا هي عـادة الـدنيـا عـلى من يجـانب سعيـه الجـد المجـانب
أقلت ذي الجـوائب قَـدْرَ حمـل الجنـين واسقـطتهـا في المتـارب

وهكذا وبعد أن حمَّل الشدياق جوائبـه كل مـا استطاع وسهـر في تحريـرها الليـالي الطوال ، فشل مشروعه وأعرض قومه عن هذا المشعل المنير فقال :

عجبتُ لنـورٍ اطفـأتـه مشـارق عـلى أنـه قـد ازهـرتـه المغـارب
ايعرض عنها العرب وهي تـؤمهم وفيهـا فـريق العجم اجمـع راغب
وقد كنت أرجو أن في الشرق نورها لمن شـاقـه علم العـوالم ثـاقب

ثم يقول :

بـكيـت ولـيس يجـديـني بـكـاء وأرخت انقضى درس الجوائب (١٢٧٨)

وبعبـارة اخرى اوقف الجـوائب ، وكان ذلـك بعد ظهـورها بنحـو تسعة أشهـر ، فكان العدد ٣٦ آخر عدد صدر منها في عهدها الأول .

ولا يغيب عنا أن نلاحظ أن توقف الجوائب عن الصدور كان بعـد خروج سـامي باشا من وزرارة المعارف . ولعل راتبه كرئيس للمصححين في المطبعة السلطانية كـان قد حجب عنه أيضاً بعد أن استأثرت الجريدة بوقته كله .

في هذه المحنة التي نزلت بالشدياق تظهر جوانب أخرى للموضـوع . فنرى :

١ـ إن الجريدة إنما انشئت بمال صاحبها وأنه كان ينفق عليها طوال تسعـة أشهر ، لكنه بعد أن كسدت عجز عن المثابرة .

٢ـ وأمر آخر ، هـو أن الشديـاق لم يذكـر تلميحاً ولا تصـريحاً أنـه أنشأ الجـوائب

بطلب من أحد .. وفي قصائده في مدح السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز أو أي رجل من رجال دولتهما لم يلمح إلى شيء من هذا . بخلاف ما جاء صراحة عن الرائد التونسي في مدائحه لرجال تونس ورسالة الأميوني وبخلاف ما جاء تلميحاً في كتاب الساق عن الوقائع المصرية .

أوقف الشدياق الجوائب . وكان من طبائع هذا الرجل الطموح إلا يستسلم ، وفكر في وسيلة تخرجه من محنته فلم يجد الا باب الدولة ليطرقه ، فسعى إلى من أوصل قضيته إلى الصدر الأعظم فؤاد باشا .

كان فؤاد باشا يعرف العربية معرفة جيدة ، لا بل من المبرزين فيها وكان من أدهى رجال الدولة العثمانية وقد اشتهر امره عندما كان وزيراً للخارجية وعندما أوفده الباب العالي للتحقيق في الأحداث والفتن التي وقعت في جبل لبنان وفي دمشق عام ١٨٦٠ .

فكان من السهل عليه أن يدرك بسرعة قضية هذا اللبناني الذي يصدر صحيفة عربية في عاصمة الدولة . لا سيما بعد أن نشأت في فرنسا وفي غيرها صحف عربية ، تطعن بالدولة طعناً شديداً ، على رأسها برجيس باريس . فرأى أن وجود هذه الجريدة في العاصمة ضرورة بل أن فوائد هذا الوجود لا تحصى ، لذلك ابدى رغبته وإرادته في سد عجزها وإعادتها إلى الصدور فعادت الجوائب . ونشر صاحبها في صدر صفحتها الأولى قصيدة في مدح فؤاد باشا قال فيها :

فلولاه لجَابَ اليأس بيني ... وبين جوائبي من كل جانب
ولولاه لما سادت يراع ... تدرّ البلاغة عود حاطب
هو الآسي الذي ما كان داء ... ليعضله من الخطط النوائب
وهل محيي سوادَ الشام يعي ... بإحيائي بتسويد الجوائب

ولم يخف الشدياق بادرة الدولة في مساعدته ، فبالإضافة إلى قصيدة المدح هذه نشر في صدر الجوائب تفصيل هذه المساعدة فقال :

« صدرت الإرادة السنية بأن يكون مصروف الجوائب من الآن فصاعداً من طرف نظارة المالية ويكون طبعها في التقويمخانة العامرة (أي المطبعة السلطانية) . فيجب علينا والحالة هذه أن نخلص الدعاء لمولانا وسلطاننا المعظم الخ . . . »(٧) .



فؤاد باشا

وقد بنيت بادرة الدولة على أساس اتفاق يقول أنه « يكون مصروف وطبع الجريدة ، وهو ثمانمئة قرش في الشهر من طرف الميري ، منها ستمئة قرش أجرة مرتبين والباقي مصروف الطبع » . وكان للميري لقاء هذه المساعدة المحدودة « أن يأخذ ثلاثمئة نسخة لترسل إلى حلب والشام وبغداد واليمن وطرابلس الغرب وغيرها » .

في الكلام الصريح هذا تتأكد لدينا عدة أمور ، منها ما أتينا على ذكره ، ولا بأس من تكراره .

١ـ صدرت الجوائب بإدارة صاحبها وعلى نفقته الخاصة واستمر صدورها على هذا النحو قرابة تسعة أشهر .

٢ـ عندما عجز عن الاستمرار في الانفاق عليها قدمت له الدولة وبناء على طلبه ، نفقات الصف والطبع فقط دون الالتفات إلى نفقات الإدارة والمحرر ، فكان عليه أن يتداركها من اشتراكات المشتركين وتحصيلها صعب.. وقد كانت الاعلانات شبه مفقودة .

٣ـ في مقابل المبلغ الذي كانت تدفعه الدولة كانت تأخذ كمية محددة من الأعداد لترسلها إلى بعض المدن والأقاليم .

في زعمنا أن الاتفاق هذا اتصف بالنظافة ، فلا الدولة اتخذت موقف الراشي فأغدقت المال دون مقابل ، ولا صاحب الجريدة سلك سبيل الاسفاف فباع النفس والقلم كما سنرى في مواقف الجريدة في بعض المناسبات .

بعد أن عادت الجوائب الى الصدور وبدت على هذا المشروع سيماء الديمومة ترك سليم الشدياق وظيفته في تونس وانضم إلى والده وأخذ يعاونه في أمور الصحيفة الادارية فخفت الأعباء عن كاهل الوالد ولكن إلى حين ، فقد رجع سليم إلى تونس وأصبح مستشاراً في وزارة الخارجية التونسية فانفرد الشدياق بتحمل الاعباء كلها ، إنما كانت الأحوال الادارية قد انتظمت الى حد ما ، انتظاماً قد يختل لأي سبب .

II

عهد الاستقرار وبروز السمات الصحفية
ـ تأسيس « مطبعة الجوائب ».

عندما عادت الجوائب إلى الصدور عادت بمظهر أفضل وبدا هذا بوضوح ، فقد ظهرت الجريدة بترتيب أفضل وزال الخلل في ترويستها وجاء في تعليمات إدارة الجريدة ما يفيد انها أصبحت أحسن ترتيباً وتنظيماً من ذي قبل .

وفي « الحوادث الداخلية » زالت أو اختصرت اخبار العزل والتنصيب والترقية لتحل محلها « مقالة افتتاحية » فبرزت في هذه المقالة شخصية الجريدة في علامات واضحة ، وبقيت الأخبار الخارجية على شمولها وإسهابها ، ولكن أسلوبها أصبح اكثر سلامة . وبالاجمال فقد كان هذا العدد متناسق الأخراج متيناً في الموضوعات ، سهلاً في الأسلوب ، مما دل على أن المحرر كان مطمئن النفس ، فبدا مرتاحاً .

وأخذت الجوائب في سنواتها التالية تستكمل سيماءها الصحفية رويداً رويداً فزادت الموضوعات تنوعاً وبدأت تظهر بين مواد الجريدة الرسائل التي ترد من الأقاليم .

واعتني بترتيب الصفحات ووضع اسم الجوائب ضمن رسم جميل بشكل وسام يعلوه شعار الدولة اي الهلال والنجمة . وتحسن بالإجمال شكل الجريدة .

أما الدقة في إصدارها بمواعيدها فظلت شغل المحرر الشاغل . وقد أصبح للجوائب موزع خاص بها يقوم بتوزيعها في اسطنبول وبارسالها إلى البريد وشركات السفر كالشركة الخديوية والنمساوية والمساجري ماريتيم . كما أصبح لها وكلاء في

بورسعيد والاسماعيلية ودمياط والسويس ودمشق وصيدا وعكا وحيفا والقدس وطرابلس الشام واللاذقية ومرسين وطرطوس وحلب وبغداد ومكة المكرمة وجدة وبومباي وعدن ومالطة وعنابة ولوندرة وباريس ومرسيليا . وفي كثير من الأحيان كان وكلاؤ ها من وجهاء القوم كظاهر الشدياق ثم يوسف الشدياق في جبل لبنان ، والتاجر حبيب الغرزوزي في الاسكندرية ، والتاجر بطرس الدباس في بيروت ، ثم اسكندر طراد ، وفي تونس سليم الشدياق ، وفي اللاذقية وكيل قنصل الانكليز وفي جدة وكيل قنصل فرنسا وفي البصرة قاسم باشا الزهير .

وعندما افتتح مجلس المبعوثان اعلنت الجوائب أنها عينت محرراً متفرغاً يتولى نقل أخبار المجلس . وطلبت من النواب العرب أن يرسلوا خطبهم وكلماتهم إلى قلم التحرير[٨] فأصبح قراء الجوائب يطلعون على مناقشات المجلس مع تعليقات الجوائب على المناقشات ، على نحو ما يحدث في الصحافة الغربية . وهذا ما لم تسبقها اليه أية صحيفة عربية في تلك الأيام .

ولكن بالرغم من هذا المستوى ظلت مداخيل الجوائب دون الكفاية مما جعل الخديوي اسماعيل ، في بعض الظروف يسدد عجزها[٩] ومع ذلك لم تكن هذه المنح وأمثالها لتجنب الشدياق حالة الاعسار ، فقال لأهله ذات يوم ، في رسالة مطولة يشكو فيها ضائقته المالية :

« فأنتم تعلمون أني لا أخذ من الجبل أي مبلغ ، وتونس لا أنال شيئاً من ثمنها ، وباقي الوكلاء فمنهم من يماطلني ومنهم من يرسل إلي ربع ما عليه أو نصفه ، وقد خسرت مع وكيلي في الجزائر نحو سبعمئة فرنك ، من أجل ذلك لم يكن عندي للجوائب وفر ولا حساب فمن اعطى اعطى ومن لم يعط فإنه في أمن من أن أقيم عليه الدعوى . ولي في الاستانة نحو خمسين نفساً من المعارف والأكابر وكلهم يأخذون الجوائب ولا يعطوني شيئاً »[١٠].

ولم يكن باب الاعلانات ذا شأن ولا هو رائج في الجوائب ، فإذا ما نشرت منها شيئاً فإنما يكون من النوع الذي يهم أهل الأدب ، كالاعلان عن طبع ديوان البحتري مثلاً ، أو سر الليال في القلب والأبدال ، وأعلان آخر عن الكتب التي اخرجتها مطبعة بولاق الخ . . .

وكانت الجوائب تنبه قراءها إلى أنه « لا أجرة على أدراج الأخبار المفيدة للناس » .

ولكن إذا ما شكت الجريدة من بعض الضعف في إدارتها فقد كان لها من مستوى تحريرها والموضوعات التي تعالجها وقوة شخصية الشدياق ما جعلها تفرض نفسها على أنها أفضل جريدة عربية وأرفعها تحريراً وأقواها صدى وأرقاها ثقافة وأوسعها علماً ، ولهذه الأسباب أصبحت أشهر صحيفة عربية على الاطلاق وأقواها نفوذاً . فازدهرت بعد سنوات وأصبح لها مشتركون وقراء في أقصى البلدان والنواحي في العالم الاسلامي وخارجه ، ولها كذلك وكالات للأنباء تزودها بالأخبار الخارجية ، وفيها مقالات مترجمة عن أشهر الصحف الاوروبية ولها كتابات أدبية وعلمية وتعليقات على الأنباء من أفضل ما كتب في هذا الباب . ولها كذلك أنباء دورية كالميزانيات والأسعار إلى غير ذلك من المواد التي تجعل الجريدة مستوفية الأوصاف الصحفية كأحسن ما تكون هذه الأوصاف .

من المتعذر معرفة الكمية التي كانت تطبع منها الجوائب من كل عدد ولكن الشبكة الواسعة التي كانت لوكلائها وتعدد مصادر الرسائل التي كانت تتلقاها وصلات صاحبها بكثير من أنحاء العالم الاسلامي وقرائن أخرى كثيرة ، توحي بأن الكمية التي كانت تطبع من العدد الواحد من الجوائب كانت أكثر من أية من الجرائد العربية الصادرة في زمانها .

ظلت الجوائب تطبع في المطبعة السلطانية نحو تسع سنوات . إلا إنها بعد أن إتسعت دائرة إنتشارها ضاقت المطبعة بها .

وكان الشدياق قد شكا من المطبعة السلطانية وإدارتها فهي غير منتظمة حق الانتظام وليس فيها من أشكال الحروف سوى شكل واحد وهو الذي تطبع به الجوائب ، فهو يستعمل للمتون والشروح والحواشي وهذا قصور ظاهر « فصلاً عن أشياء أخرى يدريها من تبصر ودرى وخبر » .

فاتجه إلى الانفصال عن المطبعة السلطانية وإنشاء دار للطباعة خاصة به ، وليس لطبع الجريدة فقط ، بل دار « تطبع فيها الكتب والمجلات المفيدة للرجال والنساء والأولاد ولكل صنف من أصناف الناس ، فينجم عن ذلك نشر المعرفة بينهم فيعرفون ما لهم وما عليهم » فالمطبعة تتقدم على كل شيء عند صاحب الجوائب وحتى على الجريدة فهي الواسطة لنشر المدنية الحديثة « والحاق الدول الشرقية بالدول الغربية » .

ولكن مثل هذا المشروع يقتضي منه الانفاق غير العادي . فهل تكفي مداخيل الجريدة لتحقيق هذا الحلم ؟ ربما ، لو أن الادارة كانت على مستوى جيد من الضبط

والانتظام . ولكن في هذا الضعف الاداري ليس من المأمول أن يتجمع في الصندوق المبلغ المطلوب حتى ولا القريب منه .

ماذا سيحدث إذن ؟

في سنة ١٨٦٩ نشأت أزمة شديدة التعقيد بين الاستانة والخديوي اسماعيل أسبابها عديدة ولكن ظاهرها كان البذخ الذي رافق حفلات قناة السويس وافتتاحها فأصدر السلطان فرمان في ٢٤ شعبان ١٢٨٦ (٢٩ تشرين الثاني ١٨٦٩) قيد به حقوق الخديوي في عقد القروض دون إذنه(١١) فكان هذا الفرمان ضربة قوية أصابت الخديوي اسماعيل في كبريائه .

فأصبح من المتعذر على الجوائب ، وهي من المناصرين للخديوي أن تواصل تأييدها له وهي تطبع في مطبعة الدولة .

يضاف إلى هذا أن صبحي بك ناظر المطبعة السلطانية الذي حل محل أبيه في وزارة المعارف والذي يرعى الشدياق بعنايته قد أعفى من هذين المنصبين وعين في مجلس شوري الدولة .

وهكذا فإنه من المحتمل أن تكون مصلحة الشدياق في التوسع قد إإتلفت ومصلحة الخديوي في مناصرة الجريدة له، إإتلفت المصلحتان في خروج الجوائب من المطبعة السلطانية والاستقلال عنها . وبذلك يصح القول أن الخديوي اسماعيل ساهم في تأسيس مطبعة الجوائب الخاصة كما جاء في سر الليال .

ولا نسقط من الحساب أيضاً العشرة آلاف فرنك التي أرسلها الوزير التونسي مصطفى الخزنة دار إلى الشدياق كمنحة لطبع الجزء الثاني من كتاب سر الليال(١٢) وأغلب الظن ان المنحة أضيفت إلى النفقات التأسيسية . فهي قد وصلت إلى صاحبها عند بدء الاستعداد للانتقال إلى المطبعة الجديدة على أن الجزء الثاني من الكتاب المذكور لم ير النور .

أما الإدارة فقد أمكن تدبير أمرها بعودة إبنه سليم من تونس نهائياً ليتفرغ لمساعدة والده . ولم يكن سليم عوناً له في الناحية الادارية فحسب ، بل كان الحال في الجوائب ، يتبدل بوجه عام عندما ينضم إبنه إليه . فقد كان سليم شاباً عرف بدماثة خلقه ، أحب مهنة الصحافة وأكب عليها فأخذ ينمي علاقته بالناس ، لا سيما أولئك

الذين يتصفون ، بحكم أعمالهم ومناصبهم ، بأنهم مصادر الأخبار . فكانت الجوائب تستكمل صفتها الصحفية باعطاء الأخبار المحلية أهمية خاصة .

إلا أن سليم لم يكن يجيد الكتابة ، في ما يبدو ، مما يدعو إلى الاعتقاد أن الشدياق كان يصوغ الأخبار التي يأتي بها إبنه أو أن هذا كان يكتبها ويصححها أبوه أو أحد الأدباء من مساعدي رئيس التحرير كالشيخ رسول النجاري(١٣) .

وهذا الكلام قد ينطبق بوجه خاص ، على المقالات التي ظهرت بامضاء سليم عندما إحتدم الجدل بين الشدياق واليازجي .

كان آخر عدد طبع في المطبعة السلطانية هو العدد ٤٢٤ .

نقلت الجوائب أول الأمر إلى « قرب محلة الضبطية » وصدر العدد ٤٢٥ ، وتبدلت حلتها تبدلاً بسيطاً فأصبح لبعض الموضوعات عناوين وكانت إلى ذلك الوقت خلوا منها . ثم عادت وتنقلت من مكان إلى آخر بضع مرات إلى أن إستقرت نهائياً في « الرقم ٨ أمام الباب العالي » . وعلى « بعد خمسين ذراعاً » من الباب العالي . وفي هذه الساحة إحتشدت معظم صحف الاستانة وأكثر مطابعها . ولا تزال بعض هذه المطابع مستمرة في مكانها في هذا الميدان حتى الآن(١٤).

في هذا المقر الأخير نشطت مطبعة الجوائب في عملها الرائد الذي إشتهرت به في طباعة الكتب وتحقيق المخطوطات كما نشطت إدارة الجريدة في ترسيخ قدمها فأصبحت الجريدة تباع بواسطة باعة الصحف في مكتبات اسطنبول وبعض الدكاكين ، وإشتركت في وكالات الأخبار رويتر وهافاس وبوله ، ثم أصبحت تصدر مرتين في الأسبوع .

وزاد عدد وكلاء الجريدة زيادة كبيرة حتى أن نشر أسمائهم وبلدانهم كانت تملأ منها نحو ثلثي صفحة وكانت تصل إلى أقصى الاقاليم العثمانية وغيرها وصار لها وكلاء في مصوع وسواكن ومدراس وكلكتا وبانكوك وبينانغ وسنغفورة ، وحتى جزر الكومور أو القمر(١٥).

ونشط باب الاعلانات فكانت تنشر لشركات السفر وكذلك إعلانات متعددة وأهمها ما كانت تنشره الحكومة المصرية كالميزانية العامة وميزانية إدارة الديون العمومية .

ولما قامت المجادلة المشهورة بين الشدياق وإبراهيم اليازجي زادت مادة الجوائب فأصبحت تصدر في بعض أعدادها بثمان صفحات وربما في هذه المناسبة ولأمر ما أبدل

سليم إسمه فبدأت تظهر مقالات مذيلة باسم سليم فارس بدلاً من سليم الشدياق . وكانت الجريدة تحتجب في بعض الأعياد المسيحية لأن عمالها كانوا من العرب المسيحيين .

ولما كان من دأب الجريدة تنوير قرائها ، فقد طبعت سنة ١٨٧٧ خارطة للأماكن التي تدور فيها الحرب بين الدولة وروسيا لكي يتابع القراء أخبار المعارك على الخريطة . وأصدرت المطبعة ، من ثم ، تقويماً ، قد يكون أول تقويم يطبع بالعربية ، ووزعته على المشتركين مجاناً .

وبعد بضع سنوات من إستقرار الجوائب في مكانها الجديد ، جلبت لها مطابع وآلات جديدة ثم زادت في أحرفها أشكالاً صغيرة وكبيرة ثم أنشأت لنفسها مسبكاً خاصاً تصب فيه الحروف من مختلف القياسات .



ترويسة الجوائب مع شعار الدولة في حلتها النهائية

III

تحرير الجريدة

الموضوعات ـ كتابة الخبر المحلي والتحقيق الصحفي ـ كتابة الأخبار الخارجية ـ نشأة « المقالة » في الأدب العربي ـ المقال المطول والتعليق : على سياسة الدولة العثمانية ، على السياسة الخارجية .

كان تبويب الموضوعات التي تنشر في الجوائب يتبع ترتيباً معيناً ، فكانت تنشر :

١ ـ أنباء الدولة ، وكل ما يتعلق بالسلطان وما يصدر عنه من إرادات وإنعامات وتعيينات وترقيات .

٢ ـ أخبار الباب العالي ، وهي بمجملها تصور الشكل البارز لسياسة الدولة .

٣ ـ الموضوعات والأنباء العامة الخارجية ، وبنوع خاص ، السياسية والعسكرية ، وقد عاصرت الجوائب حربين تاريخيتين ، حرب ١٨٧٠ ، بين فرنسا وبروسيا ، وحرب سنة ١٨٧٧ بين الدولة العثمانية وروسيا .

٤ ـ مقالات متنوعة في العلم والتاريخ والجغرافيا وأنباء الاختراعات والاكتشافات والاحصاءات المختلفة وبالاجمال كل ما له علاقة بالمعلومات العامة .

٥ ـ ميزانية الدولة العثمانية وكذلك ميزانية مصر وتونس وأحوال الديون العامة لهذه الدول الثلاث وميزان التصدير والاستيراد .

٦ ـ المعاهدات السياسية ودساتير بعض الدول والمراسلات السياسية والمذكرات التي يرى الشدياق في نشرها فائدة تثقيفية لقراء جريدته .

٧ ـ الأبحاث الأدبية وبنوع خاص اللغوية وما يرد للجريدة من قصائد .

٨ ـ كان هناك بابان دأبت الجوائب على نشرهما وهما أنباء مصر وأغلبها منقول عن الوقائع المصرية وأنباء تونس وأغلبها منقول عن الرائد التونسي .

٩ ـ ما كان يرد إلى محرر الجوائب من رسائل إخبارية .

١٠ ـ مقالة تحليلية أو اثنتين في السياسة الخارجية والداخلية ، أو في الاجتماع أو غير ذلك من الموضوعات .

أما الأنباء المحلية ، أي أخبار العاصمة التي يتشوق إلى معرفتها أبناء الأقاليم ، وكانت الاستانة بالنسبة لهم هي مصدر الأخبار ، فقد كانت قليلة في سنوات الجوائب الأولى ، ولذلك قال محرر الجريدة لقرائه : « إننا نعلم حق العلم ان سادتنا واخوتنا في البلاد العربية أبداً يتشوقون إلى سماع حوادث الاستانة العلية لكونها مقر الخلافة السنية إلا أنه يهمنا أن نقول أن معظم ما يقع من الحوادث هنا هو النصب والعزل وتوجيه الرتب والنياشين ، وغالباً ما يكون ذلك عائداً إلى أشخاص غير مشهورين فلا يكون فائدة من ذكره » . هذا تعلل، أما الواقع فهو أن الجريدة كانت تفتقر في أول أيامها إلى المخبر أو المخبرين المحليين ، فإذا وقع حادث عام ، كانت تنشره باقتضاب بسبب هذا العجز .

فذلك الحريق الهائل ، مثلاً ، الذي وقع في اسطنبول في ١٤ ربيع الثاني ١٢٨٢ (١٨٦٦) والتهم عشرة آلاف بيت ، كانت الامانة الصحفية فيه تقتضي الاسهاب في إيراد تفاصيله ليقف القارىء على حقيقة الحادث .

كيف وقع ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ وكيف انتهى ؟ وما هي ذيوله ؟ الخ . . . ولكن مثل هذا العمل الوافي لا يقوم به عادة إلا عدة مخبرين أو مخبر متفرغ على الأقل ، وهذا ما كانت تفتقر إليه الجوائب ، فنشرت الخبر مقتضباً على الشكل الآتي :

في نحو الساعة السابعة أنذر المنادي بوقوع النار في الاستانة ، فقمنا وإذا بجميع الديار مضيئة فيا له من رعب وإندهاش ، فانا ظننا أن جميع المنازل التي إنعكس عليها ضوء النار قد إحترقت فخرجنا نسأل عن مبعثها فقيل إنها إنبعثت من « ديوان محلة

سي » أسفل « الباب العالي » وقيل غير ذلك ، ثم إمتدت إلى شمال الباب العالي المشار إليه ، فأحرقت القصور والمنازل التي كانت فوقه من جملتها دار سفارة إيران ومطبعة جريدة الحوادث ثم تشعبت فسرت شعبة منها إلى جهة جامع « نور عثماني » فأحرقت كل ما مرت به إلا الجامع ، وسرت شعبة أخرى إلى جهة « ديوان بولي » فدمرت كل ما كان فيه من ديار ودكاكين إلا تربة مولانا المرحوم السلطان محمود الغازي ، فإنها مبنية من الرخام ، ثم طفقت تمتد وتشتد ، وشدة الرياح تزيدها عنفاً وقوة ، حتى دمرت جميع الديار إلى أن وصلت إلى « آت ميدان » في الساعة السابعة . واستمر الحريق ثلاث عشرة ساعة وبذل الصدر الأعظم والوزراء غاية الجهد في تلافي هذه الغائلة وبهم اقتدت جماعة الاطفائية والجنود إلخ . . . » .

ويقف محرر الجوائب بالخبر عند هذا الحد لينتقل إلى إنتقاده عادة البناء من الخشب في اسطنبول ويتابع الكلام في بضعة أسطر في وجوب توسيع الطرق وتجديد آلات الاطفاء إلخ. . .(١٦) .

فإذا ما نظرنا إلى هذا الخبر ملياً تبين لنا الاقتضاب والتقصير في إيفاء هذا الحادث حقه وفي إعطاء التفاصيل أهميتها ، فمثل هذه الكارثة التي أربت خسائرها على عشرة آلاف بيت لا يكون وصفها مستكملاً إلا إذا ذكرت تفاصيلها مما لا يستطيع القيام به إلا عدة مخبرين أو مخبر متفرغ على الأقل ، كما قلنا ، وهذا ما كان مفقوداً في الجوائب في مطلع حياتها كما كان متعذراً على رجل مثل الشدياق أن يقوم به نظراً لسنه ومقامه . فلم يذكر إلا ما رآه هو من مكانه . ولذلك جاء الخبر مقتضباً وختمه بالنقد والتوجيه . وبالاجمال فقد أفتقد هذا الخبر عنصر « الاثارة » وهو الشيء المفترض في مثل هذا الحادث .

وعلى العكس من ذلك ، عندما خُلع السلطان مراد ونصب مكانه السلطان عبد الحميد ، جاء الخبر مفصلاً مسهباً لا يدع زيادة لمستزيد . وسبب ذلك أنه كان من الميسور على الشدياق أن يتصل ببضعة أشخاص من أصدقائه من كبار القوم فيروون له أسرار خلع السلطان وتفاصيلها الدقيقة ، ولذلك جاء كما نرى الخبر مسهباً مشتملاً على عنصر الاثارة وهو الشيء المطلوب في الخبر الصحافي . قال المحرر : «إن خبر إنحراف مزاج مولانا السلطان مراد الخامس بعد جلوسه على سرير السلطنة السنية باسبوع واحد كان أمراً غير خفي ، فقد إعترى جنابه الكريم أمراض عصبية وكانت علاماتها تدل على أن مداواتها لا تجدي نفعاً ، وقد بلغ منه المرض حتى صار لا يميز الوكلاء والوزراء مع

أن المسائل الحاضرة أوجبت مشاهدة سفراء الدول له لتهنئته بالجلوس على سرير السلطنة السنية على ما جرت به العادة ، فاضطر جناب الصدر الأعظم والحالة هذه إلى أن يخبرهم بحقيقة حاله ، وقد رأينا منذ شهرين في التيمس أن ناظر الخارجية أفاد السفراء المشار إليهم أن الحال تقتضي خلع السلطان فينبغي أن المحررات التي في أيديهم خاصة به أن تكون خاصة بالسلطان عبد الحميد إلا أن جناب الصدر الأعظم لما كان مجبولاً على كرم الاخلاق وحلم الطباع رأى أن التأني في خلع السلطان أولى ، عسى أن المولى سبحانه وتعالى يلطف به ويعافيه ، وعند مذاكرته في المجلس الخصوصي في هذه المسألة وافقه البعض وخالفه الآخرون وكان في أثناء هذه المدة يجري المصالح سياسية كانت أو إدارية ، بصورة حملت جميع الناس على أن يعترفوا بما له من صواب الرأي وحسن التدبير ، فإنه في هذه الأشهر الثلاثة كانت جميع مصالح السلطنة تجري بتدبيره على أحسن الوجوه فلم يكد أحد يدري أن مزاج السلطان مراد منحرف ثم بعد ذلك جلب من ويانه الدكطور ليدزورف رئيس مستشفى ويانه وطلب منه أن يختبر حال مولانا السلطان ، فبعد أن لازمه أياماً وتأمل في حركاته وأحواله واستفسر عن كيفية معيشته في أيامه الماضية ، كتب تقريراً ذكر فيه أن مرضه هذا كان مقروناً بالخطر وقد بذل الجهد في معالجته وأوصاه باستنشاق نسيم البحر وغير ذلك كما مر في الجوائب الماضية ، إلا ان مرضه اشتد عليه حتى ظهرت منه علامات غريبة توجب الاسف حتى قيل إنه أراد أن يرمي نفسه من شبابيك السراية ، وكان كلما توجه في البحر أو في البر لازمه عدة من دائرته الخاصة لوقايته ، وفي خلال ذلك كان بعض الدول الأجنبية المحبة للدولة العلية يلح بنصب سلطان جديد ليتيسر للدولة إجراء الاصلاحات الجديدة التي وعدت بها ولأجراء مصالح السلطنة بحسبها ، فعرض على مولانا السلطان عبد الحميد كرسي السلطنة فأبى مراعاة لوداد أخيه فإنه يحبه حباً قلبياً وكان دائماً يرافقه ، فلما اشتد مرض أخيه كان لا بد من أن يتداركوا مصالح السلطنة فاستقر الرأي في المجلس الذي عقد في يوم الاربعاء الماضي الموافق ١٠ شعبان (٣٠ أغسطوس) على مبايعة أخيه مولانا السلطان عبد الحميد . وفي ذلك اليوم أرسل إلى والدة السلطان مراد خان بعض المخدَّرات وإمام الحضرة السلطانية ليبلغوها ما أستقر عليه رأي الوكلاء والوزراء لأجل تسليتها وتسليمها لما قدره الله تعالى ، فأرسلت إلى جناب الصدر الأعظم رقيماً تخبره فيه بإنها استصوبت ما استصوبوه . ثم في صباح اليوم الثاني أعني الخميس اجتمعت الوكلاء والوزراء وأعيان أرباب المناصب العلمية والعسكرية والملكية في سراية طوبقبو وتذاكروا في حال السلطان مراد واستفتوا حضرة سماحتلو دولتلو سيدنا خير الله أفندي شيخ

الاسلام فأفتى في وجوب مبايعة سيدنا السلطان عبد الحميد خان الثاني ابن المرحوم السلطان عبد المجيد خان بنص الشرع الشريف»(١٧) .

. . ثم أردف ، محرر الجريدة ، بهذا الخبر وصف الاحتفال بتقليد السلطان الجديد السيف ، فاتصف هذا الخبر بالتحقيق الصحفي الكامل وتميز عن خبر الحريق بالاسهاب ، فبالرغم مما في كارثة الحريق من مفاجآت واحداث رهيبة ، إلا أن المحرر لم يستطع إثارة فضول القارىء بينما جاء خبر خلع السلطان على النقيض من ذلك ، فوضع المشاعر الانسانية بين السطور ووصف رجال الدولة وحرجهم ثم حزمهم وذكر التقاليد التي لا تبرز إلا في الحالات الاستثنائية كما ربط إحساس القارىء وشده إلى عاطفة الأم المصابة فاستطاع أن يثير إهتمام القارىء وفضوله إلى آخر الخبر .

هكذا كانت الأخبار المحلية المتعلقة بالعاصمة يعتورها الاسهاب والبراعة الصحفية أحياناً والاقتضاب والاخلال أحياناً أخرى والأمر متعلق بظروف المحرر . وكان الشدياق عندما يفتقد الخبر المهم ويندر الخبر المحلي يلجأ إلى التطويل في مادة الموضوعات التي لديه فتكثر الأخبار الخارجية ويطول تعليقه عليها ، فكانت المقالات تأخذ من بعضها بعضاً أسطراً وفقرات بحسب حجم هذه المقالة أو تلك . وإذا كانت الأخبار الخارجية غير ذات أهمية ، يلجأ إلى الموضوعات الأدبية أو اللغوية أو الاجتماعية ، وإذا ما فاضت الأخبار الداخلية كان ينتخب منها الأهم ثم ينشر الباقي في العدد التالي قائلاً : إن أدراج الأخبار ولو متأخرة فإنها لا تخلو من الافادة ، ولكنه كان يضرب صفحاً عن الأخبار التي تنشر في غير صحيفته .

أما الأخبار الخارجية فكان يستقيها في بدء عهد الجريدة ، من الصحف الأجنبية فقط ، فكان ينقل ويعرب عن التيمس والهرالد والمورننغ بوست والديبا والبل مل والكازيت والستاندرد والستار والصن والليفانت هرالد والميموريال والديلي نيوز وجرنال برلين وكوريه دوريان ولا فرانس والانديبندانس وغازت ديجيبت وجرنال بطر سبورغ الخ . . . والترجمة والنقل هما الوسيلة الفضلى في الجوائب إذ لم يكن نظام نقل الأخبار بواسطة البرقيات قد نشأ في عاصمة الدولة العثمانية . ولما نشأ هذا النظام وتطور أصبح هو المصدر الاساسي لأخبار الجريدة . وأنباء الحرب بين المانيا وفرنسا سنة ١٨٧٠ كان معظمها يأتيه بالبرقيات وقد كانت شركتا رويتر وهافاس في ذلك الوقت قد أنشأتا لهما فرعين في العاصمة العثمانية . وكان يستقي منهما ومن غيرهما الأخبار الخارجية . ولكنه

كثيراًما كان يشكك في صدق البرقيات وأمانتها ويلفت القارىء إلى موضع الخلل أو الشك .

قال ينتقد هذه الوكالات : « قد شكونا غير مرة من أخبار التلغراف لما فيها من التناقض والغموض والاقتضاب والركاكة والسخافة . ولا بد لنا هذه المرة أيضاً من إعادة الشكوى لأننا نرى الداء قد زاد فشوا وتأثيراً فكأن رويتر وشركاه بل كل من تصدى لتأدية الأخبار قد سكروا من غمرات الحرب فلا يكادون يفقهون حديثاً . وبينا نترقب ورود خبر منهم يكشف لنا عن حقيقة ما تقدم إذا بهم قد زادونا حيرة وارتباكاً » .

وقد وضع الشدياق لنفسه قاعدة في تمحيص الأخبار تدل على الامانة للقارىء والضمير في المهنة الصحفية فقال : « من مني بتسطير الأخبار في وقت المحنة والاكدار تعين عليه أن يكتب منها ما يريد وما لا يريد وما يستحسنه وما لا يستحسنه وما يصدقه وما لا يصدقه إلا انه يجب عليه أن ينبه إلى مواضع الخطأ منها تحذيراً للناس من الاسترسال إلى التصديق بالمحال . ولا تكاد ترى أحداً من كتاب الأخبار يفعل ذلك وإنما يلقون على الناس كل ما يصل إليهم منها . وإذا كتبوا في اليوم التالي ما يناقضها فلا يعنيهم أن ينبهوا عليه فصارت كتابة الأخبار في هذه الأيام وسيلة للتغرير والتضليل حتى استحيينا والله من متابعتهم وصار من معتقدنا أن عدم روايتها أولى » .

أما الابحاث اللغوية والمقالات الأدبية فيندر أن يصدر عدد واحد من الجوائب دون أن يشتمل على شيء منها ، ولو استطراداً . وسنأتي على ذكرها عند الكلام عن أدب الشدياق وأبحاثه اللغوية .

كانت كتابات الشدياق التي يودعها أفكاره ونظراته يسبكها في قالب أدبي معين وكان يسمي بعضها « بالجملة الادبية » وبعضها الآخر « بالجملة السياسية » .

« فالجملة الادبية » يكون موضوعها نقداً وتوجيهاً يضمنها اراءه الاجتماعية أو تعليقات على نبأ محلي هام ، أو موضوعاً نقدياً في وصف طبائع الناس وسلوكهم أو دعوة لاصلاح الحكم .

أما « الجملة السياسية » فقد كانت تعليقاً على نبأ خارجي هام بوجه عام وما يتعلق « بالدولة العلية » بوجه خاص .

وكانت هاتان الجملتان تصاغان في كثير من الاحيان في مباسطات بين المحرر

والقارىء ويودع فيها تأملاته وما يجول في خاطره ، فكان العنصر الشخصي بارزاً فيها . فيحدث القارىء حديثاً مرسلاً سهلاً يباسطه فيه مباسطة الرفيق أو الصديق دون أن يقف موقف المعلم المرشد ، وقد يربطه أحياناً بسخرية خفية أو تفكهة عابرة ، فيصبح الكلام قريباً إليه مستساغاً فكأن الكاتب يعبر فيه عما في وجدان القارىء وهواجسه فيتقبل الكلام بسهولة .

وبالإجمال فقد كانت هاتان الجملتان ، أو المقالتان تتصفان بالعرض الواضح والمناقشة المنطقية للوصول إلى الغرض والنتيجة ، كما كانت مادتها تدل على أطلاع واسع ومستمر على التيارات الفكرية والادبية والمذاهب الاجتماعية والعلم بالأحداث العالمية وتطوراتها . وتحت هاتين الجملتين اللتين كان يودع فيهما الشدياق آراءه ووجهة نظره وتعكسان أفكاره وتتضمنان حججه وتعبران عن وجدانه ، ولد في الأدب العربي ما يعرف « بالمقالة » أو « أدب المقالة » .

وبذلك يكون الشدياق أول من كتب في هذا الفن في العربية وهو رائده الاول في أدبنا العربي وكان يقول عن انشاء المقالة « إنها نهمة كنظم الشعر »[١٨] .

وننقل هنا مثالاً لهذا النوع من الكتابة . قال يصف رسالة الصحافة شاكياً إلى القارىء همومه كمحرر للجريدة رادّا على انتقاد بعض القراء لخلو الجوائب ، أحياناً ، من مقالات الصحف الاجنبية « لو شعر القراء بمافي تلك الصحف من الأقوال السخيفة والأمور المنكرة لما لامونا على الاختصار من الحوادث السياسية . إذ بلغنا أن بعض الناس يقولون ان الجوائب لا تشتمل على أخبار سياسية مهمة وإنما هي عبارة عن قصائد وابيات ، ومن شأن صحيفة الاخبار أن تكون مفيدة للناس بما يحدث في ممالك الارض بأسرها لا أن تكون مشتملة على قصائد وخطب . فنقول في الجواب : إن هذا المذهب مذهبنا فإنا نؤثر الحوادث السياسية على القصائد المدحية ولكن إذا لم تكن هذه الحوادث مستفادة من جرنالات اوربا دون مسمع أو أن نروي منها ما نعلمه أنه مختلق لأنا قد عاشرنا كتاب الاخبار مدة طويلة مكننا من معرفة مقاصدهم وأغراضهم فإذا كنا نعلم أن ما قالوه كذب ثم نقلناه ونشرناه للناس كنا كمن شاركهم في كذبهم وإذا استحسنا الكذب في الشعر فلعمري إنه لا يستحسن في الأخبار المقصود منها تنوير بصائر الناس . فالأولى إذاً عند عدم صحة الأخبار ، أن يعلل قراء الجرنالات بشيء من النظم والنثر بحيث يكون معجبا للقارىء . فإذا رأيت في الجوائب شعراً غير معجب فلا بد أن يكون لذلك أسباب ، اخصها أن يكون الممدوح من رجال الدولة العلية ذوي المكارم والمحامد

ويكون قد قبل ذلك المدح تكرماً منه وايناساً لمقدمة فلا يكون لنا محيص من قبوله مراعاة لخاطر الممدوح والمادح معاً. والثاني أن يكون المادح توسل إلينا بواسطة بعض الأصدقاء الاعزة لنشر كلامه في الجوائب » إلى أن يقول « والحاصل ان شحن الجوائب بالشعر المبتذل ليس من شأني وإنما يبعثني عليه الحياء ومراعاة المودة . لكن أرى الأولى أن أمتنع من الآن فصاعداً على نشر شيء منه إلا إذا كان على وجهه ، فقبوله على الرأس والعين لأني من المولعين بالنظم ولي إلى انشاده ارتياح وانبساط »[١٩] .

وذكر مرة جدلاً جرى بينه وبين صديق حول المقالة والسبب في كتابتها فقال له إنني « أطمع في أن كلامي لا بد أن يؤثر في الناس يوماً من الايام . ومن الواجب على كل أنسان أن يؤدي ما عنده من النصيحة على قدر ما يستطيع فاداؤ ها فرض » ثم يقول له : « لعمرك إني إذا كتبت شيئاً لا اسأل الناس عنه هل أعجبهم أو لا . ولعلي لو سألتهم أيضاً لم أطلع على الحقيقة »[٢٠] .

إلى جانب « المقالة » كان هناك المقالات المطولة في الأبحاث العلمية واللغوية والتعليقات السياسية والمعلومات الأولية وكان على الشدياق أن ينشيء، في بدء حياة الجريدة ، القارىء العربي المثقف من ذلك الجمهور العريض لينقل إليه ، من ثم ، الدعوة إلى التمدن والاصلاح . ولذلك كان يكتب في أول الامر في بديهيات المعارف كالجغرافيا والتاريخ والاختراعات وأنباء العلوم الحديثة وغيرها وهي في غالبيتها مترجمة .

ولكن أهم ما كانت تحفل به الجوائب ، بعد أن ترعرعت وتوسع انتشارها ، مقالان سياسيان مطولان لصاحب الجريدة الاول يتعلق بسياسة السلطنة الداخلية أو الدولية والمقال الثاني يأتي في الغالب كتعليق على الانباء العالمية وتحليل للمواقف السياسية الدولية أو الاوضاع العسكرية عندما تنشب الحروب .

وكان له منهج معين في كتابة المقال السياسي المتعلق بالشؤون الخارجية وهو معجب بالمعلقين الانكليز ، ولذلك فهو ينحو منحاهم فيبدأ المقال بادراج النبأ العام بعد أن يجري عليه التحقيق من حيث صحته منبهاً القارىء إلى مصدر الخبر ثم يدلي برأيه مدعوماً بذكر الانباء السابقة . ويقول إن من أهم الشروط الصحفية أن يكون صاحبها منشئاً وناقلاً لا ناقلاً فقط . والصحف الانكليزية أفضل من غيرها للنقل عنها لاسباب ثلاثة : « الاول أنه لا تحريج على المحررين الانكليز فيما يرتأونه من الامور السياسية والاحكامية وغيرها وذلك من بعض قوانين بلادهم ، والثاني أن عندهم من يبلغهم

الاخبار من جميع أطراف الدنيا فصاحب التيمس عنده كتّاب في كل مدينة مشهورة من مدن اوروبا وكلهم مهرة في الكتابة والسياسة . والثالث ان جوائب الانكليز أفضل طبعاً وورقاً من غيرها . أما جوائبيو الفرنسيين فانهم وأن يكونوا من أصحاب البلاغة والبراعة إلا أن باعهم في السياسات قصير بالنسبة إلى اولئك وليس عندهم أيضاً مبلغون للاخبار مثلهم .

فإذا علم هذا علم أيضاً سبب ايثارنا النقل عن جوائب الانكليز على ما سواها لا سيما الفصول الطويلة التي تنبي عن علائق الدول بعضها ببعض وعما يمكن الحديث فيه في المستقبل بالنظر إلى دوام صلتها وارتفاعها وانخفاضها وما بها من الداء وما لها من الدواء ، فإن كثيراً من هؤلاء الكتّاب من أهل السياسة فضلاً عن كونهم من أهل الدراية والكياسة » .

وإليك مثالاً من مقال في السياسة الخارجية وهو من نوع التحليل أو التعليق على تسليم باريس للالمان في حرب ١٨٧٠ ، واسباب اطلاق الكومونار فيقول بعد نشر خبر التسليم إن الانباء لم تذكر الاسباب وإلى أن تأتي الاخبار بالتوضيح هو يرجح أن الاسباب هي :

« السبب الاول نفاذ المؤونة من باريس لأن غالب الرواة اتفقت أن مونتها كانت تكفي إلى أواسط شهر شباط . والسبب الثاني مزية مدافع الجرمانيين على مدافع الحصون ولا سيما إحكام اطلاقها . فقد ذكروا أنها كانت لا تخطيء . وقد اجحفت كثيراً بمعالم المدينة المشهورة وكنائسها العظيمة وأحرقت مأوى العساكر في عدة حصون . وحيث كانت مدافع الحصون دونها في الرمي والاصابة كان لا بد من التسليم من قبل أن يتفاقم ضررها . والثالث شغب ذوي الفتنة في المدينة حتى عمدوا إلى اطلاق كستاف واصحابه من السجن على ما مرّ في الجوائب السابقة وبقي النظر في معرفة سبب هذا الشغب وما إذا كان المراد من اطلاق اولئك المسجونين ، فالظاهر أن الذين اطلقوا كانوا من حزب الجمهورية الحمراء ، فإنهم لما رأوا أن العساكر غير قادرة على الايقاع بالعدو وبمرة واحدة ، ارادوا أن يتهافتوا على اهلاكهم تحت رئاسة كوستاف . والرابع عجز الجنرال بورباكي وهزيمة الجنرال شانزي . وربما كانت هذه الامور كلها قد تجمعت فصارت فذلكة السبب . ومهما يكن من الاسباب فإن باريس قد سلمت الآن من نيران المدافع »[٢١] .

وهكـذا فقـد أخـذ الخبـر مقتضباً في تسليم بـاريس ثم بنى عليـه تحليله لسقـوط العاصمة الفرنسية رابطاً بينه وبين ما سبقه من الانباء ونـاقش الموضـوع وكشف للقارىء فيه الحقائق الخفية وراء النبأ المقتضب . وقد قسّمه إلى مقاطع أولاً وثانياً وثالثاً الخ . . . لكي يدخل في فهم القارىء بسهولة ويسر كما قلنا .

لقد فرض الشدياق نفسه كمحلل للاخبار العالمية فأصبح كلامـه مرجعـاً يستشهد به رجال الدولة كـما فرض نفسـه أيضاً ، في التـزامه بـالخطوط الكبـرى لسياسـة الدولـة العثمانية وتبسطه في عرضها وتحليلها ، معبراً عن ارائها وسياستها فأصبح مصدراً تتناقل الصحف الغربية مقالاته ويأخذها رجال السياسة في الدول الغربية على أنها ناطقة بـأسم السلطان العثماني .

وكان المقال أو التعليق يمـلأ في الغالب ، صفحـة من صفحات الجـوائب أي نحو ثلاثة أعمدة وقد تزيد وقد تنقص قليلاً عن هذا القياس .

وفي رأينـا أن مقالات الشـدياق وتعليقـاته عـلى الحرب الفـرنسية البـروسية وعـلى أحـداث الكومـون تعتبر من أفضـل المصادر لتلك الفتـرة فهي تتصف بالدقة والمهـارة في تمحّص الاخبار وتنسيقها وعرضها والتكهن بما يدور في الاجـواء السياسيـة والاصابـة في التنبوء .

ومهـما يكن علم المرء ، في تلك الاحـداث ، ومهما كـانت قراءاتـه عنهـا في كتب التاريخ المفصلةواسعة ، فإنه يكون قد افتقد مصدراً هاماً إذا لم يقرأ تعليقات الشدياق . والمؤرخ لحرب ١٨٧٠ ، ولحركة الكومون ، وللحرب الروسية العثمانية ١٨٧٧ لا يكون أميناً إذا لم تكن من مصادره جريدة الجوائب .

IV

مجـادلات الجـوائب ومنــاظـراتهــا ـ نفـوذهــا ـ ارتباطاتها السياسية ـ اقفالها نهائياً .

كـان الشديـاق الصحافي رجـل معارك ، وربمـا كان في أصـل اختياره الصحـافـة كمهنة ، نزعته للعراك . وتحت هذه النزعة تندرج الحملات الصحيفة العنيفة التي تضج بها صفحات الجوائب . وبين جدلياته السياسية واللغوية في الجوائب مـا شغل عصـره . وهي تنشأ في العادة عن أمور ثلاثة : عن موقف سياسي أو عن خطأ غير مقصود أو عن بحث لغوي .

التزمت « الجوائب » الـدفاع عن الـدولة العثمـانية . وكـانت السلطنة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، في أخطر أيـامها ، فتحـالفت عليها الأحـداث . وكانت الدول ذات الاطماع بالاضافة إلى نشاطهـا السياسي وأحيّـاناً العسكـري تنشيء لنفسها دعاية ودعاة وتؤسس جرائد ومجلات وتتبنى اقـلاماً وكتّـاباً يـطعنون في الـدولة العثمـانية وسيـاستها ويهيجـون العصبيات في الـداخل والـرأي العام في الخـارج وكان أشهـر هـذه الصحف « برجيس باريس » .

أختلفت الأقـوال في من أسس هـذه المجلة في بـاريس . وهنـاك قـول أن رُشَيـد الدحداح هو الذي انشأها ، ولكن الشدياق يقول في رسالته إلى الشيخ يوسف الأسير أن صاحبها هو سليمان الحرايري وأنه قد جعل من دأبه وديدانه الطعن في الدول الاسلامية وبالافتخار بأحكام دولة فرنسا إغراء لأهل الجزائر بالطاعة ، وأصل الحرايـري من تونس

« وكان قد اتصل بقسيس فرنسي وجعل يعاونه على نشر ما فيه تخطئه وتفنيد للاسلام والمسلمين ، ثم سافر معه إلى باريس وأنشأ هناك البرجيس النحس فهما لا يجدان محلاً للقدح في الدولة العلية بل في جميع ولاة المسلمين إلا وتهافتا عليه تهافت الذباب على الشراب »[٢٢] .

لم نطلع مع الأسف على مقالات الجوائب في حملتها على البرجيس فهي في الاعداد المفقودة من مجموعة الجريدة . ولكن في كنز الرغائب قصائد الأدباء في الانتصار للجوائب وردود شعرية للشدياق .

وقائمة المنتصرين للجوائب كبيرة منهم يوسف الأسير وإبراهيم الاحدب وعبد الهادي نجا الابياري ومحمود قبادو وأحمد عزت الفاروقي وأبو حسن الكستي ويوسف النبهاني ورسول النجاري ونعمان الألوسي وغيرهم كثيرون[٢٣] .

وكان الشدياق يتحدث دائماً في مجالسه وفي رسائله عن حملته على هذه المجلة وعندما اقعدته الشيخوخة عن السعي أرسل كتاباً إلى جودت باشا يذكره فيه بتصديه للبرجيس معتبراً ذلك من أجل ما قام به في حياته في خدمة السلطنة والدول الاسلامية والمسلمين .

أما المعركة الكلامية التي قامت بين الشدياق واليازجي فقد كانت أشهرها جميعاً ، بل قد تكون من أشهر ما حدث في الصحافة العربية . وهي ما تزال ترن اصداؤها عند أهل الأدب وأرباب اللغة إلى الآن . ولعل آخر من كتب فيها أمين نخلة سنة ١٩٥٨ في كتابه « الحركة اللغوية في لبنان »وقد لا يكون الأخير .

لقد اتصفت المعركة اللغوية هذه بأمور ثلاثة :

١ـ عنف اللهجة .

٢ـ اسفاف في اللفظ .

٣ـ بروز النقد اللغوي والبحث القاموسي .

وكان من نتائجها :

١ـ بعث الحرارة في الأبحاث اللغوية .

٢ـ تطوير أساليب الكتابة من حيث سلاسة التعبير وسهولة الكتابة مع التأنق في الصياغة ولو تبذل اللفظ .

٣ـ رواج الصحف المتناظرة واتساع قطاع القراء اتساعاً أفادت منه الصحافة العربية بوجه الأجمال .

اشتعلت المعركة ودخل فيها من دخل من العالمين بموارد الكلام وشوارد اللغة وكلهم في الهامة من أدباء العصر : أحمد فارس الشدياق ، الشيخ إبراهيم اليازجي ، الشيخ إبراهيم الاحدب ، الشيخ يوسف الاسير ، الشيخ أبو النجا الابياري ، مخايل عبد السيد ، المعلم بطرس البستاني وابنه سليم ، سعيد الشرتوني ، حنا أبي صعب ، سليم نوفل وغيرهم وغيرهم .

كيف نشأ الخلاف ؟

عندما توفي الشيخ ناصيف اليازجي ، ابنه صاحب الجوائب بكلام رقيق ذكر فيه أن العربية فجعت بوفاته ، فهو من رافعي اعلامها وأنه مع قدرته على النظم لا يتعرض لأحد بالهجو والذم ، فعاش محبوباً ومكرماً عند جميع الناس ومات وذكره مخلد(٢٤) .

وبعد نحو ثلاثة أشهر كتب الشدياق في الجوائب معلقاً على مقال لسليم نوفل نشر في الجنان عن المودة التي كانت قائمة بين الشدياق واليازجي الكبير ، فزكي صاحب الجوائب كلام نوفل وذكر المناسبات التي كانت بينه وبين الشيخ ناصيف وكذلك التواصل وقصائد الود ، وتطرق الكلام إلى البحث اللغوي ، كعادة الشدياق ، فأخذ على الشيخ ناصيف عدداً من الهفوات في « مجمع البحرين » كقوله « الفحطل » والصواب « الفطحل » ـ وهو زمان لم يخلق فيه الناس ـ وفي تقديره أن اليازجي كان سيصلح الهفوات في طبعة جديدة . والبحث طويل درج فيه صاحب الجوائب على أسلوب الأدباء والنقاد الغربيين في الرثاء عن طريق تقييم الأديب المرثي في ما له ، وما عليه ، فالكلام في هذا النحو كان موضوعياً ، والمقال في مجمله فيه خطرات مودة وصداقة ، ختمه بقصيدة رقيقة في رثاء اليازجي الكبير قال فيها :

يا طود لبنان هل تشجيك اشجاني	لفقد الفٍ عزيز للصبىّ ثان
وهل أتاك حديث الأوّلين مضوا	وفخرهم دائم من دون نقصان
أمثال فردِكَ ناصيفٍ فهل لك من	فقدانه بدل يا فجع فقدان

كبر على اليازجي الأبن أن يؤاخذ الوالد بأخطاء لغوية فتجاوز ما انطوى عليه كلام الشدياق من ود وكتب في الجنان مقالاً مطولاً يرد على صاحب الجوائب مصوباً

كلام أبيه ومخطئاً الشدياق في نقده ، ثم تناول سقطات الشدياق في الجوائب و« الساق على الساق » و« سر الليال » وفي كل ما كتب . والمقال هادىء رصين تبدو عليه الموضوعية ولكنه مبطن بالتهكم الخفي مما طبعه بالاستفزاز .

وصاحب الجوائب عصبي المزاج . كما نعلم ، لا يكاد يمسه المرء بطرف حتى يرى منه الحمم . فأقام الدنيا واقعدها واطلق لقلمه العنان والتف انصار الجوائب حول صاحبها وقام سوق الجدل واشترك فيه كل قرم عنيد يقارعون إبراهيم اليازجي والبستاني وأرباب « الجنان » .

إبراهيم الأحدب ويوسف الأسير والإبياري وعبد السيد ونوفل الخ . . . في حزب الجوائب والمعلم بطرس وابنه سليم وسعيد الشرتوني وغيرهم يازجيون . فكان هذا الخلاف خيراً على اللغة والأبحاث اللغوية إذ فتحت ابحاثها على جميع مصاريعها وتعددت موضوعاتها ونشطت الصحافة وضاعفت الجوائب عدد صفحاتها فأصبحت تصدر بثماني صفحات وكانت المقالات تجمع بعد نشرها بالجريدة في كتب وكراسات . وظهر لسعيد الشرتوني بحث « السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب » وهو نقد لكتاب مدرسي لصاحب الجوائب فتصدى للرد على الشرتوني إبراهيم الأحدب في كتاب « رد السهم عن التصويب وإبعاده عن مرمى الصواب بالتقريب » وكذلك وضع الأسير كتاباً فيه على الشرتوني اسمه « رد السهم للشهم » ثم وضع « كتاب ارشاد الورى في تخطئة جوف الفرا » وهو تخطئة لكتاب اليازجي الكبير « جوف الفرا » .

لم تهدأ المعركة إلا بعد سنوات وبعد وساطات . قال صاحب الجوائب في إحدى رسائله إلى ابن شقيقه « أما سكوتي عن هذا الـ. . . فعلى موجب طلب أصحابنا بمصر ، لأنهم يرون كلامي معه حطة في مقامي »(٢٥).

ومن طرائف هذه المعركة أن الأسير تلكأ في الأنضمام الى حزب الجوائب بل تظاهر بالفتور فلجأ الشدياق إلى اطرائه ثم إلى الشعر يمدحه فيه ثم إلى السعي له في وظيفة لدى والي سوريا صبحي باشا . وأخيراً إلى المال قال في كتاب نادر ، لم ينشر إلى ابن أخيه ظاهر :

« ثم إني رأيت كلامكم وكلام الشيخ يوسف الأسير خلافاً فإنكم كتبتم إلي أنه قد شرع في الرد على ابن اليازجي ورأيتم أول ما كتبه وهو كتب إلي هذه المرة بأنه توجه معكم إلى حنا بك أبي صعب وقر الرأي على انتقاد كتب الدب الأكبر وأن الشروع في ذلك متوقف

على مشاورتي ، فكتبت اليه أن الابتداء بالرد أولى وأنه يكون على النمط الذي شرع فيه ميخائيل افندي عبد السيد بمصر ولو بعبارة أوجز ثم بعد ذلك يأخذ في انتقاد المقامات وغيرها وقد خصصت له في مقابلة ذلك مائتين وخمسين قرشاً شهرية ولكن لا تجعلوه يفهم إنكم اطلعتم على هذا التخصيص ، فلعل ذلك يسوءه وإنما اطلبوا منه الرد أولاً كلما كتب شيئاً منه ارسلوه ومن رأي أن الاستعانة بالشيخ يوسف تكون لازمة أيضاً بعد انتقاد الكتب وذلك لدحض ما يفتري به صاحب الجنان وصاحب النجاح فإنهما عاملان على خصامي ومعلوم أن الرد عليهما من الشيخ يكون مؤثراً اكثر من ردي مع إني أنا أيضاً متصد لهما وسأجلب عليهما علماء مصر أيضاً حتى يذوقا ما ذاق البرجيس وقد شكرتكم كثيراً على أنكم اعدتم الشيخ يوسف إلى قديم مودتي فأرجو الله أن تدوم لنا ثم انكم لمحتم إلى أن ابن اليازجي له اخوة وكان مستقراً ببالي خلاف ذلك فأيهما الصحيح وأرجو أيضاً أن تعرفوني على أحواله بالتفصيل هل هو من المعسرين أو من الموسرين وبأي وجه شارك يوسف الشلفون مع أن يوسف الشلفون خصم لصاحب الجنان وكيف رأى الشيخ يوسف نقدي لقطر المحيط المشحون بالغلط وهل المسلمون يشترون هذا الكتاب ، لا جرم إن هذا المجنطي (أي البستاني) جسور صلف مجرد عن الورع بالكلية فإنه أفسد عبارة القاموس»(٢٦) .

طبعاً لم يكن كل انحياز إلى هذا الفريق أو ذاك على هذه الشاكلة ، ولكنه انموذج طريف على كل حال .

أما اللفظ فقد تدنى إلى الحضيض فنعت رزق الله حسون الشدياق في غير مناسبة ، بالفأر الذي لا ينسلخ ، وأن الله مسخه خنزيراً ، وأن صوت نباحه يسمع من بعيد(*) . ولم يكن الشدياق أقل سخاء ولكنه في رسائله الى أهله وليس على صفحات الجوائب ، فنعت أحد خصومه بالدب الأكبر ونعت آخر بالكلب . قال في رسالة « فإني متعجب جداً من سكوتكم على الكلب الذي نبح عليّ في بيروت بمرأى منكم ومسمع ، أفليس عندكم عصا تقرعونه بها أو حجر ترمونه به أو في الأقل كلمة تهديد ووعيد تسمعونه إياها ؟ اهذه حميتكم وغيرتكم التي اكتسبتموها من بيروت ؟ بأي وجه تقابلون وجه من يقول لكم أن عمكم صار مضغة في فم اللئيم ؟ لكني احسبكم مشغولين بعداوة أخيكم بشارة كما هو مشغول بعداوتكم فما تستطيعون الاشتغال بغيرها ، ألم يكن

(*) رزق الله حسون : كتاب النفثات ـ المكتبة الشرقية للاباء اليسوعيين ـ (161 f 6) .

ممكناً لكم أن تعلموا بالتحقيق من يساعد هذا اللئيم ومن يجتمع به ومن يزوره ومن يزور هو مع أن بيروت صغيرة أليس عندكم خصم تستعينون به على خصامه مع أني أعلم أن المسلمين لا يحبونه ولا يحبون بطرس البستاني ؟ فغاية مرادي الآن منكم أن تصالحوا أخاكم بشارة وتتفقوا معه على شيء يدل على أنكم من أصحاب الحمية »(٢٧).

أما إبراهيم الأحدب فقد نعت الشرتوني بالعقرب « وقد حضرت النعل للعقرب إذا عادت للدبيب وأبقيت لصاحب السهم إذا رجع لتفويقه من حامل الضرب أوفر نصيب » . ووصف كتابه بأنه « حدث من اسهال الزمان » .

والأسير قال اشياء كثيرة منها نعته للشرتوني بـ « البهيم » ثم يقول شعراً :

فَدَعِ الدعوى وإن شئت الرضا فعلى أقدامه يوماً ترامى
فإذا عدتَ إلى مثل الذي قد رأينا نضع فيكَ « اللجاما »

وتنزه اليازجي بأسلوبه الأنيق عن هذا التبذل بيد أنه لم يتنزه عن التهكم المستفز ، وربما عن اللؤم . قال في رد على الشدياق : « ولا بد من ملاحظة ما ذكره صاحب الجوائب مراراً في اثناء انتقاده من الاعتذار عن أبي ، رحمه الله ، في ما احتسبه خطأ منه . وكأني به وراء ذلك يقصد بسط العذر أيضاً لنفسه في وجه من خيل له الواقع أن الذمم عنده تموت بموت اصحابها ، والعياذ بالله . وذلك تأباه اخلاقه ولا يرضى به من تحلى بشعائر الكرم والشهامة . فإنه قد حفظ له ذلك العهد ما ينيف عن ستين سنة وبينهما مسافة من الأرض ، فمن أصعب ما يخال التسليم بأنه قد تنازل إلى نكثه معه حين أصبح ولا تطالب به أمانته وذمته »(٢٨) .

وكذلك تنزه كثيرون ، غير اليازجي ، في الجدليات كالشيخ عبد الهادي نجا الابياري والسيد محمود شكري الألوسي وغيرهما فعف لفظهم وترفع جدلهم عن المهاترة وتوسلوا الانصاف في النقد والبحث . قال الألوسي واصفاً الجدل بين الشدياق وأحد خصومه « إن الخصام بين أهل الأدب قديم فقد جرى بين الفرزدق وجرير ما لم يقم ببيانه لسان التحرير وهكذا كلام في البحتري وأبي تمام وغيرهم من الأجلة الاعلام سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ثم يقول ، ولكن لا ينبغي للعاقل فضلاً عن الأديب الفاضل أن يتجاوز إلى الأعراض بسبب الاغراض ومجاوزة الحد ليست محمودة عند كل حد . . . الخ » .

* * *

اتسع نفوذ الجوائب كما اتسع انتشارها اتساعاً كبيراً لم تبلغه جريدة عربية ، أو شرقية ، من جرائد القرن الماضي ، وقد تحسدها عليها الصحف الكبيرة في أيامنا هذه .

فكان لها وكلاء في معظم انحاء العالم الاسلامي وخارجه وفي كثير من البلدان المشهورة كما ذكرنا وكان هؤلاء الوكلاء ، وبينهم وجهاء وقادة رأي في قومهم ، يشكلون جهازاً سياسياً وفكرياً ودعوياً من الطراز الأول . ولما قامت الحرب بين السلطنة وروسيا سنة ١٨٧٧ ، اصبحت الجوائب ، بانتشارها واتساع شبكتها ، الرابط الاعلامي القوي بين أطراف العالم الاسلامي ، مما جعل السلطان يمنح جميع وكلاء الجوائب دون استثناء في جميع هذه الأقطار أوسمة رفيعة كبادرة تقديرية لحسن بلائهم في الدعوة للدولة العلية ، مما أبرز نفوذ الجوائب سواء في الداخل أم في الخارج .

وأصبحت الجوائب ذات سطوة يهابها المسيء ويستنصر بها المظلوم ويحتمي بها الضعيف . وكان في بعض الأحيان إذا ما وقع ظلم على البعض في الولايات العربية يرفعون أمرهم الى الباب العالي ويكتبون إلى الجوائب معاً لتؤيدهم أو يكتبون رأساً إلى الجوائب عارضين قضيتهم مستنصرين بالشدياق فكان ينقل شكواهم على صفحات الجوائب . « ومثل هذا العمل يعدّ من أجلّ اعمال الجريدة ، كما يقول ، لأنه يهيء للمستضعفين أن يصلوا إلى حقوقهم . فالصحافة لسان حال الأمة ، تترجم عن أفكارها وتنشر أحوالها بدون استثناء إذ لا واسطة سواها تفصح عن أغراضها وتؤنب من يضر بمصالحها » .

من هذا الموقف انطلق الشدياق ، بسخرية لاذعة ، إلى انتقاد الطريقة التي تختار بها الدولة ولاة الأقاليم وكيف أن هؤلاء يحيطون انفسهم بالتعظيم تهويلاً على الرعية ، وأن الدولة تنصب على البلاد العربية من لا يعرف لغتها ، وأن التعيين يجري بالرشاوى فقال :

« جرت العادة بأنه لا يقلد أحد ولاية ما لم يشرف بلقب وزير مكرم ، دستور مفخم ، مشير معظم إلى غير ذلك من الألقاب الفخمة والنعوت الضخمة . فالظاهر أن هذه العادة نهجت في الأزمان السابقة تهويلاً على الرعية لكي يهابوا ولاتهم ويحترمونهم وينقادوا لهم . وقد جرت العادة أيضاً بأن الوالي حين يصل إلى محل مأموريته يقابله الناس بالتهليل والتكبير واصطفاف العساكر والنفير وهو أيضاً من قبيل التهويل والتحذير ، ويكون له سلطة مطلقة على سكان الولاية ، ومن جملتهم اعضاء المجلس وقاضيه ، فما

أحد يقدر على مخالفته . وكثيراً ما ينصب على الولايات التي لغة سكانها هذه اللغة الشريفة من لا يحسن النطق بكلمة واحدة منها . وفي ذلك من الفساد والخلل كما لا يخفى ، فإن الوالي بمنزلة الطبيب ، لابد له من معرفة لسان من يداويه . فمن يكون جاهلاً لايمكن وصفه بأنه مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب »[٢٩] .

هذا الانتقاد المتهكم يظهر المنزلة القوية التي أصبحت عليها الجوائب وصاحبها . انه ينتقد رجال الدولة انتقاداً ساخراً بكلام قاس لم يألفوا سماعه في أي من بقاع السلطنة ، فضلاً عن الاستانة ، قبل سماعه من الشدياق .

وعندما خطب السلطان عبد الحميد مفتتحاً مجلس الاعيان والمبعوثان بعد اعلان الدستور سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧) رفضت الجريدة نشر الخطاب لأن الباب العالي وزعه على الصحف بالفرنسية . فقالت الجوائب : « إذا كان في الاستانة مائتا ألف من الأجانب فإن للدولة عشرة ملايين من أبناء العرب المتشوقين إلى تلاوة ما تصدره الدولة من الأوامر الخطيرة ، فإذا كان الباب العالي لا يبالي بمراعاة هؤلاء الملايين وليس لهم عنده أهمية فنحن أيضاً لا نرى من اللزوم إدراج أوامره » .

ومنذ ذلك الوقت اخذ الباب العالي يترجم كل ما يصدر عنه إلى اللغة العربية .

* * *

هل كانت « الجوائب » ترتبط بسياسة دولة من الدول ؟ وأي طرف من أطراف النزاع السياسي كانت تناصر ؟

بصورة عامة يمكن رسم الخطوط الكبرى لسياسة الجوائب كالآتاتي :

أولاً : كانت الجوائب موالية للسلطان ولدولته العلية ولاءاً رضائياً تاماً ، وان كان يشوبه أحياناً نادرة ، بعض الفتور مما كان يؤدي بالجريدة إلى التعطيل . والولاء هذا لم تنفرد به الجوائب بل هو كان مسلكاً عاماً بين جميع الصحف العثمانية . ولكن منها من كان ولاؤه رضائياً ومنها من كان بين بين .

ثانياً : كانت الجوائب موالية لولاة مصر ولاءاً تاماً ، وعلى الأخص إسماعيل فقد كان من دأب الشدياق الانحياز لمصر ضد أي كان ، ففي اعماق نفسه وفاء وحنين لذلك البلد . وبالرغم من المساوىء المالية التي حفل بها عهد الخديوي اسماعيل فقد كانت الجوائب تنتصر له باستمرار[٣٠] . ولما ساءت العلاقة بينه وبين الدولة حاولت

الجـوائب جهدهـا أن تقف موقف السـاعي الى تلطيف الأجواء بـين الأستانـة والقـاهـرة وكافحت من يثير البغضاء بين العاصمتين ، ويروج الاشاعات السيئة ، عـلى أن الموقف لم يتحسن بـين الاستانـة وإسماعيـل ، بل كـان من المقدر لـلأزمة أن تشتـد فـانحـازت الجوائب إلى الخديوي متحدية الباب العالي . ولما خلع عن ولاية مصر سنـة ١٨٧٩عمد الباب العالي إلى التشهير به فأوعز الى جريدة « ترجمان حقيقت » التركية بنشر مقال يطعن به ويمثل في سمعته ثم طلب مدير المطبوعات إلى الجوائب أن تنشر المقال بالعربية فرفض الشدياق فعطلتها الحكومة ستة أشهر[٣١] .

وقـد يقال أن الخـديوي كـان يبذر المـال في اسطنبـول يميناً ويسـاراً وأن الجـوائب اصابت شيئاً من ذلك المال . وهذا شيء مقبول عند بعض ارباب الصحف فإن الجريدة الملتزمة بمسلك معين كما يقولون تتعرض لخصومات ومتاعب قد تزيلها من عالم الصـدور إذا لم تؤمن لها الفئة المستفيدة سد العجز . و« الصحيفة مشروع تجاري ، فأما أن تـربح وأما أن تنسحب من الميدان »[٣٢] . فـإذا قلنا أن انحيـاز الجوائب للخـديوي كـان بهذا الـدافع فـإنه ليس السبب الـوحيد ، فقـد كان لاسمـاعيل خصـوم أقويـاء ينفقون المـال أيضاً ، كما ينفق ، منهم الأميران عبد الحليم بن محمد علي ومصطفى فاضل واصدقاؤهما في اسطنبول[٣٣] فليس المال وحده الـذي دفع الشـدياق إلى جـانبه بـل هو هـذا الطابـع الذي اشتهر به هذا الوالي في نشر المدنية الحديثة ، فقد « اعاد عـلى مصر كـل ما فقـدته من وسائل العمران والتمدن والثروة والعرفان . . »الخ .

ثالثاً : في السياسة الإسلامية كـانت الجوائب تلتـزم بالـدفاع عن أي قـطر أو بلد إسلامي وكان صاحب الجريدة داعية تفاهم واتحاد وكان صريحاً واضحاً في هذه الدعوة . قال يشرح سياسة الجوائب الإسلامية : « من عادة كتّـاب الجرنـالات بأوروبـا أن يلزموا طريقة معلومة من طرائق السياسة فيعرفوا بها وتكون لهم شعاراً . فبعضهـم يرى الـدولة الجمهورية أحسن من الدولة الملكية وغيرهم يرى ان الدولة الإمبراطورية أحسن منهـا . ولكل من هذه الطرائق أحزاب وشيـع ومخترعـات وبدع . وبعض كتـابها من أصحـاب الفنـون والعلوم وبعضهم من أصحاب الشـورى وبعضهم من أرباب الـوزارة وبعضهم من أصحـاب التجارة والخبـرة بالأمـور الماليـة . ولسائـل هنا أن يقـول إذا كان كـل من هؤلاء الكتّاب قد لزم طريقة وتميز بها فما طريقة صـاحب الجوائب ؟ وأي رأي يستحسن من هـذه الصحف ؟ والجواب أن الجـوائب من جميع هـذه الطرق مـا بين أحـدهما : أن تكون جميع الـدول عادلـة مقتصدة في جميـع أمورهـا بقطع النـظر عن كونها جمهـورية أو ملكية والثاني أن تكون الدولة الإسلامية عزيزة الشأن شرقاً وغرباً حتى تكون قادرة عـلى

وقاية نفسها وحفظ حقوقها من دون الإستعانة بالأجانب على ذلك . إلا أن هذا الأمر لا يحصل إلا بالإتفاق والإتحاد فكل من سعى في إلقاء العداوة بين أركانها فهو عدو وعامل على خرابها »(٣٤).

رابعاً : كان صاحب الجوائب يتهم بميولة الإنكليزية ، وربما بأكثر من ميول وعندما كان في باريس قال له ذات يوم ، الكونت ديكرانج ، المستشرق المعروف ورئيس تراجمة الدولة : « يعجبني فيك حسن تصرفك فينا ونزاهة نفسك ، غير أني أنكر عليك شيئاً شاع عنك . فقال : أذكره لي حتى أتجنبه . قال : إن الناس يقولون أنك قدمت إلينا جاسوساً من الإنكليز . قال : بودي لو كنت جاسوساً إذاً لكنت لا اكلف أحداً بشيء فإن جاسوس الانكليز يستغني بوظيفته عن أن يتصل بأحد إلى نوال إربه»(٣٥).

ولكن إذا استطاع الشدياق أن يدفع عن نفسه أمام ديكرانج هذه التهمة ، فهل بإمكانه النفي عن الجوائب وعن نفسه الميل إلى السياسة البريطانية ؟

لا شك أن الشدياق كان معجباً بالإنكليز ، بالتربية الإنكليزية ، بالنظام البرلماني الإنكليزي ، بالقضاء بالصحافة والصحفيين ، بالمرأة ، بالمدرسة ، بالتجار الإنكليز ومراسلاتهم ، أما السياسة الإنكليزية فلها شأن خاص . وقد يجد المرء تبريراً لميل الجوائب . فمن يتتبع خطى السياسة البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، يرى أنها كانت الظهير الظاهر للدولة العثمانية في خضم التيارات الأوروبية لا سيما تجاه الأطماع الروسية . فكان لا بد للصحافة العثمانية بوجه الإجمال ، من الإلتزام بمصلحة الدولة وسياستها .

وعلى كل حال فقد أوضح الشيخ محمد عبده ما أشكل على الآخرين فقال عنه : « إنه خدم الدولة الإنكليزية في الأستانة عشرين سنة بما كان يعتقد جميع قراء جريدته الجوائب أنه خدمة للدولة فقط إذ أقنع مسلمي الهند بل العالم الإسلامي كله أن هذه الدولة صديقة للسلطان ودولته نصيرة لهما »(٣٦) .

وبالواقع فإن ما نسبه محمد عبده إلى صاحب الجوائب هو براعة لا نجدها إلا في الصحافي الكبير الناجح ، ولا سيما العصري ، هي تلك القدرة الإعلامية على خدمة أهدافه بأسلوب غير مباشر . وفي حين كان ظاهر الكلام هو مناصرة الدولة العثمانية ، كان في حقيقته خدمة الإتجاه الإنكليزي . فهو يوجهك بالخبر لا بالرأي ، ويضعك في جو معين ، ويوحي إليك أنك شريك بالرأي ، مما يبدو في الوهلة الأولى مخالفاً لشخصية

الشدياق كرجل مباشر في التعبير عن آرائه ، عفوي الكلام . والعفوية هي صفة الكاتب والأديب ، ولكنها عيب في صاحب مؤسسة ومالك جريدة .

إقفال الجوائب

من أكثر الأنباء التي كانت الجوائب تحرص على نشرها تلك التي كانت تتعلق بالعالم العربي سواء كانت هذه الأنباء من التي يمتعض منها الباب العالي أو من التي يحظر نشرها . ولما نشبت أزمة السودان سنة ١٨٨٤ منعت دائرة المطبوعات البحث فيها . ولكن الجوائب رفضت الإنصياع للتعليمات ولا سيما أن الأمر يتعلق ببلد عربي هي أولى من غيرها بالكتابة عنه مما دعا الحكومة إلى تعطيل الجريدة . قال مرسوم التعطيل : « اعتادت الجوائب على نشر المقالات المضرة والكاذبة ولم تصحح مسلكها مع أنها أُبلغت التنبيهات اللازمة بالدمغات وترتبت عليها المجازاة كالتعطيل . وحيث أنه لا يسوغ دوام نشر مثل هذه الجريدة أُبلغ صاحب امتيازها تعطيلها من هذا اليوم توثيقاً لمنطوق الإرادة السنية السلطانية العالي » . ١٦ شباط سنة ١٢٩٩ (رومية) .

فعلق المحرر على المرسوم بما يلي : « غاية ما نقوله أن الذي يصعب علينا فهمه من هذا الأخطار هو قول إدارة المطبوعات أنها أخطرتنا بالدمغات بعدم نشرنا الأخبار الكاذبة والمضرة فإذا اعتبرنا أن هذه الإدارة أخطرتنا إخطاراً شفاهياً مرة واحدة فقط كما أخطرت بقية جرنالات الأستانة بعدم الخوض في مسألة السودان تعينّ علينا أن نستنتج أن هذا هو معنى الأخبار الكاذبة التي تشير إليها الإدارة المذكورة . أما خوضنا في هذه الأيام في أخبار السودان والأحوال الحاضرة في مصر فهو لأن هذه الأخبار من أهم المسائل الحاضرة التي تهم أبناء العرب ولكون جرنالات الأستانة تخوض فيها أيضاً إلا أن يقال أن خوض الجوائب في هذه المسألة بصفة أنها جريدة عربية معدة للأفكار العربية له زيادة أهمية على خوض جرنالات الأستانة ، ولكن إذا لزم سكوتنا عن ذكر المسألة المذكورة التي تحسب الآن من أهم المسائل الحاضرة فلا جرم أن تعطيل الجوائب أولى من صدورها خالية من جميع الأخبار التي صار جميع الناس موجهين اليوم أبصارهم إليها للإطلاع على متعلقات هذه المسألة وأفكار الدول في شأنها .

سليم فارس »[٣٧]

ولم يذكر القرار مدة التعطيل ولكنه كان قد شاع في الأستانة أنه تعطيل نهائي . ولم تشأ إدارة الجريدة تصديق ذلك ، ولكن ظنها كان مخطئاً ، وكان العدد ١١٧٧ هو آخر عدد صدر عن الجريدة[٣٨] .

وهكذا صمتت « الجوائب » ، جوائب أحمد فارس الشدياق إلى الأبد .

وبوقوفها ، وقف ذلك الرافد الرائع الـذي ظل يصب في الفكـر العربي نحـو ربع قرن .

صمتت بعـد أن وفت قسطهـا في النهضة العـربيـة الحـديثـة وظلت طيلة عمـرهـا النبراس المضيء والركن المتين في اللغة والأدب وفي مجال الفكرالسياسي . ملتزمة الدفاع عن المظلومين فقلم الصحافي الحر، كما كان يقول صاحبها «هو سلاح الضمير الحي الذي يهيمن على معرفة الحق والدفاع عنه ، فـإذا رأى من يتعمد أذي النـاس شنّع عليـه حتى يسلم الحق من ضيره ، ويكون عبرة لغيره . ولولا الصحف لتمادي الناس وأكل القوي حق الضعيف والغني يسترط الفقير »(٣٩) والصحافيون « مكلفـون من قبل البـاري تعالى الـذي فاض عليهم فضله وتـوالى بما آتـاهم من الحكمة وفصـل الخـطاب (. . .) أن يبلغوا الناس أجمعين كلام الحق المبين فيؤدوا الأمانة حق مؤداها »(٤٠) .

وصفحات الجوائب هي سـاحة للصـراع المستمر بـين هذه القـواعد المثـالية وبـين ظروف الجريدة المالية التي كانت تضطرها إلى التنازل عنها في بعض المواقف ، ومع ذلك لم يمنـع هذا الصـراع الجوائب من أن تكـون ، في فتـرة ازدهـارهـا ، مـرآة للرأي العـام العـربي ، أما في سنـواتها الأولى فقـد اتصفت بالمنبـرية ، إن صـح التعبـير ، تنهـج نهج الداعية إلى العلم والمرشد إلى الحضارة والتمدن . وكانت الجوائب من جهة أخرى لسان الدولة تعبر به عن سياستها الخارجية والداخلية وسجلاً لشؤون السلطنة ، فهي من أهم المـراجع العـربية وغـير العربيـة وأفضلها عـلى الإطلاق لمن أراد أن يـطلع على السيـاسة الدولية وعلى الأخص ما يتعلق منها بالشرق في النصف الثاني من القـرن التاسـع عشر . وقد كانت لها مواقف في القضايا العامة التي تـطرأ ، وما أكثـرها ، وقـد يقصر المـرء عن حصرها . كانت الأحداث متلاحقة تتبدل بتبدل الأيام وسياسة الدولة فيها لا تجري على وتيرة واحدة فكان على الجـوائب أن تراعي ذلـك من غير أن تخـرج على خط التشـدد في الدفاع عن الأنظمة الدستوريـة أنّى نشأت ، في مصـر ، في تونس ، في الأستـانة أو أيـة بقعة من بقاع العالم لأنها كانت تـرى في هذه الأنـظمة الضمـانة لحـرية الشعب وكـذلك لحرية الفرد كما كانت ترى فيها مرآة الدولة المتمدنة .

وكانت الجوائب أهم رافد نقل الفكر الأوروبي والحضارة الغربية والتمدن الحديث إلى العالم العربي ، كما كانت أهميتها الأدبية في أنها كانت ميداناً لأكثر ما أنتجه الشـدياق

في الأعمال الأدبية واللغوية والفكرية والسياسية والصحافية . فعلى صفحات الجوائب ولدت في الأدب العربي « المقالة » والتعليق السياسي والتوجيه عبر الفنية الصحافية وكلها نتائج تأثرها بالغرب .

وقد كانت الجوائب ، جريدة ومطابع ودار نشر ومؤسسة على نمط وحدة إنتاجية حديثة متفردة في هذا التكوين الذي جعل منها صاحبة وجود ضخم وفاعلية خاصة ، فإنتاج المطبعة ، تحقيقاً وتأليفاً ونشراً ، لم يكن أقل أثراً وأهمية من الجريدة .

إنسحب الشدياق تدريجياً من تحرير الجوائب قبيل تعطيلها بسنتين أو ثلاث بسبب وطأة السنين وكلل في عينيه واحتجب قلمه عن الصحيفة إلا في ما ندر وتسلم المؤسسة ابنه سليم فأدارها وأدار تحريرها بإرشاد الشيخ رسول النجاري ولكن سطوة الأب ظلت مهيمنة على سياستها .

وكان منزل الشدياق في اسطنبول أكثر من منزل وأكثر من ناد . وكان مقصداً لجميع معارفه وغيرهم من أصحاب الحاجات فكان عليه أن ينفق جهداً في توظيف نفوذه ورصيده لتأمين مطامح أصدقائه وأنصاره في الوظائف والمراتب ، على أن احتجاب الجوائب وعبء السنين قلصت يد الشدياق فشحَّت موارده فوقع في الحاجة مرة أخرى . ولعل الرسالة التي وجهها قبيل وفاته بنحو ثلاثة أسابيع إلى جودت باشا ، وهي آخر ما كتب ، تصور حاله وأوضاعه تصويراً واقعياً . قال في الرسالة :

« ولقد ضَربْنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارِم ينسب
فأصبر لعادتنا التي عَوّدتَنا أو لا فأرشدنا إلى مَنْ نذهب

المعروض على مسامع سيدي ومولاي وملاذي الأكرم ، حضرة دولتو جودت باشا ناظر العدلية الأفخم .

إني لما تعطلت الجوائب بالإرادة السنية ، ذلك أكثر من ثلاث سنين ، حرمت إيرادها الذي كان يصل إلي من الحكومة الخديوية المصرية ، ولكن أخذت إيراد سنة واحدة ثم انقطع عني من غير سبب ، فمكثت على ذلك نحو سنتين أعاني كثرة النفقات والحرمان حتى عيل صبري ، فتوجهت في الشتاء الماضي إلى مصر وعرضت أمري على الحكومة المصرية طالباً تعيين معاش فلم استفد شيئاً ، ورجعت إلى الأستانة خائباً ، وزاد الخطب تفاقماً أني فقدت بصري ، فلا أقدر على الكتابة والقراءة واعتراني ضعف

منعني من السعي وهو الذي منعني من التشرف بالمثول في حضرتكم السعيدة ، وقد بلغت من العمر ستاً وثمانين سنة ، وجميع الذين كنت ألتجىء إليهم قد ذهبوا إلى رحمة الله فلم يبق لي أمل سوى أني تجاسرت هذه المرة على تقديم كتاب الَّفته منذ أربع سنين(*) وذلك على يد ولدنا خليل الشدياق ، وهو كتاب لم يسبق إليه من قبل قط ، وأن يكن غيري قد حام حول هذا الموضوع .

فالمرجو من مكارمكم العميقة تقديم الكتاب المذكور إلى الأعتاب السنية مع ذكر شيء من حالي وهو أني نوهت بمناقب السلطنة السنية مدة عشرين سنة ، وحاميت عن الإسلام ، وأفحمت برجيس باريس ، ونوهت أيضاً بمحاسن اللغة العربية ، فلعل الله يحنن قلب مولانا وسلطاننا المعظم لأن يعين لي معاشاً بواسطة جنابكم العالي فأقضي سائر أيامي بالدعاء لمولانا المعظم ولسيادتكم وأطال الله عمركم وخلَّد فخركم .

أحمد فارس »

من المؤسف أن الأيام لم تمهله ليتلقى الرد ، ففي ٢٠ أيلول سنة ١٨٨٧ انطفأ السراج المنير وانتهت حياة رجل من أعظم رجال الأدب العربي على إطلاقه .

يقول بولس مسعد في وصف أيام الشدياق الأخيرة انه في أول أيلول سنة ١٨٨٧ إنحرفت صحته ونجله سليم في باريس . وحدثته نفسه بدنو أجله فارتبك . وكان الأستاذ نجيب هندية أحد محرري جريدة القاهرة التي أنشأها سليم ملازماً له وقتئذٍ فأنبأه أنه قلق البال مضطرب الأفكار وأوعز إليه أن يستقدم ابنه من باريس على جناح السرعة ففعل . وفي صباح ١٩ أيلول وصل سليم إلى الأستانة فابتهج والده وانتعشت نفسه وخيل إلى أسرته أنه بات في منجاة من الخطر ، ولكن ما غربت شمس اليوم التالي وهو يوم الثلاثاء الواقع في ٢٠ أيلول حتى ساءت حاله . وبعد أن طبع قبلة على جبين نجله اتكأ على الوسادة واستغرق في النوم ثم استيقظ يقظة الموت ، وفي الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة من تلك الليلة نفسها لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعي نجله سليم .

وكان الشدياق أوصى أن يدفن في لبنان . وعملاً بوصيته نقل جثمانه في باخرة

(*) الواقع أنه أنهاه منذ أربع سنوات ، وكان قد بدأ في تأليفه منذ ٣٢ سنة وربما أكثر كما سيرى القارىء في صفحة مقبلة .

نمساوية أعدت لنقله إلى مثواه الأخير . وفي صباح ٥ تشـرين الأول وصلت الباخـرة إلى بيروت فنقل الجثمان إلى الجامع العمري الكبير حيث صلي عليه في مأتم عـظيم ثم دفن في الحازمية في ضريح فخم وهو قائم على طريق بيروت دمشق[٤١] .

الفصـل الثالث

الشدياق في آثـاره

أولاً : بعث التراث .

تحقيق الكتب ـ أسلوبـه في التحقيق ـ الكتب التي حققها .

كانت الجوائب مؤسسة كاملة ، ولم تكن الجوائب الجريدة أو الجوائب المطبعة إلا من جوانب هذه المؤسسة ، هكذا كان ينظر إليها الشدياق عندما أعطاها وجوده كله ، ووضع بتصرفها ذلك الحشد المتنوع الخصب القوي من الكفاءات والمواهب والطاقات وهكذا كان في نظر الناس ، في نظر السلطنة وأيالاتها ، في نظر الصديق المعتز والعدو المتهيب .

وإذا كانت الجوائب الجريدة أولى الجرائد في زمانها فإن الجوائب المطبعة كانت بلا ريب واحدة اثنتين من مطابع ذلك العصر . وكانت مطبعة بولاق هي « المطبعة » في العالمين العربي والإسلامي يكاد إسمها أن يكون مرادفاً لهذا المعلم الأساسي من عالم النهوض والرقي .

جاء تأسيس الجوائب في أوج نشاط بولاق في النشر . وكان من المتعذر على أي كان أو أية مؤسسة في العالم العربي أو خارجه اللحاق بهذه المطبعة لولا الجوائب وما وراءها من عزم .

ولعل بعث التراث العربي كان غرض الشدياق الأول والدافع الرئيسي لتأسيس المطبعة وهو مقدم عنده على الصحافة . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا انه كان أحرص

على هذا البعث من نشر التمدن الحديث نفسه ، ذلك أن في حياته وفي كتاباته نزعة قوية إلى المحافظة على الذات القومية الخاصة . ولشد ما كره عند بعض الشرقيين الإعجاب بكل ما هو غربي . بل إنه كان إنتقادياً لكثير من الأحوال والتصرفات التي شهدها في رحلاته إلى أوروبا . كما كان يكره بشدة الرطانة والركاكة ، وطالما حرّكتا في نفسه شخصية الساخر البارع .

وكان الشدياق يشكو في الجوائب من الظروف القاسية التي كان يعمل فيها في البحث عن المخطوطات لتحقيقها وإخراجها بالطبع وهاله يوماً ما رآه من ضياع نسخ نفيسة لبعض المخطوطات رآها مرة ثم اختفت . وقام في الجوائب بحملة لنسخ المخطوطات العربية في الأندلس خوفاً عليها من الضياع[1] .

والطريقة التي تصرف بها عندما عطلت الجوائب ستة أشهر ، بسبب انحيازها للخديوي ، كانت إحدى المناسبات التي تجلى فيها عطشه إلى التراث . فقد انصرف كلياً إلى طباعة الكتب وتحقيق المخطوطات والتأليف في اللغة ، معتبراً ذلك النشاط امتداداً لرسالة الجريدة ومتمماً لها . وعندما نشرت الجوائب أسماء الكتب التي أخرجتها غصّت صفحاتها بأسمائها وبإطراء الجهد في تحقيقها والإتقان في طباعتها .

والتحقيق فن بل علم دقيق يتطلب كفايات متعددة كما يعلم بعض القراء ، لا يتمكن منه إلا العلماء الأمناء . يقول الأستاذ عبد السلام هارون في كتابه « تحقيق النصوص ونشرها » إن تحقيق الكتاب معناه أن يؤدى الكتاب إداءاً صادقاً كما وضعه مؤلفه كمًّا وكيفاً بقدر الإمكان . وليس تحقيق المتن تحسينا أو تصحيحاً ، وإنما هو أمانة الأداء التي تقتضيها أمانة التاريخ وهو نتاج خلقي ، لا يقوى عليه إلا من وهب خلتين : الأمانة والصبر ، وهما ما هما[2] . وأكبر آفة منيت بها الآثار العلمية التصحيف والتحريف ، فلا يكاد كتاب يسلم منهما .

وللشدياق كلام في هذا المعنى يقول فيه أنه ظهر له بعد التروي : « أن كثيراً من الالفاظ تصحف على أهل اللغة من دون أن يشعروا بذلك فمروا عليها ومرت عليهم مراراً ولكن بدون تعارف ، وما ذاك إلا لأنهم لا يهمهم في الكلام التآلف » . ويروي في مقدمة كتاب الجاسوس بعضاً من القصص الطريفة « من ذلك ما حكاه أبو الحسن العسكري . قال : حكى القاضي أحمد بن كامل قال ، حضرت بعض مشايخ المحدثين من المغفلين فقال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل ، عن الله ، عن

رجل . فقلت من هذا الذي يصلح أن يكون شيخ الله ؟ فإذا هو قد صحفه ، وإذا هو « عزّ وجلّ »[٣] . وقال بعضهم يوماً : قال الشافعي : يستحب في المؤذن أن يكون صبياً . فقيل له ما العلة في ذلك ؟ قال ليكون قادراً على الصعود في درج المأذنة . وإنما هو « صيِّتاً » ، من الصوت[٤] » .

نقلنا هذه النماذج لكي نبين أن التحقيق عمل شاق لا يتقنه ولا يجوّد به إلا العلماء المتمكنون . وقد تجمعت للشدياق كل المميزات التي يتطلبها هذا الفن . وقد عاش مع المخطوطات منذ صباه ويعلم من أين يأتيها الخلل والاسقاط والتحريف والتصحيف .

لا نعلم بالضبط كم هو عدد الكتب التي حققها لا في المطبعة السلطانية ولا في مطبعته الخاصة . لأنه لم يذكر اسمه في مقدمات الكتب التي حققها ولا في خواتيمها ، ولكن بين ايدينا نحو ثلاثين كتاباً من الكتب التي أخرجتها مطبعة الجوائب والتي تيسر لنا الاطلاع عليها .

يمكن تقسيم هذه الكتب من حيث العلامات الفارقة إلى قسمين :

القسم الاول الكتب التي حققها معاونو الشدياق ، وقد ذكروا اسماءهم صراحة في خاتمة كل كتاب ، كالشيخ يوسف النبهاني في مقامات بديع الزمان وأمثال العرب للمفضل الضبي وديوان العباس بن الاحنف ثم الشيخ رسول النجاري في ديوان الطغرائي وكان معاونوه وهم من العلماء الأفاضل يضمنون خاتمة كتبهم فقرة في مدح صاحب الجوائب[٥] .

القسم الثاني : الكتب التي هي غفل من الاسماء وإننا نرجح أنها في معظمها من تحقيق الشدياق للاسباب التالية :

١ ـ خواتيم هذه الكتب كانت تنم بوضوح على انشاء الشدياق . فضلاً عن خلوها من مديح صاحب المطبعة .

٢ ـ خص الشدياق هذه الكتب بعنايته دون غيرها وتكلم عنها باسهاب في الجوائب .

٣ ـ إن عدم ذكر اسمه كان عادة له ، حتى الجوائب نفسها ، في أول أيامها

صدرت بدون أسمه ، وكل ما كان يكتبه في الجريدة كذلك هو غفل من اسمه فضلاً عن الكتب التي ترجمها .

٤ ـ كان يخص نفسه بعيون الكتب كرسائل بديع الزمان والموازنة بين أبي تمام والبحتري ورسائل الخوارزمي الخ . . .(*) .

وقد لا يكتشف المرء بادىء ذي بدء ، الاسلوب العلمي الذي أتبعه الشدياق ، ولا العناية التي بذلها في ضبط عمله واخراجه اخراجاً سليماً . وقد لا يتضح له الامر إلا بعد جهد ولكنه قد يطلعه أحياناً على بعض القواعد التي أتبعها في خاتمة الكتاب ، فيقول له مثلاً إنه استعان بنسختين من المخطوطات أو أكثر ، بحسب العدد المتيسر ، مع وصف المخطوطات ، الجيدة منها أو الرديئة ، وتاريخ كل منها ، دون اغفال اسم الناسخ ومبلغ تجويده في صناعته ، والمشكول منها وغير المشكول ، وذلك بعد أن ينبهه في سياق الكتاب، إلى المضطرب من الكلام، وإلى الفقرات المكررة، وأنها ابقيت على حالها ولم تمس لا بتركيبها ولا بترتيبها إذ ربما افادت الثانية فائدة لم تكن في الاولى كتقديم وتأخير وزيادة ونقصان .

ويختتم الكلام بذكر جهد المطبعة في دقة التصحيح وجودة الطبع وجمال الاخراج(٦) .

وهناك كتب أخرى من التي طبعتها مطبعة الجوائب يرجح أنها من تحقيق الشدياق لأنها كانت مجموعة من الكتب المدرسية التثقيفية وهي تصح أن تكون تتمة للسلسلة المدرسية التي بدأها في مالطة وهذه المجموعة هي « نزهة الطرف في علم الصرف » و« مجموعة في النحو » و« جنان الجناس في علم البديع » وكذلك ما هو من عيون الكتب في الادب والفلسفة كرسائل المقريزي وابن العديم وياقوت والثعالبي وابن سينا الخ . . .(٧) .

إن الثروة الادبية التي خلفتها مطبعة الجوائب في تحقيق الكتب لدليل واضح على شغف صاحبها واندفاعه لبعث التراث الضخم. وقد كان له في هذا المضمار نهم لا يشبع فنقلت على يديه ثروة ضخمة من المخطوطات إلى الطباعة(٨) . وإنه لمن المتعذر

(*) لقد تكرم الاستاذ علي حيدر النجاري نجل الشيخ رسول في مقال له نشر في مجلة الأديب (تشرين الثاني ١٩٨١) بتصحيح خطأ وقعنا فيه في الطبعة الأولى من هذا الكتاب وهو نسبة تحقيق ديوان البحتري إلى الشدياق والواقع إنه لوالده الشيخ رسول فنعتذر عن هذا الخطأ ونشكر له فضله .

احصاء الكتب التي حققها بنفسه . وما هو أصعب من هذا احصاء الكتب التي طبعتها مطبعة الجوائب .

ومن يراجع الفهارس المتيسرة بصورة اجمالية يجد أنه لم يبزها في زمانها في هذا المضمار إلا مطبعة بولاق . بيد أنه ليس من العدل اجراء مقارنة بين المطبعتين . فهذه مؤسسة عامة تخص الدولة وتنفق الحكومة المصرية عليها بسخاء وتلك مؤسسة خاصة تقوم على جهد صاحبها وحده وان يكن بمفرده مؤسسه.

وعلى كتف هاتين المؤسستين بدأ ذلك العمل العظيم في نقل التراث .

ثانياً : الترجمة

ترجمة الكتب المدرسية ـ ترجمة النصوص الدينية ـ ترجمة مجلة الاحكام العدلية ـ ابتكار الاسماء للمصطلحات والمخترعات الجديدة ـ ترجمة المقالات الصحفية .

كان أحمد فارس الشدياق المترجم جزءاً مهماً من الشدياق ككل ، فقد سلخ شطراً من عمره في الترجمة ، وكان يعتمد عليها في معيشته في فترات صعبة ما كان ليسعفه فيها غيركفايته كمترجم . وقد أحبها على الرغم من مرير شكواه منها لأنها كانت تمثل شيئين هو بهما عظيم الاعتزاز : قدرته اللغوية واطلاعه على الثقافات والحضارات المختلفة . بواسطتها دخل الكثير من الاوساط وعقد العديد من الصلات وتسلم الكثير من مفاتيح التقدم ، وفيها انفق اعصابه ، لا في العناء فحسب بل في مشاداتها ومناقشاتها ويكاد المرء يقول في سياساتها .

قال ذات يوم :

إذا كان رب البيت ادرى بما به ... فإني ادرى بالذي أنا كاتب
ومن فاته التعريب ، لم يدر ما العنا ... ولم يصل نار الحرب إلا المحارب
أرى الف معنى ما له من مجانس ... لدينا والفا ما له ما يناسب
والفا من الالفاظ دون مرادف ... وفصلا مكان الوصل ، والوصل واجب
واسلوب ايجاز ، إذا الحال تقتضي ... اساليب اطناب ، لِتوعى المطالب
وعكس الذي قد مرّ أكثر فاتَّئد ... ألا ايهاذا اللاّئمي ، والمعاتب

فيـا ليت قـومي يـعلمـونَ بـأنـي   عـلى نكـد التعـريب جَـدِّيَ ذاهـب

خضع عمل الشدياق في الترجمة لتطورات متعدِّدة ترتبط بتعدد موضوعاتها ، وربما أيضاً بسبب تطور ثقافته وتجددها ، وهنـاك تمايـز في ما أنتجـه في هذا المضمـار بدءاً من كتبه المدرسية في مالطة إلى ما ترجمه للجـوائب في اسطنبـول . ويمكن رؤ ية هـذا التمايـز بوضوح من خلال اطوار قسَّمناها إلى خمس مراحل :

١ـ تـرجمة الكتب المـدرسية . ٢ ـ تـرجمة الكتـاب المقدس ومـا يلحق به من كتب دينية . ٣ـ ترجمة مجلة الأحكام العدلية ومـا يشابهـا من قوانـين ومعاهـدات دولية . ٤ـ ترجمة أسماء المخترعات والمصطلحات الحديثة . ٥ـ ترجمة المقالات الصحـافية ، سيـاسية وغيرها .

* * *

١ ـ ترجمة الكتب المدرسية : « شرح طبائع الحيوان »

ذكرنا في فصل سابق اسماء الكتب المدرسية التي ترجمها الشدياق مع وصف مـوجز لهـا ونـختار من بينهـا الآن كتاب « شـرح طبائـع الحيوان »(٩) وهـو ، في ظننـا لتـلامـذة المدارس الابتدائية وينفرد هذا الكتاب بقيمة خاصة تفوق أي اثر قام بتـأليفه أو بتـرجمته حتى ذلك الوقت ، ذلك لأنه واجه فيه مشكلة من أهم المشاكل التي تعتـرض من يؤلف في العلوم الحـديثة أو يتـرجم هذه المـوضوعـات إلى العـربيـة ، فـالكتـاب يحـوي اسـماء لحيوانات غير معروفة عند العرب مما اضطره إلى اللجوء إلى اساليب متعددة منها :

أ ـ الترجمة ، اي ترجمة معنى الاسم .

ب ـ ابتكار الاسم بناء على طبائع الحيوان نفسه .

ج ـ التعريب ، اي الابقاء على الاسم الاصلي مـع تطويـره لتسهيل التلفظ بـه في اللسان العربي .

بالنسبة إلى الاسلوب الاول اي ترجمة الاسماء عن اصل فقد سمى نوع الحيوانات العليا ، اي القرود ، والتي يطلق على نوعها باللغات الاجنبيـة اسم(Primate) ، سمّى هذا النوع « المقدم » . وسمّى القردالمعروف باسم (Orang-outan) وهو من نوع المقدم « الانسـان الوحشي في الغـياض »(١٠) وهو تـرجمة حـرفية لاسم هـذا الحيوان في لغـة الملايو موطن هذا النـوع من القرود . وعنـدما وضـع الدكتـور جورج بـوست ، أحد

مؤسسي الجامعة الاميركية في بيروت ، كتاباً بالعربية لتدريس علم الحيوان شبيهاً بكتاب الشدياق ، أخذ هذا الاسم عنه[11] وكذلك فعل الفريق أمين المعلوف في كتابه : « معجم الحيوان »[12] . وسمى الشدياق الحيوان المعروف باسم (Gibbon-Hylobates) : القرد ذو اليد الطويلة وقال بوست : القرد ذو الذراع الطويلة وقال الشدياق عن نوع معين من القرود : ميمون ، والاسم مأخوذ من التركية أو الفارسية ، وأخذ الاسم نفسه بوست وجمعه على ميامين .

أما ابتكار الاسماء انطلاقاً من طبائعها فقد سمى الحيوان المعروف باللغات الاجنبية باسم (Bradypus) وهو من ابطأ الحيوانات حركة سماه الكسلان وأخذ عنه الاسم نفسه بوست والمعلوف . والحيوان المعروف باسم (Wolverine) وهو يعد من عائلة ابن عرس ، سماه الشدياق : الشره ، لاتصافه بهذا الطبع وأخذ المعلوف في معجمه الاسم نفسه وقال الشدياق عن الطائر المسمى (Avocetta) أو (Avocette) : نكّات وهو طائر مائي صغير قال المعلوف في سبب هذه التسمية : « أظن أن أحمد فارس سماه النكّات لأنه ينكت الرمل بمنقاره في البحث عن الديدان » ثم يقول المعلوف : « لا يخفى أنني أخذت كثيراً عن أحمد فارس ، أو عن الدكتور بوست ، وهو أخذ عن أحمد فارس وأنه يصعب كثيراً معرفة الالفاظ العلمية التي اوردها اولهما لأنه لم يذكرها . أما الدكتور بوست ، وكان معاصراً له فقد ذكرها ولعله أخذها عن الكتاب الذي ترجمه أحمد فارس ولولا ذلك لتعذر علي معرفة الاسماء العلمية » .

أما الاسماء التي عرّب لفظها فمنها القوطي للحيوان الذي يعيش في البرازيل واسمه الاصلي (Coati) والحيوان الاسترالي المعروف باسم (Kangourou) سماه قنغر والثور الاميركي المعروف باسم (Bison) سماه البيسون . وقد أخذ بوست والمعلوف هذه الاسماء المعربة جميعها . وكتاب الشدياق مليء بهذه الاسماء المترجمة والموضوعة والمعربة ، وقد استعان عند الترجمة ، بكتب كثيرة منها « كتاب حياة الحيوان الكبرى » للشيخ كمال الدين الدميري ، ويوصف هذا الكتاب بأنه غاية في القدرة ونهايةفي الابداع طبع في القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) ولما استعان به الشدياق سنة ١٨٣٥ كان الكتاب ما يزال مخطوطاً وقد يشير هذا الامر إلى عناء الشدياق ودقته فمن اجل كتاب لتلامذة صغار يستعين بالكتب الموسوعية ككتاب الدميري هذا وهو ما يزل مخطوطاً يصعب الحصول عليه . ومن الملاحظ أن الأسماء المبتكرة والمعربة بقي معظمها في القواميس الحديثة بينما سقط معظم الأسماء المترجمة .

(ب) الكتاب المقدس

الكتاب المقدس ، كما هو معروف ، كتاب ضخم . وهو يتألف من قسمين العهد القديم والعهد الجديد[١٣] واولهما كتب بالعبرانية ، أما الثاني فكتب بعضه بالآرامية ثم نقل إلى اليونانية وضاع الاصل الآرامي وبعضه الآخر كتب باليونانية مباشرة . وللكتاب المقدس ترجمات قديمة متعددة منها السريانية والآرامية واللاتينية ، وكذلك هناك ترجمات إلى اللغات القديمة الاخرى كالحبشية واليونانية والقبطية[١٤] . أما الترجمة إلى العربية فيقال إن اول من قام بها كان يوحنا اسقف اشبيليةسنة ٧٥٠ م . وقد نقلت عن الترجمة اللاتينية دون اعمال الرسل والرسائل والرؤ يا . وقد فرض هذا التعريب ضرورات متعددة ، منها تكاثر عدد المسيحيين العرب الذين يجهلون اللغات القديمة[١٥] . وقد فقدت معظم نصوص هذه الترجمة .

أما الكتاب المقدس الكامل والمترجم إلى العربية فان طبعته التي صدرت في روما سنة ١٦٧١ هي فيما نظن ، أمّ الطبعات الحديثة ، وقد ظلت معتمدة عند المسيحيين العرب إلى أن قامت تلك الحركة الناشطة في القرن التاسع عشر لترجمة الكتاب ترجمة جديدة . قام بهذه الحركة اولاً البروتستانت ثم تبعهم الآخرون . وقد ظلت طبعة روما مصدراً لمراجعة الذين يعنون بتعريب الاناجيل والتوراة حتى الآن . وكانت الطبعة هذه حصيلة العمل الذي قامت به لجنة برئاسة المطران سركيس الرزي بتكليف من مجمع نشر الايمان في الفاتيكان[١٦] .

لا تزال الاسباب المباشرة التي دفعت البروتستانت إلى ترجمة الكتاب المقدس ترجمة جديدة غير واضحة . وقد كان بامكانهم مثلا أن يطبعوا نسخة ١٦٧١ طباعة جديدة ويسقطوا منها ما لا يعترفون بقدسيته[١٧] . ولكنهم لم يفعلوا . ومحاضر جمعية نشر المعارف المسيحية (S.P.C.K.) لا تذكر أي سبب مباشر لهذا الموضوع . اغلب الظن انهم كانوا يشكّون في دقة ادائها للمعاني ومطابقتها للاصلين اليوناني والعبراني . لذلك اتجهت الجمعية المذكورة وبعد تردد طويل إلى « انشاء طبعة جديدة مترجمة عن لغات الاصل » . وكان يشجعها على هذا العمل كما تقول « الكنيستان السريانية والارثوذكسية » ، ثم اعتقادها أن ترجمة جديدة جيدة الاسلوب « قد يجعلها مقبولة لدى المسلمين »[١٨] . ومع ذلك فكان من بين الاعضاء من يدعو إلى اهمال تطوير الاسلوب والابقاء على النهج السائد لاسباب متعددة ومنهم من دعا إلى اعتماد اللهجات العامية[١٩] . ولذلك عندما كلفت الجمعية الشدياق في الترجمة وباشر عمله الضخم برز

الخلاف للمرة الثانية في قضية الأسلوب ، وقد كان الخلاف في المرة الأولى بين الشدياق والتتنجي يتعلق في الغالب بسلامة العبارة وصحة السبك ، كما رأينا ، أما الآن فسوف نرى أن الخلاف يدور في معظمه ، بين الشدياق والدكتور لي حول التركيز على حرفية الكلام أو التقيد بجوهر المعاني . والجدل في هذا الموضوع قديم قدم الترجمة .

قال الصلاح الصفدي : « للترجمة في النقل طريقان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما ، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية يراد فيها في الدلالة على ذلك المعنى فيؤتيها وينتقل إلى الاخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية . الثاني أن خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً . وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات .

الطريقة الثانية في التعريب طريق حنين بن اسحق والجوهري وغيرهما وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ ام خالفتها . وهذه الطريق أجود »[٢٠]

لم يكن الدكتور لي ، المشرف على الترجمة من هذا الرأي ، ولذلك كان الخلاف يتجدد بينه وبين الشدياق في كل آونة . وقد روى الشدياق في كشف المخبا طرفا من الجدل الذي كان يجري بين الاثنين . وهو يذكر عن الدكتور لي أنه بالرغم من علمه الواسع بالعربية إلا أنه لا يحسن التكلم بها وكانت له شهرة كبيرة عند الانكليز[٢١] .

وكان نظام العمل أن يقوم الشدياق اولاً بالترجمة ثم يجتمع الاثنان لمراجعتها ويجري الجدل على اختيار المفردات واسلوب الصياغة كما كانا يستعينان بطبعة روما والترجمات الانكليزية .

وكانت ترجمة العهد القديم عن العبرانية والعهد الجديد عن اليونانية والسريانية[٢٢] .

وكان الخلاف بين الاثنين لا يهدأ ، من ذلك ، كما يقول في كشف المخبأ ، أن الدكتور لي كان يحاول استعمال كلمة « هو ذا » في كل موضع يجدها في الاصل العبراني ، فإنه لا يمتنع فيها أن يقال مثلا : لأن هوذا أو « هو هوذا » . وكأن « هوذا » .

رجل . وكان يظن أن « إذا » في قولنا : « خرجت وإذا زيد بالباب » لا تغني مغناة « هوذا » . ومن ذلك ايضا ، أنه كان يريد المحافظة على الاصل بالاتيان بـ « قائلا » بعد « قال » مثال ، « قال قائلا » . مع أن هذا التركيب في لغة الانكليز منكر ، ولذلك كنا نجد في مفرداتهم « وتكلم قائلا » لا « قال قائلا » . وفي مثل قولنا « ضرب لهم مثلا » كان يبدل « ضرب » بـ « قال » لأنه كان يترجم في عقله لفظة « ضرب » إلى لغته فلا يجد له معنى سوى ايصال الألم . وكان يبدل « ماء البحر » بـ « مياه البحر » . وهذا لا محظور منه إلا أن تبديله هوس . وجزم بأن قولك في السؤال « ما يكون لنا » أبلغ من « ما عسى أن يكون لنا ، وإن « من ثم » التي يؤتى بها للسببية غير كثيرة الاستعمال ولا تسد مسد « لهذا » . وكان يزعم أن لفظة « المعجزات » ليست من كلام النصارى حتى وجدها في نسخة رومية .

وكان كلما رأى جملة تنتهي بالواو والنون أو الياء والنون يقول انها مضاهية لكلام القرآن فيبدلها . حتى إذا رأى هذه الجملة « وانتم على ذلك شهود » فقال «إن هذا الوقف يشبه وقف القرآن » فمن ثم بدلها « وأنتم شهود على هذه الاشياء » (لوقا ٢٤ ـ ٤٨) . ووجد عبارة اخرى وهي « وما اولئك بعابرين من هناك الينا » فقال هذا التركيب فصيح فبدل « عابرين » بـ « يعبرون » .

وزعم أن قولك مثلا « وكان رجل اسمه فلان » اخصر من قولك « يسمى » . وكلما رأى في الاصل عبارة كثيرة الالفاظ مما لا داعي له قال ان ذلك للتقوية . وإذا رأى فيه اجحافا ولو مع اخلال بالمعنى قال ان فيه حذفا للبلاغة . وكان يحاول أن يقول « واتفق أنه قال » و« اتفق أنه افتكر » فقلت له هذا لا يصح استعمالها مع الافعال التي لا تقتضي الندرة في الاستعمال فلا يقال مثلا « جاءني فلان واتفق أنه جلس » . فإنه لا ندرة في الجلوس بعد المجيء . فقال واين أنت من المحافظة على الاصل ؟ فكانت تأتي الآيات هكذا : « واتفق لما جلس معها أن أخذ خبزا »[٢٣] .

ومن ذلك ايضا الآية التي ذكر تصحيحها في « الساق على الساق » ولم يستطع ادراجها في تعريبه . فقد وردت في نسخة روما هكذا « احذروا لا يضلكم أحد فإنه سيأتي باسمي كثيرون قائلين أنا هو المسيح فلا تصدقوهم » (متى ٢٤ ـ ٤ و٥) وقد ترجمها الشدياق على الشكل الآتي « أن كثيرا سينتحلون اسمي فيدعي كل منهم بأنه هو المسيح » فلم يقبل الدكتور لي بهذه الترجمة . ولذلك اضطر الشدياق إلى استعمال ما ورد في نسخة روما مع استدراك وضعه بين هلالين فجاءت هكذا « احذروا لا يضلكم

احد ، فإنه سيأتي باسمي كثيرون قائلين (عن انفسهم) أنه هو المسيح ويضلون كثيرين » . وشتان بين نص الشدياق وبين ما انتهى اليه الدكتور لي . وقد استلفت نظر الاب قوشاقجي ورفيقية هذا الامر فقالوا « نرى التعريب الصحيح هو : سيأتي كثير من بعدي ينتحلون اسمي »[٢٤] .

انهى الشدياق ترجمة الكتاب في مدينة كمبردج في عشرين شهرا كان يصل العمل فيه الليل بالنهار ، مما دعا اللجنة أن تلفت نظره إلى أنه « من المستحسن أن يحد من نشاطه قليلا خشية أن تتأثر صحته من عناء العمل المتواصل »[٢٥] . ثم سافر إلى لندن وسلم عمله للجمعية . وتم طبع الكتاب المقدس برمته ، ترجمة الشدياق ، سنة ١٨٥٧ في مطبعة وليم وطس في لندن . اما المزامير فطبعت على حدة سنة ١٨٥٠ والعهد الجديد سنة ١٨٩٥١ .

وكان الشدياق يفخر بترجمته للكتاب المقدس وانجازه الضخم . وقد عاتب اخاه طنوس لأنه اغفل ذكره في « تاريخ الاعيان » ، فقال له « ثم لم تذكروا سبب قدومي إلى هذه البلاد وهو ترجمة التوراة ، وذلك مما يحق لي أن افتخر به » .

ولكي نقيّم عمل الشدياق ، على الوجه الصحيح ، رأينا مقارنته بالاعمال التي قام بها الاميركيون واليسوعيون في طبعتيهم المعروفتين .

١ ـ الطبعة الاميركية : وهي تعرف احيانا بترجمة فانديك . عمل المرسلون الاميركيون في التهيئة لها منذ أن وطئت اقدامهم هذه الديار ، وبالرغم من مطابقة هذا العمل في الرغبة والهدف والتوقيت لمشروع لجنة نشر المعارف المسيحية الانكليزية فإنه لم تجر ، كما يبدو ، أية مساع لتوحيد العملين .

نهض بالمشروع في اول الأمر المرسل عالي سمث فتعلم العربية إلى أن اصبح يتكلم بها في طلاقة ثم اتخذ المعلم بطرس البستاني مساعدا له . وابتدأ العمل في ١٨٤٨ وكان المعلم بطرس يقوم بالترجمة عن العبرية والسريانية واليونانية ويعرض النص على الشيخ ناصيف اليازجي الذي اتخذه سمث مراجعا ، واليازجي لا يعرف إلا العربية . فيعيد قراءة الترجمة بعناية ، مدققاً في صحة الاسلوب[٢٦] . وتوفي عالي سمث في سنة ١٨٥٧ . دون اتمام العمل . فقام من بعده بالمهمة الدكتور كرنيليوس فانديك الشهير . وكان يعرف السريانية والعبرية واليونانية والفرنسية والايطالية والالمانية . اما في العربية فقد كان يفوق سلفه بمراحل . ولكنه مع ذلك استعان بالشيخ يوسف الاسير لمراجعة

الترجمة . وكان يطبع من النص المعرب ثلاثين نسخة ويوزعها على ارباب اللغة من مسلمين ونصارى ومستشرقين . وكانت هذه النسخ تعاد اليه مع ملاحظات كل منهم . فكان يراجع هذه الملاحظات وعلى هذا الشكل ايضا نقح العمل الذي قام به سلفه سمث في العهد الجديد .

وظهرت الطبعة الأميركية الأولى من العهد الجديد سنة ١٨٦٠ ثم طبع الكتاب المقدس برمته سنة ١٨٦٥ . وصدر من طبعته الأولى أربعون ألف نسخة .

ما أن صدرت الطبعتان الجديدتان على يد البروتستانت حتى قام الآباء اليسوعيون هم أيضاً بترجمة الكتاب المقدس كاملاً لأن الطبعات البروتستانتية كانت قد ظهرت بدون الأبو كريفا كما يبدو فشوه البروتستانت الكتاب بنظر الكنيسة الكاثوليكية، و«مدوا أيديهم إلى الأسفار الالهية بالتحريف والحذف، كما جاء في مقدمة الطبعة الكاثوليكية ، وترجموها إلى اللسان العربي ونشروها على تلك الحالة في كل وجه من البلاد الشامية وغيرها ، وزينوها في عيون الناس بالطبع وجمال الاشكال ورخصوا اثمانها ليستميلوا اهل السلامة إلى الاقبال عليها » لذلك طلب رؤساء الطوائف الكاثوليكية من الآباء اليسوعيين أن يقوموا بانشاء طبعة جديدة من الكتاب المقدس ولكن « على اصله من الصحة والكمال صيانة للمؤمنين ولوضع حد لاولئك المبدعين فيما اجترأوا به على كتاب الله عزّ وجلّ من محو آيات وحذف اسفار منه برمتها وادعائهم أن الاسفار القانونية الثانوية ليست من الكتاب الكريم » . ثم تذكر المقدمة ايضا أن الآباء اليسوعيين استأذنوا الفاتيكان قبل القيام بعملهم الجليل فجاءتهم الموافقة .

ولم تعرف اسماء الفريق الذي عمل في هذه النسخة ، إلا أنه يقال أن مهمة العمل ألقيت على عاتق الاب روديل اليسوعي وكان الشيخ ابراهيم اليازجي يراجع النص ليصححه من جهة التركيب اللغوي .

وكان أثر اليازجي في العهد القديم اكبر فجاء اسلوبه رشيقا ، مع المحافظة على اصالة المعاني أما في العهد الجديد فقد كان أثره اقل[٢٧] . وكان اليازجي بدافع الدقة العلمية ، قد تعلم العبرية ليعود اليها عند تسديد المعنى في العربية .

واستغرق العمل في هذه النسخة نحو تسع سنوات . وبدىء بطبعها سنة ١٨٧٦ ولم تنته إلا سنة ١٨٨٢ . وكان اخراجها في ثلاثة مجلدات في شكل انيق لم يرَ مثله من قبل في المطبوعات العربية .

وفي ما يلي جدول في تاريخ صدور النسخ الثلاث في مجلداتها الشاملة أو في بعض اسفارها المتفرقة . والجدول يوضح سبق ترجمة الشدياق لغيرها .

	بدء العمل	طبع المزامير على حدة	طبع الاناجيل على حدة	طبع الكتاب المقدس برمته
طبعة الشدياق	١٨٤٨	١٨٥٠	١٨٥١	١٨٥٧
الطبعة الاميركية	١٨٤٨		١٨٦٠	١٨٦٥
الطبعة اليسوعية	١٨٦٧			١٨٧٦ «المجلد الاول» ١٨٨٢ « المجلد الثاني والثالث »

يقول منشىء « العيد المئوي لنقل المطبعة الاميركية إلى بيروت » إن المطبعة الاميركية المذكورة كانت « مسقط رأس التوراة العربية في طبعته الحديثة »[٢٨] إن هذا الكلام ولا شك هو نوع من الاشادة بهذه المطبعة ، وهي خليقة بكل اشادة ولكن الواقع هو أن مطبعة وليم وطس في لندن هي مسقط رأس الكتاب المقدس في طبعته الحديثة فقد سبقت طبعة الشدياق طبعة فانديك بنحو ثماني سنوات .

عند مقارنة اعمال الترجمات الثلاث نجد أنه كان لترجمة الشدياق عناية خاصة في انتقاء المفردات . فهو في مواقع معينة من الكلام يختار كلمة قوم بدلا من الشعب . فالقوم هم الناس الكثيرون الذين يجتمعون في مناسبة ما أو هم القبيلة أو العشيرة ، أو العائلة الكبيرة ولذلك يأتي تعريبه هكذا : « ولما أتم اقواله كلها في مسامع القوم دخل كفر ناحوم » (لوقا ٧ ـ ١) « ووقف القوم ينظرون » (لوقا ٧ ـ ٣٥) ورجع داوود وجميع القوم (اخبار الايام الاول ٢٠ ـ ٤) . وهذا بخلاف ترجمة فانديك واليسوعية فانهما تقولان : الشعب . اما الشعب ، فهو عند الشدياق ، ذلك الكيان البشري الذي يتألف من الجماعات والعشائر والاقوام ، مثال ذلك « شعب الارض » (تكوين ١٥ ـ ٥) . « وكانوا يخافون الشعب » (لوقا ٢٢ ـ ٢) . « إن الرب يدين الشعوب » (مزمور ٧ ـ ٨) . « لماذا هاجت الأمم ولهجت الشعوب » (مزمور ٢ ـ ١) . ثم هو يفضل أن يقول : امام وجه الله . فجاءت الآية هكذا : « ادخلوا امام وجه الله بترنم » (المزمور

المئة) . وقالت الطبعة الاميركية : في حضرته . وقالت الطبعة اليسوعية : امام الله . ثم يفضل ملك على « ملاك » : « فجاء الملكان إلى سدوم » (تكوين ١٩ ـ ١) « فقالت مريم للملك كيف يكون هذا » ؟ (لوقا ١ ـ ٣٤) ويقول عباد الله بدلا من عبيد الله . « فالله لا يفعل امرا إلا ويكشف سره لعباده الانبياء » (عموس ٣ ـ ٧) . وتقول الطبعة الاميركية واليسوعية : عبيده .

وقد نظم الشدياق في موضوع المفردات هذه قصيدة ساخرة قال فيها :

وإن نسبة «المولى» إلى الله منكر ... ومن «ولوًّا الادبار» كلّ يحاذرُ
و«للشعب» دون «القوم» معنى مشهر ... وفي «مَلِكٍ» لا في «ملاك» كبائرُ
وأن «عبيدا» لا «عبادا» مضافةً ... إلى الله أولى ما لِذا الحكم ناكرُ
وأن «عذابا» «كالركاكات» جمعُهُ ... وإن لم يرادف باقي الشيء سائرُ
وما «واعظيها» قيل بل «موعظينها» ... ومن قال «ادّوا» دون «ودّوا» مكابرُ
و«يظهر» يُلغيه «يَبان» نظيرهُ ... وصرنا بَنينا بالتذخر كاثرُ

ومراقبة المرء لاخذه بجريرة ما هي عند الشدياق ترصد : « فترصدته الكتبة والفريسيون » (لوقا ٦ ـ ٧) . وتأتي هذه الكلمة عند فانديك مراقبة : وكان الكتبة والفريسيون يراقبونه » وكذلك قالت اليسوعية : يراقبون . واختيار الله لبعض انبيائه والصديقين هي اصطفاء . وتأتي في ترجمة الشدياق : « لاجل داود عبدي الذي اصطفيته » (سفر الملوك الاول ١١ ـ ٣٤) . وعند فانديك تأتي : « لاجل داود عبدي الذي اخترته » . أما اليسوعية فقد نقلت اختيار الشدياق فقالت : « لاجل داود عبدي الذي اصطفيته » .

والسفر ليلا عند العرب اسراء . فقال الشدياق في ترجمته : « فقام وأخذ الطفل وأمه ليلا وأسرى إلى مصر » (متى ٢ ـ ١٤) . أما ترجمة فانديك واليسوعية فتقولان : « فقام وأخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف إلى مصر » . ومعرفة الغيب والمستقبل هي : الكشف ولذلك قال الشدياق في ترجمته : « كشف يسوع المسيح الذي اعطاه الله اياه ليكشف لعباده ما يقتضي أن يكون عن قريب » (كشف لمار يوحنا الانجيلي (١ ـ ١) اما ، عند فانديك ، فقد وردت هكذا : « اعلان يسوع المسيح الذي اعطاه اياه الله ليدي عبديه ما لا بد أن يكون عن قريب » وتقول نسخة اليسوعية : « وحي يسوع المسيح الذي أتاه الله ليكشف لعباده ما سيكون عن قريب » . ويسمي الشدياق هذا

الفصل : « الكشف لمار يوحنا الانجيلي » وتقول نسخة فانديك « رؤ يا يوحنا اللاهوتي » وتقول اليسوعية « رؤ يا القديس يوحنا » .

وتقول ترجمة الشدياق حكاية عن السيد المسيح عليه السلام «فإنكم إن احببتم من يحبكم فأية منة لكم ؟ » وتقول الاميركية : « فأي فضل لكم » ؟ اما اليسوعية فنقلت اختيار الشدياق فقالت : « فأية منة لكم ؟ » (لوقا ٦ ـ ٣٢) .

عندما انهى الشدياق مهمته كان قد دفع بتعريب الكتابات الدينية اشواطا بعيدة . وظلت ترجمته مرجعا لكل محاولة أتت بعده فقد كان يمتلك ناصية اللغة امتلاكا عزّ على انداده وفي ذهنه من المترادفات والمفردات ما يشبه القاموس وفي بيانه اشراق ووضوح وفي الفاظه جزالة وأصالة لا نجدها إلا في الذروة من ادباء العربية . كان يسبك الجملة سبكا عربياً اصيلاً فيه جزالة اللفظ وصحة التركيب وجمال الأسلوب . فكان همه الأول المعنى واداءه في بلاغة . هذا إذا كان طليق اليدين ، ولم يكن الأمر كذلك في معظم الأحيان .

يقول العلامة المؤرخ المطران يوسف الدبس « إن ترجمة الشدياق للكتاب المقدس هي اصح الترجمات »(٢٩) .

أما الاميركيون فقد كانوا يحرصون ، كما يقول الدكتور جبور عبد النور ، على أن تكون اعمالهم اقرب إلى النص العبري حتى ولو كان ذلك على حساب سلامة التعبير في اللغة العربية .

وكانوا فيما يبدو يفرعون الجملة إلى كلمات ثم يأتون بما يرادفها في العربية وينظمون ما تحصل لديهم جملة عربية بعيدة عن حسن التركيب وصحة التعبير . وهكذا كانت تأتي العبارة فيها التباس « يؤدي إلى عدة معان »(٣٠) .

ولكن القس سيكل سيل صاحب كتاب « المرشد إلى الكتاب المقدس » يقول إن « ترجمة سمث ـ فانديك تمتاز بدقتها وبساطة اسلوبها بحيث يستطيع فهمها العامة من الشعب »(٣١) .

أما اليسوعيون فقد كانوا يعلقون الاهمية الكبرى على المعنى وكانوا ينقلونه في قالب ادبي سليم . وكانوا كما جاء في خاتمة المجلد الاول ، يضيفون احيانا كلمة لاكمال الجملة ويحذفون احيانا اخرى كلمة ليجعلوا العبارة اكثر اتساقا واجمل ايقاعا .

وفي ما يلي امثلة ثلاثة لآيتين من المزمور الستين كما وردتا في النسخ الثلاث :

تعريب الشدياق	فانديك	اليسوعية
١ ـ اللهم انك كنت	يا الله رفضتنا ،	اللهم اقصيتنا وكسرتنا
اقصيتنا وكسرتنا وسخطت	اقْحمْتَنا، سَخِطْت	،وغَضِبْتَ ، لكنك تعود
علينا، والآن فعد الينا .	ارجعنا.	الينا .
٢ ـ وكنت قد زلزلت	زَلزلتَ	زَلْزَلْت
الارض وفطرتها ،	الارضَ	الارضِ وصَدّعْتَها ،
فاجبِرِ الآن كَسْرها	اجْبِر كَسْرها	واجْبِرْ كَسْرَها
فانها قد مادَتْ	لأنها مُزعزعة	فانها مزعزعة

وبالواقع فإن المقارنة بين الاعمال الثلاثة قد تطول . ولكنها تصح فيما نعتقد بين ترجمة الشدياق والاميركان اكثر مما تصحّ مع ترجمة الآباء اليسوعيين لأن العملين الاولين قاما في وقت واحد وفي جو ادبي ولغوي متشابه أما ترجمة الآباء اليسوعيين فقد أخذت من الطبعتين السابقتين زبدتها . وكان نصيبها من الشدياق أوفر . ثم أنها جاءت بعد عمل الشدياق بنحو ربع قرن ويزيد . وكانت الكتابات الادبية قد تطورت والبيان العربي قد نهض وعاد إلى اشراقه .

يلاحظ المتتبع الباحث أن طبعة الشدياق كانت اقلها انتشارا لا بل هي بحكم المفقودة . قال الشيخ نسيب وهيبه الخازن « إنه قد يكون اسلوبها هو السبب في اهمالها »(٣٢) . بينما يقول الاستاذ عجاج نويهض « إن الجمعية التي كان يمثلها الدكتور لي في لندن لترجمة الكتاب المقدس ، لما رأت أن المترجم قد اسلم في تالي حياته ، وهو وحده كان مضطلعا بعبء العمل مع الدكتور لي رأت أنه اولى بالترجمة أن تطوى ، بعد أن طبعت ولا توضع في التداول»(٣٣) . ويردّ جرجي زيدان السبب إلى « أن الشدياق والدكتور لي عولا على الترجمة الانكليزية المعروفة بنسخة الملك جيمس وفيها اغلاط تسربت إلى الترجمة العربية »(٣٤) .

(ج) مجلة الاحكام العدلية

إن اهم ما اخرجه الشدياق على صعيد الترجمة ، في نظرنا ، بعد ترجمة الكتاب المقدس ، هو ترجمة مجلة الاحكام العدلية(٣٥) .

ومن له المام بتاريخ الدولة العثمانية وتطور العلوم القانونية فيها يرى أن القرن التاسع عشر كان عهدا نشطا في وضع القوانين ونشرها كقانون التجارة وقانون الاراضي وسلسلة القوانين الاصلاحية المعروفة بالتنظيمات الخيرية ، بيد أن اشهرها في ما نعتقد هو قانون « مجلة الاحكام العدلية » وهو مأخوذ في اغلبه من المذهب الحنفي مذهب الدولة الرسمي . وضعته لجنة من كبار علماء الفقه برئاسة احمد جودت باشا المؤرخ المشهور ووزير العدل يومذاك وكان كتاب « الاشباه والنظائر » لابن نجيم من اهم المصادر التي اعتمدتها اللجنة المذكورة وصدر القانون سنة ١٨٦٩ باللغة التركية .

وهو يحتوي على ١٨٥١ مادة مقسمة إلى مقدمة وستة عشر كتابا ، والمقدمة مؤلفة من مئة مادة ، الاولى منها في تعريف علم الفقه والتسع والتسعون في المبادىء العامة وتعرف هذه المواد التسع والتسعون بـ « القواعد الكلية » ، أي القواعد التي لم تدخل قاعدة منها تحت اخرى .

كان من المحتم أن يترجم هذا القانون إلى العربية لفائدة المتقاضين والقضاة العرب . ولذلك قالت اللجنة في الديباجة إنه « حصلت المبادرة إلى ترجمته إلى العربية »(٣٦) ولكنها لم تشر في كلامها إلى الجهة التي احيل اليها القانون لترجمته . ثم صدر القانون باللغة العربية في مطبعة الجوائب سنة ١٢٩٧ (١٨٨٠) فاتجهت معظم الصحف العربية ، الصادرة في ذلك التاريخ ، بتقريظها إلى الشدياق على أنه صاحب هذا العمل الكبير(٣٧) .

وقد يستغرب المرء أن يرى الشراح العرب ورجال القضاء منهم والفقهاء والذين اكبوا على قانون المجلة في شروحهم ودراساتهم ، يغفلون الكلام عن الترجمة وصاحبها بالرغم مما امتازت به من فصاحة واصالة تلفتان نظر القارىء العابر فضلا عن الباحث المدقق . وقد يعود الأمر إلى أن صاحب الجوائب تجنب ربط اسمه بهذا الكتاب وهي عادة التزمها سواء في الكتب التي ترجمها أو في الكتب والمخطوطات التي حققها كما رأينا ، فضاع بهذا الاغفال فضل صاحب الفضل .

لا بد لنا من أن نستدرك أن عمل الشدياق في المواد التسع والتسعين الاولى ليس هو المقصود فمصادرها كلها عربية ، فكان على الشدياق أن يلجأ إلى هذه المصادر ، وقد ذكرتها اللجنة في الديباجة ، ويعيد صياغة العبارة كما هي في اصولها . وقد ورد معظمها في كتاب ابن نجيم .

المجلة

وهي تحتوي على القوانين الشرعية والاحكام العدلية المطابقة
للكتب الفقهية حررتها لجنة مؤلفة من العلماء المحققين
والفقهاء المدققين وبعد ان وقعت لدى الباب
العالي موقع الاستحسان تعلقت الارادة
السنية بان تكون دستورا
للعمل بها

الطبعة الثانية

معدلة ومصدق عليها من جمعية المجلة الكائنة بباب
المشيخة الاسلامية الجليلة

قسطنطينية

طبعت في مطبعة الجوائب
الكائنة امام الباب العالي
١٢٩٨

الصفحة الأولى من « المجلة »

فالمادة الثانية من القانون مثلاً والتي تقول « الأمور بمقاصدها » وردت في القاعدة الثامنة من كتاب الأشباه والنظائر . والمادة الرابعة « اليقين لا يزول بالشك » وردت في القاعدة الثالثة من الكتاب المذكور . والمادة ٣٤ « ما حُرم أخذه حُرّم اعطاؤه » وردت في القاعدة الثالثة . والمادة ٥٩ « الولاية الخاصة اقوى من الولاية العامة » هي القاعدة العاشرة . والمادة ٦٦ « السؤال معاد في الجواب » هي في القاعدة الحادية عشرة والمادة ٦٧ « لا ينسب إلى ساكت قول » هي في القاعدة الثانيبة عشرة . وهكذا دواليك[٣٨] .

اما المواد الباقية أي ما بعد المئة فهي مترجمة ترجمة حرة الا القليل منها وفي هذه المواد تبرز كفاءة المترجم الحقيقية في اختيار المفردات التي تؤدي المعاني اداء محكما فضلا عن قالب السبك العربي الواضح والجميل .

وقد اشترت الدولة من مطبعة الجوائب ثلاثمئة مجموعة وزعتها على المحاكم في البلدان العربية[٣٩] ولما نفدت الطبعة الاولى طبع للمرة الثانية سنة ١٨٨٠ في مطبعة الجوائب ايضا والثالثة في بيروت باشراف الشيخ يوسف الاسير والشيخ احمد عباس الازهري سنة ١٨٨٤ .

والرابعة في مطبعة الجوائب في اسطنبوك سنة ١٨٨٧ . ولسليم رستم باز طبعة صدرت سنة ١٨٨٨ مع شروح مسهبة ، ثم كرّت الطبعات .

(د) ابتكار الاسماء للمخترعات والمصطلحات الجديدة

من أهم خصائص جريدة الجوائب لا سيما في صدر حياتها ، أنها كانت تعتمد اعتمادا اساسيا على الترجمة مما كان يضعها امام معضلة ايجاد الاسماء العربية للمسميات الجديدة ، التي داهمت اللغة العربية بسبب المدنية الجديدة والحضارة الاوروبية في الاختراعات والانظمة السياسية والمبادىء الاجتماعية والادارة المتطورة والمصالح التجارية المعقدة والمواصلات وفي الآداب والعلوم والفنون الخ . . . فتصدى الشدياق لمعالجتها في الجوائب وفي كتبه قبل الجوائب ورسم الطرق الفضلى لاستيعابها .

وذهب صاحب الجوائب في معالجة الحلول إلى الدعوة لانشاء هيئة على غرار ما نعرفه اليوم بـ « المجمع العلمي » أو « المجمع اللغوي » يناط بها بحث ايجاد الالفاظ المناسبة لهذه المسميات . وقد رددت الصحف العربية يومذاك دعوته[٤٠] .

ومن رأيه أنه إذا ما بدت مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استحدث من

الفنون والصنائع ، مما لم يكن يخطر ببال الاولين ، من العرب ، فهذا لا يعتبر من القصور إذ لا يحتمل أن واضع اللغة يضع اسماء لمسميات غير موجودة وانما القصور هو في أن نستعير هذه الاسماء من اللغات الاجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا .

والاسماء هذه في اكثرها من قبيل اسم المكان أو اسم الآلة، وصوغ اسم المكان واسم الآلة في اللغة العربية موجود في كل فعل ثلاثي : « فما الحاجة إلى أن نقول فبريقة أو كارخانة ولا نقول معمل أو مصنع الخ . . . » .

وذهب في انتقاده حتى العرب القدامى لأنهم «لم يقدروا لغتهم فعدلوا عنها إلى اللغات الاعجمية من دون سبب موجب فلو نشأ في القرن الاول من الاسلام جمعية ادبية مما يعرف عند الغربيين بلفظة اكاديمي لما دخلت الفاظ العجم في العربية . ولقائل هنا أن يقول ان دخول الالفاظ الاعجمية في العربية غير منكر وكل لغة من اللغات لا بد من أن يكون فيها دخيل فاللغة هي بمنزلة المتكلمين بها فلا يمكن لأمة أن تعيش وحدها من دون أن تختلط بأمة اخرى . وهذا هو اصل التمدن . والجواب أن هذا الدخيل انما يغض عنه إذا لم يوجد في اصل اللغة ما يرادفه أو لم يكن صوغ مثله فأما مع وجود هذا الامكان فالاغضاء عنه مبخس لحق اللغة » .

وهناك وجه آخر في العربية لصوغ الالفاظ تسد مسد الالفاظ الأعجمية التي إضطررنا إليها وهو باب النحت ، وهو نوع من الاختصار .

« والنحت في اللغات الأجنبية له نظير فكلمة جغرافيا وفلسفة وجيولوجيا كلها الفاظ يونانية منحوتة أو مركبة واليونانية لا تفضل لغتنا لأن الألفاظ البسيطة عندنا أكثر من المركبة وهي أفضل ما لم تحوج الضرورة إلى التركيب أو النحت . وإذا ساغ للمستغربين أن ينحتوا الفاظاً فهو يسوغ لنا أيضاً « فهم رجال ونحن رجال » ثم أن المعنى الحرفي والمجازي في العربية أفضل منه في غيرها ، فقولنا « الفهم » خير من قول الفرنسيين « كمبراندر » ومن قول الانكليز « أندرستاند » ومعنى الأول « مع الأخذ » ومعنى الثاني « تحت القيام »(٤١) .

ولم يقف الشدياق متوانياً متردداً منتظراً ، بل أخذ في إيجاد بعض الحلول التي يجب أن يأخذ بها الكاتب ، منها استعمال الفاظ عربية تفي بالمرام ومنها الترجمة الحرفية ومنها ترجمة المعنى بكلمتين أو أكثر ومنها النحت كما قال .

الالفاظ التي وضعها وما نزال نستعملها :

الباخرة ، الأشتراكية ، الجامعة ، الطابع ، الملاكمة الخ . . .

بعض الالفاظ التي استحدثها الشدياق في العربية ولدت على قلمه بالتدرج في كتاب كشف المخبأ أولاً ولكن أكثرها وأقواها على البقاء كانت تلك التي وضعها أيام الجوائب . وكانت اللفظة تأتي عادة ، ثمرة تدرج في محاولات متعددة لتأدية المعنى على الوجه الأصح . وهذه المراحل كانت بمثابة سنّة عنده فكان يعيد النظر إلى اللفظة التي يضعها فيبدل بها لفظة أخرى ، ويتقلب الاسم بين يديه ويطول هذا التقلب حتى يطمئن ضميره العلمي .

فكلمة **الباخرة** مثلاً ، وهي من وضعه ، استعمل لها في بادىء الأمر وفي أول معرفته بهذا النوع من السفن « **مركب النار** » «**وسفينة النار**» باعتبار أن النار هي الدافع الأساسي الذي يسيّر هذه السفينة بدلاً من الهواء في الشراع . ولما تعرف ماهية البخار وإنه هو الدافع والمحرك لا النار قال «**سفينة البخار**» ثم السفينة الباخرة واختصرها أخيراً «**الباخرة**»[٤٢] ، لأنه يفضل ألا يجعل للاسم إضافة أو نعتاً ، كما يقول : «فسفينة البخار وميزان الهواء والمنظارة المكبرة تأتي مستطيلة ونحن الآن في زمن يحض على الترقي والاختصار » . بدأت سفينة النار رحلتها في الساق على الساق ورست في كشف المخبأ والجوائب : باخرة .

والشدياق هو الذي وضع كلمة « **الاشتراكية** » للمعنى الذي نعرفه اليوم لهذه الكلمة .

دخلت هذه اللفظة للمرة الأولى اللغة العربية في نص ورد في الجوائب بتاريخ ١٢ حزيران ١٨٧٨ تحت عنوان « كبح الاشتراكيين » ، ففي سياق الكلام قالت الجريدة انه « ورد تلغراف من لندرة بتاريخ ٩ حزيران يقول ان الرئيس بسمارك طلب من الدول ان يتشبثوا الوسائط اللازمة لأحباط أعمال الاشتراكيين ويعطوا مرخيصهم في المؤتمر أوامر بهذا الخصوص » وفي خبر آخر بعد نحو شهرين قالت الجريدة : انه « قبض على كثيرين من النهيليست الاشتراكيين بسبب إطلاق النار على الجنرال مزنتزوف » .

وفي العدد التالي قالت أيضاً تحت عنوان « الاشتراكيون في الروسية » : « تفاقمت الحركة الاشتراكية السرية في روسيا وإنها تهدد القيصر بالقتل الخ . . . » وإنه « القي

القبض على جماعة حزب النهيليست وهم **الاشتراكيون** ويقال لهم في جرمانيا سوسياليست وفي فرنسا كومنست وإنه قتل زعيمهم ويُقال له إيفان كوفالسكي » .

وبالعودة إلى التاريخ السياسي لتلك الحقبة نجد أن الجماعة الثورية في روسيا التي القى عليها الحكم القيصري القبض هي جماعة الثوريين الديمقراطيين وزعيمهم تشرنيتشفسكي . ولم يكن هؤلاء النهيليست أي « العدميين » وإن كان القيصريون قد ألقوا عليهم هذا الأسم . وكان من مبادئهم رفض الرق والنظام البرجوازي وكان لهم برنامج إيجابي يتضمن مُثُلاً اشتراكية .

أما من سماهم بالاشتراكيين في جرمانيا فهم حزب العمال الاشتراكي في المانيا الذي نتج عن حركة ماركس وكان أنجلز من أعضائه .

وفيما يتعلق بفرنسا فربما كان الشدياق قد قصد جماعة الكومونار عموماً وكان من ضمن الكومونار الشيوعيون .

وهكذا نرى أن الشدياق أطلق أسم الاشتراكيين على أصحاب المذاهب اليسارية بمجملهم .

وقبل أن يستقر الشدياق على استعمال لفظة **الاشتراكية** بنحو ست سنوات كان يشير إلى أصحاب هذه المبادىء بعبارات مطولة فيقول أحياناً « أصحاب هذا المذهب أعني مشاركة الأغنياء أملاكهم » .

وكان في أحيان أخرى يطلق عليها أسماً مركباً فيقول **طريقة الاشتراك** أو **مذهب الاشتراك** و **أهل الاشتراك** و **حزب الاشتراك** كما نجد ذلك في كلامه عام ١٨٧١ عن الكومون في فرنسا . ثم غاب إهتمام الشدياق بالاشتراكية والاشتراكيين إلى أن وقعت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٧٧ فنشط في الدعوة للدولة والانتصار لها ، ومهاجمة روسيا ، ونشر الأخبار السيئة عنها ، وعن الفساد المستشري بين طبقاتها ، وتضعضع الحكم فيها . وعن الحركات الثورية السرية .

واضطر إلى البحث مراراً ومجدداً عن لفظ يؤدي المعنى ، ولكن إلى أن يجد ما يرتاح إليه كان يضع المصطلح الغربي مع التفسير ، فيقول مثلاً « الصوشياليست القائلين بالاشتراك في الأملاك »(٤٣) .

وظل هذا دأبه إلى أن وضع المصطلح الأخير ونراه للمرة الأولى في العدد ٩٢٨ كما ذكرنا .

أما كيف بدأ الشدياق في وضع اللفظة نفسها فإنـه قد إنـطلق في ذلك من جـوهر هذه المبادىء ، ولم ينطلق من محاولة الترجمة اللفظية أو الحرفية .

ففي سياق شرح مبادىء الكومون وردها إلى أصولها الأخلاقية والأنسانية والـدينية يقول :

« إني أرى من المفيد أن أبين الأصل الذي بنى عليه هذا الحزب عقيدته في مشاركة ذوي الأموال ، وهو ما ورد في آخر الفصل الرابع من سفر يقال له عنـد النصارى سفـر أعمال الرسل ، وهو عندهم من الأسفار المـوحى بها كـالانجيل والـزبور والتـوراة وهذه ترجمته » :

« وكـان الجميع الـذي آمن منهم على قلب واحـد ونفس واحـدة ، ولم يكن أحـد منهم يقول عن الشيء الذي يملكه إنه له بل كان شيئاً مشتركاً . ولم يكن أحدهم محتاجاً لشيء لأن الذين كانوا يملكون عقاراً ودياراً على كثرتهم ، كانوا يبيعونها ويأتـون بثمن ما بـاعـوه ويضعـونـه عنـد أقـدام التـلاميـذ ، فكـان يـوزع منهم عـلى كـل واحـد حسب حاجته »(٤٤) .

ثم يقول الشدياق :

« هذا ما قصدنا إيضاحه على سبيل الأخبـار لا على سبيـل الانتقاد ليكـون معلوماً مذهب هذا الحزب الذي كاد يسري في هـذه الأيام إلى أحـزاب كثيرة من أولى الصنـائع والحـرف . فإنهم كلما تبـطلوا عن العمل قـام في خـاطـرهم أنـه يجب عـلى الأغنيـاء أن يمونوهم وعيالهم ، والحق أن إغاثـة العاجـزين عن معاشهم أمـر واجب على المستـطيعين والمطيقين ولكن بصورة سديدة ، كأداء الزكاة والصـدقات ، مثـلاً ، إلى بيت المال وهـو عـلى مقتضى قولـه تعالى : « والـذين في أموالهم حق معلوم للسـائل والمحـروم » وحينئذ يصير توزيع ذلك بأمر الدولة السائدة »(٤٥) .

وأظن هنا أيضاً ، أن عبارة « كان لهم كل شيء مشتركـاً » الواردة في سفـر أعمال الـرسل قـد استلفتت نظر القـارىء ، كما استلفتت نـظر الشديـاق بـاعتبـارهـا الجـوهـر الأساسي لأفكار هذه الجماعة وباعتبارها الجملة التي اقتبس منهـا المصطلح الـذي أطلقه على مبادئهم « طريقة الاشتراك » .

ومن هذا كله نرى أن الشـدياق لم يـرتكز عـلى المصطلح الأوروبي لإيجـاد المرادف العربي . بل إنه وضع اللفظ وضعا استنتاجيـاً من مبادىء الفكـرة القائلة بـأنه «كان لهم كـل شيء مشتركـاً » فهي ليست ترجمـة لكلمة « سـوسياليـزم » ، وقد تكـون أقـرب في مؤداهـا إلى « الكومـونزم » وإن لم تكن تـرجمة لهـا . وإني أراها في العـربية أدق أداء من المصطلحات الأوروبية وأصدق تعبيراً للمعنى المقصود(٤٦) .

وهكـذا يتضح التـطور الذي دخـل على هـذه اللفظة قبـل أن تستقر عـلى شكلها النهائي الذي نعرفه الآن . ويتضح أيضاً الجهد الفكري واللغوي الذي بذله الشدياق في إبتداعها .

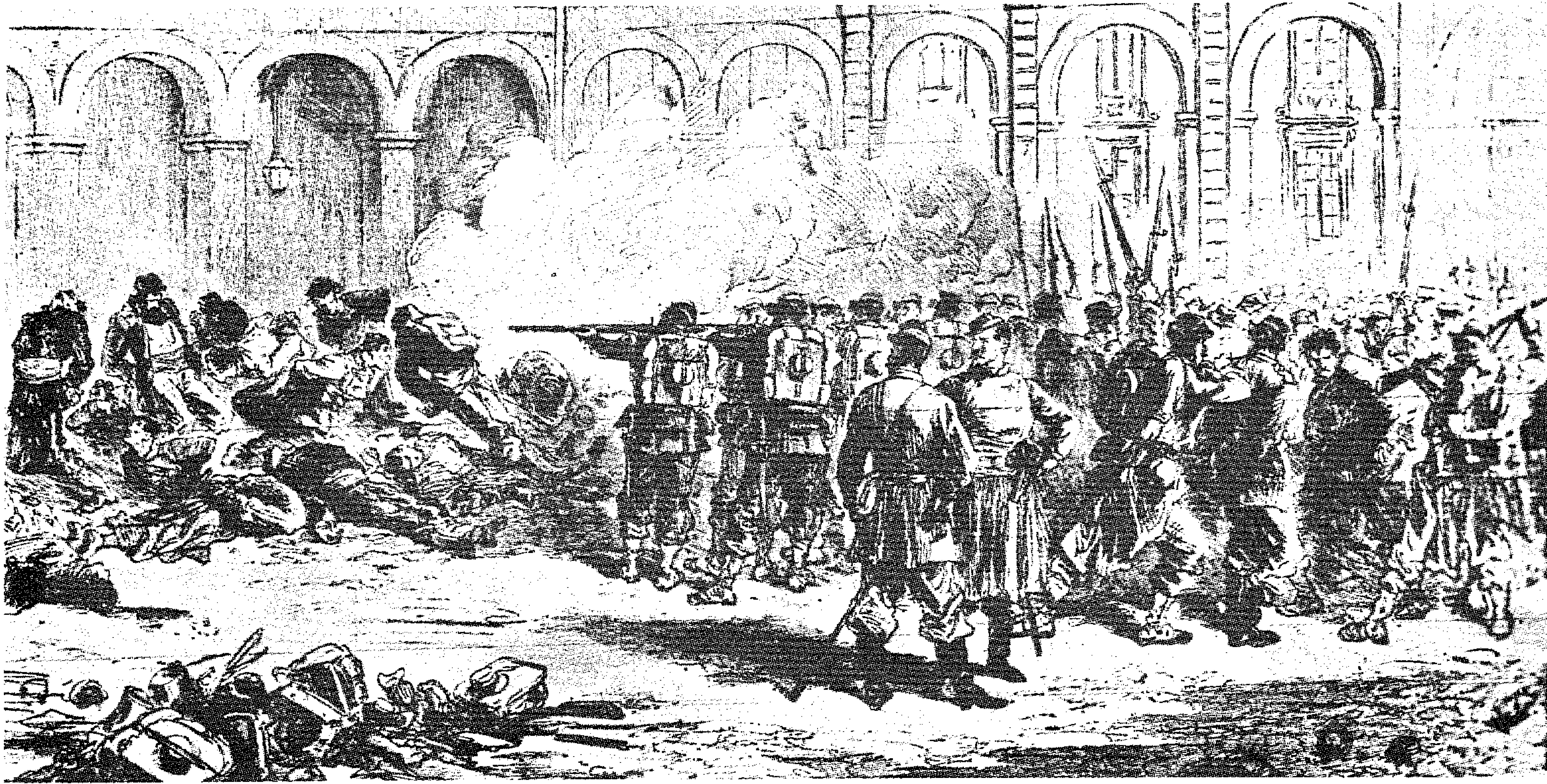
ومن الأمور الداعية إلى التقدير ، النزاهة الفكريـة عند الشـدياق فهـو قد عـرض مبادىء الكومونار واشتق الأسم منها على الرغم من أنه لم يكن موالياً لأحداث الكومـون بل علق عليها تعليقاً عدائياً . إذ رأى فيها تشتيتـاً للارادة الفـرنسية أمـام العدو الالمـاني المنتصر ، وإضعافاً لها أمام صلف بسمارك ودسائسه .

ولم يكتف بالحملة على الكـومون من منـطلق الحرص عـلى وحدة الفـرنسيين أمـام العدو فقط بل حمل على أساليبهم « فقد انتهكوا الحقوق ، كما يقول في الجوائب ، ونهبوا الاهلين والكنائس وقتلوا الأبرياء وأخافوا المستضعفين وغير ذلك من الأفعـال الفظيعـة » ثم دعا الحكومة الفرنسية لتعمل « بعد أن يستتب لها الأمر على قمـع هذه المـذاهب التي جاءت بها هذه الثورة ، أعني مشاركة الأغنياء أملاكهم » .

وحسب هذه التعليقات أنها هي التي حملت بذرة هذا الاصطلاح الجديـد . ولعله لولا الشدياق لم تعرف العربية هذه اللفظة ، فقد كان الشدياق بحكم إقامته الـطويلة في أوروبـا أكثر رجـال النهضة إطـلاعاً عـلى الحضـارة الغـربيـة وأكثـرهم درايـة بـالثقـافـة الأوروبيـة . وكان ، كـما قلنا آنفـاً ، أكثرهـم عنـاية بمعضلة المسميـات الجديـدة واختيار الأسماء العربية لها بسببَ معاناته الترجمة عن الكتب والصحف الغربية .

ومن أهم الالفـاظ التي وضعها الشـدياق أيضـاً للمسميات الجـديـدة كـان كلمـة **الطابع** لطابع البريد . وفي « لسان العرب » : الطابَع أو الطابع بالفتح أو الكسـر الخاتم الذي يختم به .

وعنـدما أراد أن يصف الأعمـال المسرحيـة ولم يكن هـذا الفن معـروفـاً في البـلاد العربية، إضطر إلى الاسهاب في الكلام فصاغ قصـة السموأل بقـالب مسرحي وقـال في



ثوار الكومون في باريس وقد «انتهكوا الحقوق وقتلوا الابرياء...»

شرحه : « إذا أريد « تمثيل » ما جرى بين السموأل والحارث بن ظالم جاؤ وا بدروع وسيوف وشخصين « مثيلي » إمرىء القيس والسموأل ويشرع الشخص « الممثل » لأمرىء القيس الخ . . . ثم يأتي الشخص « الممثل » به الحارث الخ[٤٧] . ودرجت من ثم في الجواب كلمات **الممثل والممثلون** وكان معاصروه يقولون مشخص ومشخصون » .

وعندما فرضت الأحكام العرفية في القسطنطينية بسبب الحرب بين الدولة وروسيا فضّل الشدياق كلمة حصر بدلاً من **الأحكام العرفية** . لأن الحصر من إصطلاح الأفرنج ومرادفه عندهم لفظة سييج (Siège) وكأنها مأخوذة من السياج باللغة العربية ومعناه الحائط أو ما أحيط به على شيء مثل النخل والكرم . أما « الادارة العرفية » فلا تؤدي المعنى المراد هنا . فإن معظم الأنظمة هي من قبيل الادارة العرفية فالأولى أن يقال **الأحكام العسكرية** (الجوائب العدد ٨٥٧ ـ ١٠ أيار ١٨٧٧) .

وقد إخترنا فيما يلي بعض الالفاظ التي درجت على قلمه في الجوائب وقبلها في كتابه كشف المخبأ . من هذه الالفاظ ما بقي في التداول ومنها ما إستبدل غيره به فلم يتخط زمن الشدياق . منها **مجلس مشورة** و **مجلس شورى** و **مجلس نواب** استعمل هذه المصطلحات الثلاثة لمعنى واحد واستقر على الأخير في الجوائب وقال أيضاً **إنتخاب** . جاء في العدد ٨٤٨ من الجوائب : **المراد بمجالس الشوري المجالس التي يحضر فيها نواب الأمة بانتخاب** شرعي لا المجالس التي يحضر فيها وزراء صاحب الملك ووكلاؤ ه فهذا النظام لا يغني عن مجلس النواب . و **الجامعة** بدأت المدرسة الجامعة في كتاب الواسطة ثم جرى عليها الأختصار . وقال مسبت لما نعرفه اليوم بالمخدر أو البنج وما نعرفه اليوم بالصيدلي فقد درج على قلم الشدياق عدة أسماء منها **دوائي وعقاقيري وصيدلي وبائع أدوية ودوائية للصيدلية** . وقال **ظلة وشمسية** . **ومبيت** للفندق أو النزل . **وقصبات حديد** لما نسميه اليوم بالانابيب أو القساطل . **والارجاف الكهربائي** أي التيار الكهربائي ولعله ولد الأسم من الأثر الذي تحدثه الكهرباء في الأعصاب من الاحساس بالرجفة أو الارجاف .

ولما افتتح معرض باريس سماه معرض التحف ثم فرّع الجملة فقال **معرض** وشرحه بأنه ما يعرف عند الفرنسيين بالاكسبوزيسيون ثم قال **متحف** وعرفه بالموزيه ، أو الموزيوم . وقال **معمل ومصنع** مستنكراً إستعمال فبركة التي درجت في ذلك الزمن ، وانتقد من كان يقول بمارستان ، فقال **مستشفى** . واستعمل كلمة جواز لما نعرفه اليوم بنفس الأسم أي جواز السفر . وقال **ملاكمة** للرياضة المعروفة والمسايفة للمبارزة

بالسيف . وقال محترف وإعلان وإعـلام ومنتدى ومـوقف وحافلة وملهى ومنـطاد وهي الغيمة الصغيرة أو الهواء المرتفع وطابع أميري وعجلة لما نعرفه اليوم بالعربة .

وكلمة الجريـدة جاءت في الجـوائب(٤٨) ولكنها مـرت بمراحـل كثيرة فكـانت تأتي أحياناً صحف الأخبار وأحيانـاً الجوائب ، وكـان محمود قبـادو أول من استعمل صحيفـة بمعناها الحالي أي الجريدة ، في العدد الأول من جريدة الرائد التـونسي ، فقال صحيفـة وصحف وصحـائف(٤٩) . وقال الشدياق التآلف في الموسيقى أي ما يعرف بالهارمـوني . والمعتزل لما نعرفه اليوم بالمحجر الصحي وضريبة الايراد لضريبة الدخل وثقاف لشرطي التحـري وقال قنبـرة للقنبلة اليدويـة وهذه اللفـظة تستعمل في بعض الجيـوش العربيـة للقنبلة الملقاة من الجو .

هـ ـ ترجمة المقالات الصحفية

تبقى المقالات السياسية والعلمية والاجتمـاعية التي كـان ينقلها إلى العـربية وهي محفوظة بين دفتي مجموعة الجوائب وفيها يظهر بجلاء الدور الذي لعبه في إطلاع القارىء العربي على الفكر السياسي الغربي من جهة وعلى تطور الأحوال السياسيـة العالميـة وأنباء العلوم من جهـة أخرى . وقـد ذكرنـا في فصـل سـابق حـديث هـذا البـاب من أبـواب الترجمة . وقد كانت مادة الترجمة مادة أسـاسية في مـلء صفحات الجـريدة . وكـان هذا الأمر شائعاً في جميع صحف ذلك الزمن . وقد كانت الجوائب تترجم عن معظم الجرائد الأجنبية ، وإذا كانت ترجمة المقال السياسي والأخباري لا تتطلب أكـثر من كفايـة معينة فـإن المقالات العلميـة أو الكلام ذا المعـاني المستحدثـة كانت في غـاية الصعـوبة ولعلهـا أصعب ما يصادفه رجل الصحـافة في الترجمة. بيـد أن مقالات الجـوائب كانت بسبكهـا العربي المتين وبابتكار الأسماء لا تعرف أنها مترجمة إلا من سياق الكلام .

ومع ما خلفه الشدياق من ثروة صحفية ضخمة في هذا الباب فقد كان يشكو من عنائه فيه فيقول « إني أكره الترجمة من كلام العجم . . . فالترجمـة من الحرف المشؤومـة ولا سيما ترجمة الفصول السيـاسية فـإن لها أسلوبـاً مخصوصـاً من أساليب الكـلام ، وهو مخالف لأسلوب كتب الأدب والتاريخ »(٥٠) .

ثالثاً ـ أدب الشدياق

الساق على الساق في ما هو الفارياق ـ تطوير الانشاء ـ في السخرية ـ أثر رابليه وفولتير في فكره وأدبه الساخر ـ الفن المسرحي ـ الأبحاث اللغوية ـ الشاعر

إن استلال الشدياق الأديب من الشدياق ككل عملية لا تخلو من إصطناع وقد يصح الكلام عن مثل هذا الاصطناع بالنسبة لدراسة الأدباء جميعاً ولكنه بالنسبة لأحمد فارس أوضح وأكمل . ذلك ان الشدياق شخصية متعددة الجوانب والقدرات . فالصحفي فيه واللغوي والمفكر والمصلح والمترجم يزاحم الأديب ويعايشه باستمرار . بيد أن قدراً معيناً من الاصطناع تشفع به الحاجة إلى نظرة تأمل في خصائصه الأدبية والفنية على أن نحاذر المبالغة في الظن بأن الفصل بين الشدياق الأديب والشدياق المتكامل أمر سليم تماماً لا ينفلت منه بالضرورة جزء من الواقع .

إن أحمد فارس الشدياق الأديب بالمعنى الضيق الفني للكلمة موجود في كتاب الساق على الساق ، الذي ألّفه في مطلع حياته الأدبية ، فهو الممثل الأفضل للفن الأدبي عنده . ولقد عجب جميع الذين درسوا الشدياق من أن لا يكون هذا الأثر قد راج في أيدي الناس على الرغم من إحتوائه لجميع العناصر التي تجعل من كتاب ما محبوباً من الجمهور العريض .

والمانع من هذا الرواج ، على ما رأى غيرنا ونرى ، وجود بعض الاستعراضات

اللغوية التي يمكن حذفها من غير إخلال بالكتاب من الناحية الأدبية . ولو عمد ناشر إلى إجتزاء هذا القسم من الكتاب لكان الساق على الساق في كل يد وعلى كل لسان . في هذا الكتاب يتجلى أدب الشدياق في أحسن صوره ويبرز أسلوبه في أكمل فنونه وأجمل صفاته ، وإن كانت كتبه الباقية لا تقل عنه قيمة وإبداعاً ، ولكنه يقف بينها على أنه أزهاها وأغناها في تصوير عبقريته الأدبية .

إن أبرز ما في أحمد فارس الشدياق أنه كان وثبة نوعية في الأدب بالقياس إلى أدباء عصره ، وخصوصاً في كتابيه الساق على الساق وكشف المخبأ وفي كتاباته بالجوائب .

وكانت هذه الوثبة النوعية تتمثل بالدرجة الأولى في ترسله الحر إزاء جمود الصنعة وتحجرها في قوالب معينة .

وإذا أخذنا نماذج من كتابات بعض كبار أدباء العصر ممن كان بينه وبينهم صلة أو إحتكاك أو مساجلة ، كحسن العطار ، ورشيد دحداح ومحمود قبادو ، نرى الفارق يسطع بقوة الوثبة التي يشكلها أدب الشدياق .

فالشيخ العطار مثلاً الذي يصفه معاصروه بأنه في الذروة من أهل الأدب يضع كتاباً في تعليم الناشئة أسلوب المراسلة وكيف يكتبون . وهو مثال فريد في الاخوانيات إجتمعت بين دفتيه أصول هذا الفن وقواعده . قال في مثال لتهنئة بشفاء :

« المجد عوفي إذا عوفيت والكرم . وزال عنك إلى أعدائك الالم . أهلاً بوافد سرور . ورائد حبور . شرح الصدور ببشره . وعطر الاندية بعبير نشره . مخبراً عن سلامة فريد عصره وزينة دهره . تاج هام أمثاله . وبدر هالة أفضاله . السيد الأجل . الامثل الأفضل . . . » إلى أن يقول : « وقد جهزنا لكم هذه المخاطبة . وأوفدنا على أبوابكم هذه المكاتبة . نائبة عنا في المثول . فنرجو أن يكون لها وقت الحصول قبول . . . الخ »(٥١) .

وكتب رشيد الدحداح رسالة ينتصر فيها للمعلم بطرس كرامة ضد أحد أدباء بغداد : « إني قد وقفت على هذه المناقشة فرأيت في أحد جانبيها نهشاً لغير ذي مناهشة ، ناشئاً من غلو في الدين ، من متعسف أفين ، قد عرج عن مقام الوقار والجلالة ، مع إدعاء أنه من أهل العلم ، وحدد للنضال نصاله ، فأضحى حليف الدعة والسلم ، ذلك أنه إحتدم حسداً له على فضله وبيانه ، كما تحسد الحسناء الغلة ، فكواه بحر لسانه ولا ذنب ولا علة . فارتكب ظلماً كبيراً ، وكبراً حقيراً ، وركب للبغي غارب الجهل ، فارتدت

عليه أرعاظ البتل . ورأيت في الجانب الآخر ، شكيمة شهم يبارز القرن ، بلا سيف ولا صمصامة ، ويناضل الحثن مناضلة ابن كرامة ، لكنه أخذ يدحض الباطل ، وهو للاذن يستميح ، ويشكو جور ظالمه الجاهل شكوى الجريح ، الخ . . . »[٥٢] .

وفي مقدمة لكتاب في الهندسة العسكرية كتب الشيخ محمود قبادو عن طلاب المدرسة العسكرية فقال إنَّ معلمهم : « كفل لهم من نفسه أن يؤازر ويظاهر . بالتعريب عن قبالتين مقبولتين ومجلتين جليلتين . الأولى في صناعة المحاربات . والثانية في انتخاب المعتركات . فقذفهم في ورطته قذف المقال . ولم يغادر للسان عذرهم من مقال . فواعدوه مواعدة من مطل . مكره أخاك لا بطل . وأقبلوا ينقرون أوعيتهم بأظافير الإبتلاء . ويلقون في أطويتهم بمداريس الاستنباء . ثم أخذوا يستبينون طمطمة طخبائه . ويستنبئون غمغمة عجمائه . ويستأنسون وحشي لخلخانيته . ويستنشرون ضمائر طيته . وقد افترت لذلك افترار الأرض غب القطار . ووقع مني موقع الأمن من فؤاد مطار . **وجعلت أونس أفئدتهم وأنيس أفنوادهم** .واستمري أخلافهم واستوري أزنادهم الخ . . . »[٥٣] .

طبعاً ، لم يكن الانشاء كله ، في أوائل القرن التاسع عشر ، زمن الشدياق ، من نوع إنشاء العطار وقبادو والدحداح وكذلك رزق الله حسون وأبو النجا الابياري وغيرهم ، ولكن التصنع كان من الأمور الحتمية في موضوعات معينة كالمقدمات التي تصدر بها الكتب ، فالسجع صفة ملازمة لهذا النوع من الكتابة ، لا سيما في مطلع المقدمة إذ « يجب أن تكون عويصة ما أمكن . وإن أي مقدمة ، لم تكن كذلك هي عنوان على ركاكة الكتاب كله »[٥٤] .

وكذلك كانت الرسائل المعروفة بالاخوانيات والكتابات المتعلقة بنزعات النفس والعاطفة وما إلى ذلك . فغلب على هذا النوع من الانشاء التكلف والقيد الثقيل فضؤلت الفكرة وركت المعاني وتوعر اللفظ . إلا أن الكتابات ذات الموضوعات العلمية المحددة كالأبحاث الفقهية واللغوية والتاريخية كانت متحررة من هذا التعقيد لأنها كانت تفرض على الكاتب المسؤول أن يبتعد عن الأسلوب العقيم والنسق الثقيل وعلك العبارات ولأن طبيعة البحث كانت تضطره إلى الاهتمام بالمعاني وأقدارها والتخلي عن الزخرف والتصنع . ولم يكن عدد هذا الطراز من الكتّاب بقليل ، ولهم تراث مطبوع ومخطوط . إلا أنهم كانوا مقلين ومحتجبين إلى حد ما . بينما كان أرباب المقدمات

والاخوانيات وما إليها أكثر إقبالاً على النشر وأكثر عناية بالظهور والتصدر ، لذلك طبع مطلع القرن الماضي بطابعهم دون الآخرين .

ويبدو أن أرباب الصناعة البديعية كانوا ينعون على المترسلين أسلوبهم وينعتونهم بالتقصير والعجز لذلك استبق الشدياق تمحلهم في كتاب الساق وقال : « فأما إذا تعنت علي أحد بكون عبارتي غير بليغة ، أي متبلة بتوابل التجنيس والترصيع والإستعارات والكنايات فأقول له أني لما تقيدت بخدمة جنابه في إنشاء هذا المؤلف لم يكن يخطر ببالي التفتازاني والسكاكي والآمدي والواحدي والزمخشري والبستي وابن المعتز وابن النبيه وابن نباته . . . وإنما كانت خواطري كلها مشتغلة بوصف الجمال ولساني مقيد بالإطراء على من أنعم الله تعالى عليه بهذه النعمة الجزيلة وفي ذلك شاغل عن غيره . . . واعلم أني خرجت من السلسلة وإنما أنا مستقبل لما استحسنت ، آخذ بناصية ما استظرفت ، رافض مكلف العادة »(٥٥) .

في هذا الكلام ، بل في هذه العبارات الواضحة المختصرة يكمن ، في ما نعتقد ، جوهر النهضة الأدبية الحديثة وثورة الشدياق على التقليد . لقد فك عن الإنشاء هذه الأثقال والقيود التي جمدت الأدب العربي عقوداً عديدة وأزال سطوة البديع . وجعل الكتابة أداة سائغة للتعبير عن نزعات النفس وخلجاتها ومحيط العقل وقضاياه ، وألبس المعاني ما يناسبها من ألفاظ فجاء بيانه حراً سهلاً يرسل على السجية ، لا ينم على أي تكلف بل فيه ذوق وأناقة . ساعده في ذلك ذاكرة لا تحد في معرفة مفردات اللغة وذوق مرهف وبراعة في التعبير . وساعده أيضاً اطلاعه على أدب الغرب وإذ كان من الصعب على الكاتب أن يبقى في نظرته إلى الأدب وأغراضه وأسلوب الكتابة تقليدياً فإن النزعات الجديدة كانت كفيلة بتطوير ذوقه الأدبي .

في الساق على الساق :

في الوقت الذي كان فيه اساطين القلم العربي يكتبون الرسائل التي ذكرنا ، كتب الشدياق رائعته « الساق على الساق » . كتبها وهو في أوج قدرته الفنية وقد أتاه الفيض بشكل فجائي على ما يبدو فلم يجد لصنبور أفكاره ، كما يقول ، ما يسده عن أن يتبعق على ميزاب القلم ، فما تكاد يده تصل إلى القلم إلا ويراه وقد تدفقت عليه المعاني وساحت على القرطاس . ولعل هذا الفيض الفجائي كان لأسباب نفسية متعددة ، منها ، مثلاً ، هذا الجو الأوروبي الرحب الطليق الذي غمر نفسه ، وهذا الأزدهاء الذي

صورة الصفحة الأولى من الطبعة الأولى سنة ١٨٥٥

كتاب
الساق على الساق في ما هو الفارياق

او

ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام

تاليف العبد الفقير الى ربه الرزاق فارس بن يوسف الشدياق

تاليف زيد وهند في زمانك ذا اشهى الى الناس من تاليف سفرين
ودرس نورين قد شذا الى قرن اقنى وانفع من تدريس حبرين

طبعه بنفقته العبد الفقير الى رحمة ربه الموقى رافائيل كحلا الدمشقي
وذلك في مدينة باريس المحمية سنة ١٨٥٥ مسيحية ١٢٧٠ هجرية



LA VIE ET LES AVENTURES

DE FARIAC

RELATION DE SES VOYAGES

AVEC SES OBSERVATIONS CRITIQUES

SUR LES ARABES ET SUR LES AUTRES PEUPLES

Par FARIS EL-CHIDIAC



PARIS
BENJAMIN DUPRAT, LIBRAIRE DE L'INSTITUT,
DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE, DES SOCIÉTÉS ASIATIQUES DE PARIS, DE LONDRES, DE MADRAS
ET DE CALCUTTA, etc.
Rue du Cloître-Saint-Benoît, n° 7.
1855

الصفحة الأولى من كتاب الساق على الساق في طبعته الأولى

أخذ به بعد أن انجز عمله العظيم في ترجمة الكتاب المقدس . ثم لعل منها أيضاً هذه الراحة النفسية التي احس بها بعد أن غادرته زوجته ، الدائمة التوتر إلى مالطة .

يقول في مقدمة الكتاب ، ان جميع ما أودعه فيه مبني على أمرين اثنين : أحدهما إبراز غرائب اللغة ونوادرها والأمر الثاني ذكر محامد النساء ومذامهن[٥٦] . وبالإمكان أن ندرج تحت هذين الموضوعين ، بصورة أو بأخرى معالجة ضروب الكلام من النثر إلى الشعر إلى المقامات إلى السجع إلى التفن في أنواع البديع إلى الترسل والإيجاز إلى الجدل إلى القصة والرواية إلى الركاكة وتقويم الركاكة إلى سرد الألفاظ المترادفة . أما ذكر محامد النساء ومذامهم فلأن سائر البدائع كان أصل استنباطها مسبباً ، كما يقول ، عن النساء . ويلحق بهذين الأمرين أيضاً التعريض برجال الاكليروس والتهكم عليهم والسخرية منهم واتهامهم بكل فرية ليسهل على الناس هوانهم .

بالواقع ، ليست هذه أغراض الكتاب فحسب . إن وراء هذه الدعابة المنتشرة في فصوله وهذه التفكهة وهذا الأسرار أفكاراً عميقة في أغراضها فريدة في أهدافها . فإلى جانب ما تستوعبه عباراته من معان ظاهرة تكمن فيه معان أخرى خفية . وقد لا يسهل فهم الساق وأغراضه إذا لم يتتبع المرء دقائق سيرته ولم يتفهم أحاسيسه وانفعالاته . لذلك يجب ، عند قراءة كتاب الساق ، أن يقرأ بتؤدة وتأمل مع محاولة الكشف « لتبرز محجبات معانيه ، كما يقول ، وتتجلى محجيات مبانيه » فالأمر يدعو كما يقول رابليه إلى « كسر العظمة لامتصاص ما في لبها من غذاء » ، عندئذٍ تبدو أفكار الشدياق على حقيقتها في الإنسان والدين والمجتمع . فالأغراض الكامنة فيه هي بالواقع وراء هذا العمل الأدبي الفريد وهي الأساس ، وغير هذا لا يبدو إلا كأنه تجارب بيانية وترف أدبي ، وإذا ما وازنا بين ما صرح به وما لم يصرح رجحت كفة الأخير بما لا يقاس .

ولا حاجة إلى القول أن الأغراض اللغوية والأدبية وذكر محامد النساء ومذامهن والتشهير برجال الإكليروس وما يندرج تحت هذا النسق قد ذهبت جدته وطويت أغراضه . أما ما يندرج تحت الأغراض الحقيقية وما ملخصه ، الإنسان وقصة الحرية ، فهذه أمور تتخطى الزمن وهي مستجدة في كل يوم وحين . فمآسي الظلم التي طاردت الشدياق لم تدع له مجالاً للكتابة المترفة فرفيق الظلم كما يقول سارتر « إذا ما اكتشف نفسه أنه من الملهمين في الكتابة فقد اكتشف في نفس الوقت الموضوع الذي يكتب فيه »[٥٧] ، فمثل هذا الكاتب منذ أن يخط كلماته الأولى يتفجر من تحت قلمه التمرد ، ومثل هذا التمرد لا يكون إلا بالنضوج والوعي الواضح ، وعي الذات الذي يمهد لهذا

التمرد . وبالوعي يدرك المرء أن الذات لا تكون كاملة بدون الحرية ،حرية ألا يكون خاضعاً لقدر ، ألا يكون منسوباً لمجتمع أو قواعد لا يرضاها عقله . ولذلك فهو في أي قالب كتب وأي موضوع عالج فليس له سوى هدف واحد هو حريته ، أي حرية الإنسان . فقضية الساق على الساق هي الحرية قبل أي شيء آخر . التزمها الكاتب ، نكاد نقول ، من الدفة إلى الدفة . وهذا الموقف بالنسبة إليه طبيعي ومن المستغرب ألا يكون الأمر كذلك ، وقد نشأ بسبب عاملين اثنين لم يتوافرا لأنداده من أدباء النهضة فخلا أدبهم من نبرة الحرية .

العامل الأول : سيرته بالذات ، ما ورد منها في كتاب الساق وما لم يرد ، ولا مجال لتكرار الكلام فيها .

العامل الثاني : أثر الأدب والفكر الأوروبي في أدب الشدياق وفكره . وسنعود إلى موضوع الحرية ، وما إليها ، عنده عندما نعرض لآرائه الإجتماعية والسياسية في فصل آت من هذه الترجمة .

والساق على الساق هو كتاب سيرته الذاتية ، والفارياق هو الشخصية الأساسية في هذه السيرة ، والإسم منحوت من « فارس الشدياق » الأحرف الثلاثة الأولى من الإسم الأول والثلاثة الأخيرة من الثاني . وبهذا الإبتكار جاء الكلام بصيغة الغائب فكان يقول : « كان الفارياق » ولا يقول « كنت » فتمكن بهذا الشكل من أن يستخرج ، إن صح التعبير ، من ذاته شخص آخر فاتسم الكلام بالصراحة والحرية .

وقد أصبح للسيرة الذاتية ، بعد أن كتب أعلام الفكر الأوروبي سيرهم الذاتية كمونتين وروسو في اعترافاته ، والفرد دوفيني وبنيامين كونستان وستاندال وغيرهم ، شكلاً يكاد يكون محدداً .

ومن حيث الشكل المتكامل في فن السيرة الذاتية بمفهومها الحديث ، كما بسطه أحد أدباء هذا الفن[٥٨] ، اتصفت سيرة الشدياق الذاتية بالكمال الفني ، فألقى الضوء على حياته من جميع جوانبها وكشف عن خبايا نفسه منذ نشأته الأولى وعرض لعائلته وتربيته ومجتمعه وما صادفه من ظروف مالية قاسية ومن ظروف سياسية واجتماعية وثقافية ، ووقف من ذاته ومن خبراته موقفاً موضوعياً صريحاً فلم يخف منها شيئاً مهما كان يعلو أو يسف . وجرد من نفسه شخصية الفارياق لتبدو صورته جلية كما تصورها في مرآة الغير فوجدنا هذه الشخصية وهي ملتحمة مع نماذج مختلفة من الأفراد

والمجتمعات ، كما أبرز صفاته الجسمية من دمامة وقصر وما هي عليه نفسه من عصبية ومرح ومراهقة ومزاج حساس ليساعد هذا الوصف على استكمال صورته الأدبية والفكرية مما أعان دارسيه وقرّاءه على فهم أدبه ، إذ لا يتم فهم الأديب وتذوقه إلا بتفهم شخصيته.

ويذكر تاريخ الأدب من أصحاب السير الذاتية في التراث العربي أبا حامد الغزالي وأسامة بن منقذ وابن خلدون . ولعل أقرب هذه السير إلى الكمال الفني هي سيرة الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال ، ففيه يذكر صراعه بين التقليد والإختبار . ثم ينقطع هذا الفن إلى أن يعود مع الشدياق في كتابه الساق على الساق . ولعل هذا الكتاب ونظائره من كتب السير الغربية كانت وراء إدخال الأغراض الجديدة على الأدب العربي الحديث . فوجدنا الكتّاب العرب المحدثين يضمنون قصصهم ورواياتهم بعض اعترافاتهم وسيرهم ، فتأتي متضمنة في سياق القصة أو التمثيلية . أما السيرة الذاتية بمعناها الفني الدقيق فلم تتكرر بعد الشدياق إلا بعد مئة عام في « أيام » طه حسين .

جاء كتاب الساق وكأنه قصة لا تقف الحركة فيه إلا لسرد المترادفات اللغوية أو لتفكهة القارىء . وطابع المأساة يغلب في الفصول الأولى من الكتاب ، ولكن ليست التي تفضي إلى الحزن والإستسلام فالقوة الزاخرة في نفسه كان لا بد من أن ينشأ عنها التمرد والرفض . ففي أول تجربة واعية للفارياق ، في الجدل مع المطران ، نراه فتى متمرداً على المسلمات والإرث ، داعياً إلى حرية الفكر وحرية المعتقد والعقلانية في الدين بينما نراه يصور خصمه إنساناً يتصف بالجهل والتسلط يتعثر بالكلام السخيف الركيك . وفي الفصول التالية يبرز أسلوب التقرير والسرد فيحل محل الجدل ، وفيه يكاد القارىء يلمس جراح الفارياق الذي ما زال طرياً فيكتسي الكلام غضباً ويزداد الموقف عنفاً على من آذوه فلا يغادرهم إلا بعد الإجهاز عليهم .

ولكن التقرير والسرد ثم الغضب والعنف لم تكن لتشفي غلّ الكاتب ، فينتقل إلى الأحاديث المتبسطة والقصص المفصلة فتطفو السخرية على شفتيه ، وإذا بالضحك والاضحاك يرافق القارىء في مسيرة الكاتب كلها .

ويمثل الفارياق شخصية الإنسان الساعي إلى الحقيقة ، الناظر إلى الخير والشر المتسائل عن السلوك والدوافع ، فيجد أن الطبيعة حسنة وأنها هي الأصل وأنه من الحمق الظن بإمكان قمعها ، إذ بالنهاية هي التي تتغلب . فلا بد من رفض

الإصطناع ، إذن ، ونبذ المغلاة والدعوة إلى التفكير السليم وبناء الأخلاق والسلوك على أساس الواقع الطبيعي . وهو لم يصف الطبيعة إلا لماماً ، وقد لا يعني ذلك أنه لا يحفل بها ، بل كان الأنصراف عنها لحساب دراسة الإنسان ، إذ أن الكلام على خواص الطبيعة ليس من شأنه ، كما يقول . فجسَّد معظم الحالات البشرية وألبس المتزمت منها نقائص وسخافات وأبرزها في سخرية ضاحكة أحياناً وفي دعابة مشفقة أحياناً أخرى وفي تهكم تارة ، والغرض المباشر من هذا هو إبراز منازل الضعف عند بعض الناس ، والغرض غير المباشر ، هو جعل الفضيلة محببة والرذيلة كريهة ووضع الأساس لصورة الإنسان الأفضل ، إنسان أكثر حكمة ، وأوفر نضوجاً .

والدعوة إلى أن يكون العقل رائد الإنسان ، لا يتم للأديب ، في خضم الحياة الصاخبة بالمواعظ النظرية بل برسم النقائص . إذ أن رسم الفضيلة ، عادة ، لا يعطي إلا صورة باردة لا تنفذ إلى العقل . ويأخذ بعض النقاد على الشدياق لهجته العنيفة وكلامه الجارح القاسي ، إلا أن من يسعى إلى مكافحة التسلط والظلم ونصب نفسه داعية تحرر ، إذا ما أخذ القلم فليس لكي يصف هذه المظالم ببرودة طبع ، بل لكي يردها حية بسخطه ويكشف عنها ويبعثها مظالم على طبيعتها ، أي مساوىء يجب أن تمحى(٥٩) .

ويختلف القالب الأدبي في موضوع الإنسان بين كتاب الساق وبين جريدة الجوائب ففي هذه الصحيفة كان يصف نماذج الناس وصفاً تحليلياً مباشراً بعد تأمل وموازنة ، كما ورد في المقالات التي كان عنوانها المشترك « من الناس » ، وقد يكون نحا في هذا الأسلوب نحو La Bruyère في Les Caractères .

أما في كتاب الساق فإنه يضع الإنسان أمام تجارب وأحوال مختلفة فتبدو ردود الفعل والإستجابات أقرب إلى الواقع ، فهو قد تجنب في الكتاب الوصف الإسهابي ، إلا للقليل من الأشخاص كبعير بيعر والذي صوره تصويراً رقيقاً ساخراً ضاحكاً . وما عدا هذا القليل فقد كانت شخصيات الكتاب نماذج للناس يضعها في مآزق مربكة أو في حالات زرية أو يدفعها إلى تساؤ لات شتى .

والشخصية الثانية في الكتاب بعد الفارياق هي الفارياقة ، زوجته . ووظيفتها الأساسية أن تكون سبيلاً لاستبدال الفن الأدبي من السرد الممل إلى الحوار الرشيق ، فكان سكب الكلام على لسانها ولسان زوجها معاً مشوقاً للقراءة ومجنباً للإملال . كما

كـان يساعـد على عـرض الأفكار المتنـاقضة للوصـول إلى الحقيقـة . وكـان الحـوار بـين الزوجين يضع فكرتين متقابلتين أو سؤالاً وجواباً فيأتي على لسان كل من الإثنين السبب والنتيجة . فهنا موقف معين للمرأة مسبب عن موقف معين للرجل . وهناك سلوك معين للرجل مسبب عن وضع خاص للمرأة. وجمال المحاورة مع الفاريـاقية يكمن في سـذاجة الرجل وجهله لطبائع المرأة فتبدو البساطة والعفوية وواقعية الأفكـار خاليـة من الإختراع والتصنـع والأخلاقيـة المثاليـة ، فضلاً عن رشـاقة العبـارة وتوازنها في النص والجـرس .
« قالت والله لقد حرت في الرجال .

قلت والله لقد حرت في النساء . ولكن فلنعد إلى الـوداع أني أعاهـدك على أن لا أخونك .

قالت بل تخونني على عهد .

قلت ما يحملك على سوء الظن بي ؟

قالت إني أرى الرجال إذا كانوا في بلاد لم يعرفوا بها أفحشوا غاية الإفحاش . ألا ترى إلى هؤلاء الغرباء الذين يأتون إلى هذه الجزيرة كيف يتهتكون في العهـر والفجور ؟ فأول ما يضع أحدهم قدمه على الأرض يسأل عن المـاخور ، ولا سيـما الذين ألمـوا بعلم شيء من أحوال الإفرنج وعاداتهم ولغاتهم فإنهم يخرجون من المراكب كالزنانير اللاسعـة من هناك وهناك .

قلت لعلهم كانوا في بلادهم كذلك .

قـالت ليس عندهم أسبـاب الفحش هناك . . . وأنت من يضمن لي بعـدك عن الفسـاد وقد أسمعـك كل يـوم تهيم بذكـر الرجـراجة والـرعبوب ؟ ثم قـالت : إذا كان الرجل يحب امرأته رأى فيها الحسن كله ونظر من كل شعرة منها إمرأة جميلة . كما أنه إذا أحب امـرأة غيرهـا أحب لأجلها بـلادهـا وهـواءهـا ومـاءهـا ولسـان قـومهـا وعـاداتهم وأطوارهم .

قلت أو كذلك المرأة إذا أحبت رجلاً .

قالت هو في النساء أكثر لأنهن أوفر حباً ووجداً .

قلت أفتنظرين فيّ الحسن كله كما زعمت .

قالت أحسن فيك النظر .

قلت فلنعد إلى الوداع »(٦٠) .

قد يستشف القارىء من مجمل المحاورات أن الفارياقية لم تكن بالواقع زوجته أو سيدة ما ، تقف أمامه لتناقشه أو لتتبادل وإياه أطراف الحديث ، بقدر ما كانت هذه المحاورة مرآة تعكس أفكاره أو لساناً يفصح عن خبايا نفسه . فعندما كنا نراه يطرح السؤال كنا نراه قد ذهب إلى أعمق ذاته ليستخرج منها القضايا التي عاش في صميمها ، وفي الجواب كانت تأتي الخبرات الناضجة أو الواقع الواضح . فهو يعيش في السؤال ، إن صح التعبير ، ويعيش كذلك في الجواب . فلم تكن المرأة ، والحالة هذه ، هي التي تحاوره بقدر ما كان هو يحاور نفسه . فالتساؤل والقرار ينبعان من وجدان واحد . ولذلك كان الكلام في بعض وجوهه مسترجلاً ، إلى حد ما ، والصوت خشناً بالرغم من سعيه لتطريته وترقيقه . وليس من السهل على الكاتب ولو كان فطناً أن يروي كلامه عن طريق إحدى شخصياته الإناث ، فلا بد من أن ينزلق على قلمه ما ليس من طبيعة المرأة .

وكانت كثرة المحاورات وغزارة الموضوعات وتكافؤ السؤال والجواب وجدية البحث تفضي إلى إطالة الحوار لولا لفتة رقيقة تنقل الجدل بين الزوجين العاشقين . « فلنعد إلى الوداع » . وإذا الكلام ينتقل برشاقة إلى جهة أخرى .

وهناك ، بالإضافة إلى الفارياق والفارياقية ، شخصيات مساعدة كالقسيس مثلاً الذي يرمز إلى ذي اللوثة في الدين ، فتدينه ليس عن عقل ، والطبيب الذي يرمز إلى الواقعي المدهش . الذي يغلب واقعيته على شرفه . والضوطار الذي يمثل رجل الدين الذي سلك طريقه عن انتفاع فاتخذ الدين مصلحة والتقوى حرفة والصلاة مهنة . وقد تكون هذه النماذج لأشخاص معينين عرفهم بالذات . أو طراز عام من الناس غير أنها كانت في الواقع تمثل أعماق النفس البشرية في مختلف ظروفها . وهذه النماذج ولو أنها ثانوية في حوار الكتاب غير أن الغرض من إنزالها أساسي ، فهي تأتي لتكون عوناً للكاتب على إبراز آرائه في نقد الشذوذ والفضائل المزيفة والتفاهة . فكان يلبسها لباس التطرف فتبرز النقائص واضحة جلية ، فإذا ما وصف متديناً كالقسيس مثلاً أوصله إلى الهوس واللوثة ، وإذا ما ذكر عاشقاً أدنفه في عشقه ، وإذا ما تكلم عن زوج مستهتر غير مبال جعله قوّاداً ، وإذا ما تكلم عن مطران أنطقه ، كما يقول ، بجميع الركاكات[٦١] . وكانت هذه المبالغات تبدو ، في الظاهر ، وكأنها سبيل الكاتب إلى تفكهة القارىء وتسليته في الفصول المطولة فيأخذها مأخذ الهزل ، ولكنها بالواقع كانت دراسة للطبائع في ظروف معينة ، وللسلوك في مختلف مواقعه .

جاء أسلوب الشدياق ، في بعض فصوله ، مزيجاً منسجماً من تراث الأقدمين في

الصياغة والجزالة وجاء ، في بعضه الآخر ، مترسلاً بأناقة فكان لفظه عذباً رشيقاً تارة وجزلاً جميل الجرس تارة أخرى ، فتحلى في الحالين بالإمتاع الفني ، وانتسب إلى الجميل من التراث وإلى الرائع من الفن التقليدي السليم ، فالتحق بالجاحظ وابن المقفع .

وإذا كانت تبدو على بعض فصول كتاب الساق على الساق سيماء الأسلوبية ، فليست هي من طبائع الترسل الشدياقي الراسخة ، فطابع الإطراب والإمتاع الإنشائي البارز في هذا الكتاب دون غيره ، قد يكون مرده نزعة عابرة دفعته للضرب على أوتار البيان الجزل واعتماد الكلام البلاغي والذهاب وراء شهوة البروز والتفوق على الأنداد المعاصرين . إلا أنه حتى هنا وهو يهيىء لقارىء الساق هذه المتعة الفنية . ، كان كلامه بالواقع مرآة لعقله بالدرجة الأولى .

أما السجع ، فبالرغم من رأيه السلبي فيه ، إلا أنه مارسه وفي كتاب الساق بالذات . إلا أنه لا يأتي إلا تظرفاً عابراً . فينظمه سهلاً واضحاً شديد الأسر . قال يصف خاناً استأجره ورفيق له :

«فلم تمض عليهما برهة وجيزة ، حتى انتشر صيتهما عند الصادرين والواردين . وعرف رشدهما جميع المسافرين . فكان الناس يقصدونهما لأقتصادهما . وكثيراً ما انتاب خانهما أهل الفضل والبراعة والوجاهة والإستطاعة ، حتى كأنه كان حديقة يتفرج فيها المكروب . وعادة أهل ذلك الصقع أنهم لا يكادون يجتمعون في محل إلا ويتنازعون كأس البحث والمناظرة . ويخوضون في أمور الدنيا والآخرة . فإن أثبت أحد شيئاً نفاه الآخر ، وإن استحسنه استنهجه ، وزعم أنه من المنكر ، فيتحزب القوم أحزاباً قدداً ، ويمتلىء المكان صخباً وإدداً»(٦٢) .

فهذه العفوية في عقد السجع وهذه السهولة في ترصيع الجمل يجعل هذا النحو من الكلام مستساغاً والأسلوب مرحاً خفيفاً لا يتململ منه القارىء ولا يتبرم ، بل على العكس من ذلك ، فقد يثير في نفسه شيئاً من الطرب الفني . ومع ذلك فإننا نرى الشدياق يكره هذا الضرب من الكلام كما قلنا وقد حمل عليه في كتاب الساق قبل أن يحمل عليه أي أديب آخر من الأدباء المحدثين . وقد علم بالتجربة ، كما يقول ، أن هذه المحسنات البديعية التي يتهور فيها المؤلفون كثيراً ما تشغل القارىء بظاهر اللفظ عن النظر في باطن المعنى . ثم إن كاتب السجع يرى نفسه قد دارت به القافية عن طريقه التي سلك بها حتى تبلغه إلى ما لم يكن يرتضيه ولو كان غير مقيد بها . « فبينما يذكر مصيبة أحد العباد في عقله أو امرأته أو ماله إذا به تكلف لإيراد الفقر المسجعة

والعبارات المرصعة ، وحشى قصته بجميع ضروب الإستعارات والكنايات . وفيما نرى المصاب ينتحب ويولول ويشكو ويتظلم نرى المؤلف يسجع ويجنس ويرصع ويتناول المعاني البعيدة فيمد يده تارة إلى الشمس وتارة إلى النجوم ، ويحاول إنزالها من أوج سمائها إلى سافل قوله »(٦٣) . فالسجع والمحسنات البديعية عناء للمنشيء والقارىء على السواء وبلاء على المعاني والكلام . وما دامت الكلمات شفافة يخترقها النظر إلى المعاني فمن الخطأ أن نضع أمامها زجاجاً غير شفاف .

في تطوير الإنشاء

في الصحافة كان الشدياق رجل فكر وسياسة وليس رجل فن وأدب . ولذلك لم يوش مقالاته الصحافية بأي نوع من أنواع الفن الكتابي ، ما عدا طبعاً ، تلك المقالات التي كان يفرغها في قالب قصة أو مقامة ملغزاً فيها النقد المبطن . فكان يمازج هذه المقالات الأخيرة الأحاسيس الوجدانية . عندئذٍ كان الأسلوب الإنشائي يعود إلى الظهور .

ففي الجوائب كان يبتعد عن المنهج الأسلوبي ، إذ كان همه في الجريدة ، كرجل إصلاح ، أن يصل الكلام إلى الجمهور العريض بأسهل السبل وأيسرها وأن يكون كلامه مفهوماً سائغاً خفيفاً فكانت العبارة في الجوائب تتصف بالبساطة والترسل والأناقة معاً . فاعتمد هذا الأسلوب في الجريدة ، واستقر عليه نهائياً . غير أنه من الممكن أن ننسب إلى الجوائب في أول عهدها ، أن العناية بالديباجة والسبك كانت متعمدة فالجريدة كانت في مطلعها تستهدف الخاصة دون العامة لذلك كانت العناية بالأسلوب أساسية . وعندما أصبح بإمكانها أن تتجه إلى الكافّة تحول أسلوبها إلى البساطة والتبسيط .

وقد أبان صاحب الجوائب عن تفضيله لهذا الأسلوب المرسل في إحدى مقالاته فقال إن حسن الكتابة « يتعلق بطرق التعبير وحسن الأساليب عند ضم الكلام بعضه إلى بعض » . وذلك كأن تقول « أني ذهبت أمس إلى فلان لأسأله عن شيء فلم أجده إذ كان غائباً ، فلما حضر أخبر بزيارتي له فتأسف كثيراً ، فلم يلبث أن جاءني ليعتذر لي عن غيابه فلم يجدني فزاد تأسفه ، وتأسفت أنا أيضاً ، لأن سؤالي إياه كان أمراً مهماً قصدت زيارته مرة أخرى فلم أجده ثم زارني أيضاً فلم يجدني . وهكذا مضى علينا أسابيع عدة ولم نجتمع . . . فهذا الأسلوب سهل بيِّن واضح حسن كل الحسن ، إذ

ليس فيه تقديم ولا تأخير ولا تعقيد ولا خروج عما تقتضيه البساطة الطبيعية والتناسق الصناعي ، حتى أن المنصف ليعتقد بأنه لا يمكن تغييره وتبديله »[٦٤] . هذه هي القاعدة التي اتبعها الشدياق في جريدة الجوائب وقد نقلنا في فصل سابق بعض نماذج من أسلوبه في كتابة الأخبار المحلية والعالمية وفي المقالة . ومقالاته في العلوم وغيرها خالية من الصناعة الأدبية كما نرى في ما كتب عن : البخار واختراع الباخرة وصناعة الحديد والغاز والتأثير والتأثر والمخيلة والتخيل وقوة الذاكرة ونبذة عن القمر إلخ . . . ولكنه أحياناً كان يلجأ إلى الإدهاش ليخلق عند القارىء توتراً وفضولاً فيكون أكثر إقبالاً على القراءة وأكثر ارتباطاً بها .

لقد طبع هذا الأسلوب المرسل البسيط ، وربما العفوي الذي يدعو إليه الشدياق ، أدب الجوائب ومقالاتها فاشتهرت به واشتهر بها . وبرغم التباين في إنشاء الشدياق بين الساق على الساق والجوائب فإن الجوائب تبقى استمراراً للرسالة الأدبية نفسها التي بدأها بالساق على الساق . وجوهر هذه الرسالة هو إطلاق الإنشاء العربي من القيود التي تمنعه عن التعبير المباشر عن أغراض النفس والحياة[٦٥] .

وإذا وضعنا في الذهن الفرق الشاسع بين عدد القراء الذين اطلعوا على كتاب الساق وعدد القراء الذين اطلعوا على الجوائب اتضح لنا أي وسيلة فعالة توسلها الشدياق الكهل والشيخ لبث الدعوة التي آمن بها شاباً وحسب هذه الوسيلة من الشهادة بفعاليتها ومطابقتها لروح العصر قول السيد رشيد رضا في تاريخ الأستاذ الإمام (ص ٩٩٧) .

« إن الإمام محمد عبده كان يفضل أسلوب الشدياق حتى على أسلوبه في العروة الوثقى » هذه المجلة التي لعبت هي الأخرى أعظم دور في إطلاق النفس الشرقية من جمود القوالب في العقل وفي اللغة .

في السخرية

ويوصف الشدياق عادة بأنه كاتب ساخر . قال عنه الناقد الدكتور لويس عوض إنه « اعظم كاتب ساخر في الادب العربي قديمه وحديثه »[٦٦] . ويدفعنا هذا القول إلى التساؤ ل عن مدلول كلمة السخرية لمحاولة ضبطها ضمن معان محددة ، لأن استعمالها والتصرف بها قد ذهب بها إلى معان متعددة ابعدتها عن دقة الاداء . فهي تلتبس احيانا بالتهكم وبالهزء وهي تعني عند بعضهم الهجاء والطعن وعند بعضهم الآخر الدعابة

والمجون أو الاستهانة والاستخفاف ، فهي على اقلام الكتاب متقلقلة .

اما السخرية بمدلولها الدقيق فأمرها شأن آخر . وقد ضبطها منح الصلح في رسالته « السخرية في الادب العربي » واخرجها من المعاني المشتركة وحددها بمدلول معين لا يلتبس بالمعاني الاخرى . فقال انها الهزء المخفي المسر . ثم قال : « إن مبررات هذا التحديد تعود إلى التحليل اللغوي لهذه الكلمة ، فاذا اعتبرنا أن حرفي الـ س . والـ ر هما الاساس اي « سر » وجدنا أنهما يفيدان الغبطة والسرور كما أنهما يفيدان ايضا الخفاء . وإذا اضفنا اليهما حرفا في الوسط جاءت المعاني متقاربة مع معنى الاساس كسكر وسحر وستر . فالجامع الاساسي والمشترك بين هذه المعاني مادة سر الثنائية التي تفيد الغبطة والسرور وتفيد الخفاء في آن واحد ، فشرط السخرية اذن هو أن تتضمن معاني الضحك والاسرار والتخفية . وكذلك التهزيء والاذلال وصرف الشيء عن حقيقته .

فليست السخرية اذن الهجاء ، فغاية الهجاء هي تعداد معايب المهجو أو شتمه وليس من شروطه الاضحاك ولا التخفية ، وكذلك ليست هي النكتة أو الملحة إذ ليس فيها عنصر الهزء ، وليست هي التهكم إذ لا يشترك فيه الاضحاك ولا الاخفاء ، وهي ليست العبث الذي يقترن بالبراءة وهي ليست المجون الذي يقترن بالتبذل ، وهي ليست البديهة التي تقترن بالطرافة ولكنها تخلو من الاضحاك والاسرار وليست هي الدعابة إذ أن هذه مرح خفي بريء اكثر منه موقفا من مواقف العقل الهازىء »(٦٧) .

يعني هذا التحديد « أن السخرية تتطلب من صاحبها أن يكون متحررا من المرارة والبغض متسامحا متغاضيا متفتحا تفتحا منعشا على الحياة والناس » ، ولم يكن الشدياق في معظم ظروفه على هذه الحال ، فهذا العقل النير الوهاج ، وهذه المخيلة الخصبة ، وهذه النفس العصبية ذات الحساسية الحادة ، وهذه الحياة الحافلة بالاضطراب والتجارب والتحديات ، هيأت له أن يكون كاتبا هازئا متهكما هاجيا ماجنا . اما السخرية البريئة الضاحكة ، كما جاءت في تحديد الاستاذ الصلح ، فلم تنطلق معه كما انطلقت مع الجاحظ سيد السخرية في الادب العربي .

قال ابو عثمان في كتاب « الحيوان » يحدد نوع الطير :

« ليس كل ما طار بجناحين فهو من الطير . قد يطير الحجل واليعاسيب والذباب والزنابير والجراد والنمل والفراش والبعوض والارضة والنحل وغير ذلك ولا يسمى

بـالطير . وقـد يقال لهـا ذلك عنـد الذكـر والسبب . وقد يسمـون الدجـاج طيـرا ، ولا يسمون بذلـك الجراد ، والجـراد اطير والمثـل المضروب بـه اشهر ، والمـلائكة تـطير ولها اجنحة وليست الملائكة من الطير »(٦٨) .

فالاخفاء والاضحاك متوازيان عند الجاحظ خاليان من المرارة والشكوى . « وتكاد السخرية تتعدى الكلام إلى القارىء نفسه ، فهـو لا يدري اجـاد الكاتب أم هـازل » . بينما نراها عند الشدياق اقل اجادة وحـلاوة ، وقد لا يعـثر عليها الا في كتـاب الساق . قال يصف الامير حيدر :

« ولما شاعت براعته في النسخ ـ براعة الفاريـاق ـ ارسل اليـه من اسمه عـلى وزن بعير بيعر يستدعيه لنسخ دفاتر كان يودعها كل ما كان يحدث في زمـانه . وليس الغـرض من ذلك افادة احد من العالمـين ، وإنمـا كان امسـاكا للحـوادث من أن تتفلت من مدار الايام أو تنفك من سلسلة الاحوال »(٦٩) .

وقال في مكان آخر :

« قال الفارياق للطباخ ، لِمَ يشكر الله صاحبنا ـ القسيس ـ على اكل الخنزير ؟ قال ولِمَ لا وقد اوجب على نفسه أن يشكر له على كل حال وعلى كل شيء ، كما ورد في كتب الدين حتى أنه كان يقضي هذا الفرض بعد أن يبيت مع زوجته . قال وهل شكر له على موتها ؟ قال نعم ، فإنـه يعتقد أنها الآن في حضن ابـراهيم . قال : امـا أنا فلو كـان لي امرأة لما اردت أن تكون في حضن أحد »(٧٠) .

قـد يتصف هذان المثـالان بالكمـال الفني من حيث الحس بعـدم التنـاسب ولكن ليس فيهما اسرار بـريء منعش وليس فيهما خفـاء كامـل ، بل فيهـما مرارة ولـذلك جـاء الاضحاك فيهما اقل براءة ودون ما هو عند الجاحظ . فبين الكاتبين اشواط ، إلا أن بين الشدياق والآخرين ايضا اشـواط .

أما الهزء والتهكم والهجاء والمجون والظرف والملح فكتاب السـاق مليء بهـا وتكاد لا تمـر على صفحـة إلا وتقع عـلى شيء أو اشياء منهـا . وقد خلط بينهـا جميعـا لتـزييف النفاق والهوس . فكـان هذا اسلوبـا ناجعـا وهو اشـد اثرا ممـا لو تصـدى لهذه الآفـات بالتجريح المباشر والتخطئة الصريحة وكانت الفقـرات تغتني بالـدعابـة والظرف والـطرافة فيأتي الاسلوب في نشوة من الافتتان الجذاب .

قال ينصح زوجته كيف عليها أن تتصرف في المجتمع الانكليزي :

« ولا ينبغي لك في يوم الاحد أن تطبخي شيئا ، انما نأكل مما فضل يوم السبت باردا كما تفعل اليهود . ولأن سيدنا موسى رجم رجلا وجُد يجمع حطبا في السبت . . . ثم عليك أن لا تفتري من ذكر يوم السبت أي الاحد ، فإن المسمى قد يتغير بتغيير اسمه . وذلك بأن تقولي مثلا ما كان اشرف السبت الماضي وما اجلّه . من لي بالسبت القابل حتى اخلو فيه مع ربي ، يا ليت كل يوم فيه ساعة من ساعات السبت . . . »(٧١) .

وقال متهكما على الرجل النهم : « ألا لو حضر مجلسا كان فيه . . . جميع هؤلاء الحسان على اختلاف الوانهن لود أن ينظمهن كلهن في سلك واحد ، ويجعله في عنقه كسبحة اولياء الله المفردين . ومن ماراني في ذلك رجعته إلى قصة سيدنا سليمان الحكيم ، فإنه مع ما أوتي من الحكمة ، وما ادراك ما الحكمة ، فقد كان سلكه يشتمل على ألف امرأة ، فهن ثلاثمئة سريات والباقي سريات . فكان له في كل يوم امرأتان ونصف وكسور . . »(٧٢) .

وقال في مكان آخر :

« فلما كان ذات يوم من الايام المشئومة ذهب الفارياق إلى المعبر - ادارة المطبعة - فوجد الرئيس قد تعرى من ثيابه بالكلية . وجعل يطوف في الدار على هذه الحالة ويحض الناس على الاقتداء به ويقول يا أيها الناس ، ما جعلت الثياب الا لستر العورة . ولا عورة لمن كان طاهرا بريئا من الذنوب والمعاصي . فإن آدم لما كان في الفردوس في حالة العصمة والبراءة لم يكن له حاجة بالثياب . فلما انتهى إلى زوجته ليغريها بالتعري قالت له أن النساء لا عصمة لهن الا في الليل فلا بد لهن من الستر نهارا »(٧٣) .

السخرية الضاحكة والعبث والمجون لم يأخذها الشدياق معه إلى الجوائب أو إلى غيرها فقد اختص بها الساق على الساق دون غيره ، فالوضع النفساني الذي ولَّد كتاب الساق لم يتكرر .

وقد أخذ بعض النقاد على الشدياق اكثاره من المجون والعبث في كتابه المذكور فرد عليهم وقال انه لم يأت بهذه الامور عبثا بل فعل هذا من اجل تشويق القارئين ممن ملأوا حيطان ديارهم بقصب التبغ إلى شراء كتب اللغة . ثم قال : « فما يضركم لو اولتم ما تنكرونه في كتابي من اول وهلة وتمحلتم ، كما هو دأبكم ، لأن تجعلوا منه حسنا ما يظهر قبيحا ومستظرفا ما يلوح من خلال عباراته فاحشا ؟ فيا قارئا ويا سامعا ، قل للمتعنت

ان من كان في فيه مرارة لم يستطب الحلاوة »(٧٤) .

وقديما قال ابن قتيبة في « عيون الاخبار » :

« سينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة . . . فإذا مر بك أيها المتزمّت حديث تستخفه أو تعجب منه أو تضحك له ، فاعرف المذهب فيه وما اردنا به . واعلم انك إن كنت مستغنيا عنه بتنسكك فإن غيرك ممن يترخّص في ما تشددت فيه ، محتاج اليه . وإن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك . ولو وقع فيه توقّي المتزمتين لذهب شطر بهائه وشطر مائه » . « وإذا مر بك حديث فيه افصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدك وتعرض بوجهك ، فإن اسماء الاعضاء لا تؤثم ، وانما المآثم في شتم الاعراض ، وقول الزور ، والكذب ، واكل لحوم الناس بالغيب »(٧٥) .

أثر رابليه وفولتير

هذه امثلة لبعض اغراض الشدياق في كتابه « الساق على الساق » فهل هناك اغراض اخرى ؟

كان الشدياق من هؤلاء الناس الذين هم قلائل في العادة والذين لا يقبلون بالمسلمات دون مراجعة واعمال نظر وتأمل . وقد تأثر بالحركة البروتستانتية وبثورتها على التقليد ووصف اصحابها بوضوح الدعوة ، « هذه الدعوة التي كانت تحمل ، كما يقول خليل حاوي ، رسالة تحرر روح الفرد من السلطة الاكليركية ، وكان الرواد ثورة عليها ، وقد وجدوا في تلك الرسالة ما يحملهم على التعاطف معها ففيها ملامح العقلانية والتسامح » . ولما كان المجتمع الذي نشأ فيه الشدياق مطبوعا بطابع التشدّد الديني فإن كل من لا يقول بقول الجماعة فهو شاذ ، وقد رموه بالكفر وهي كلمة قاسية لا مجال لباب الرحمة فيها .

وعندما ذكر كيف أن شقيقه منصور استل سيفه يريد ضرب عنقه ، لم يكن الخلاف بالواقع ، قد وصل بالشقيقين إلى حد قطع الرأس . ولكن القصة كانت اشارة رمزية إلى هذه الهوة الواسعة التي اصبحت تفصل بين الشدياق وعائلته ، ثم بينه وبين المجتمع برمته .

في الحوار التالي الذي جرى بينه وبين المطران تتجلى بوضوح روحه في التمرد والرفض كما تبرز عقلانيته البروتستانتية .

قال الضوطار : ويلك يا مغبون . ما دعاك إلى المساومة في سلعتك[٧٦] .

الفارياق : إذا كانت هذه سلعتي كما اقررت فما الذي يمنعني من ذلك ؟

الضوطار : ضللت ، هي سلعتك من حيث انك ورثتها من آبائك لا من حيث أن لك حق التصرف فيها .

الفارياق : هذا خلاف العادة والحق فإن ما يرثه الانسان يحق له التصرف فيه .

الضوطار : كذبت . انك انما ورثتها لتحفظها لا لتضيعها ولا لتبادل بها .

الفارياق : هي ميراثي افعل به ما اشاء .

الضوطار : قبحت . اني أنا القيِّم عليه الصائن له من الشوائب .

الفارياق : ما بلغنا عن أحد أنه تولى ميراث غيره إلا إذا كان الوارث غير راشد .

الضوطار : غويت . انك انت غير راشد وأنا وليك ووصيك وكفيلك ووكيلك وحسيبك .

الفارياق : ما الدليل على أنى لست من الراشدين ومن ذا الذي جعلك وصيا ووليا ؟

الضوطار : زغت . انما الدليل على غوايتك وضلالك هو انك تبدلت به متاعا غيره . وأما كوني وصيا فإن جميع امثالي يشهدون لي به كما اشهد لهم بانهم اولياء غيرك .

الفارياق : ليس تبديل شيء بآخر دليلا على الضلال والزيغ إذا كان المبدل والمبدل منه من جنس واحد ، ولا سيما اني رأيت لون القديم يوشك أن ينصل وقد ركت رقعته فتبدلته بما هو ازهى واقوى .

الضوطار : كفرت . انه غشي على بصرك فما تستطيع أن تفرق بين الالوان .

الفارياق : كيف ذلك ولي عينان ناظرتان ويدان لامستان ؟

الضوطار : عميت . فإن الحواس قد تغش ولا سيما حاسة البصر .

الفارياق : إذا كانت حواسي قد غشت فكيف سلمت حواسك من الغش وانت بشر مثلي ؟

الضوطار : حنت . اني وإن كنت بشرا مثلك لكني وكيل من طرف شيخ

السوق . وقد افادني بما اودع الله فيه من الاسرار العجيبة أن لا يطرأ علي غبن ولا غش إلا وتبينته لأنه هو منزه عن الغش .

فقال الفارياق وكان به فأفأة ، واين شيخ الفسوق هذا ثم استدرك كلامه وقال انما اردت شيخ السوق . فلا تكن زيادة هذه الثمانين موجبة لحد الثمانين .

الضوطار : لعنت . هو بعيد عنا بيننا وبينه ابحار وجبال . غير أن انفاسه القدسية تسري فينا .

الفارياق : كيف به إذا مرض أو جن أو مسه طائف من الجن أو اصابه برسام فكيف يمكنه والحالة هذه تمييز المتاع الرديء من الجيد ؟

الضوطار : هلكت . ما هو ببلو للعوارض لأنه بواب رتاج عظيم وبيده مزلاجان عظيمان لاحكام الباب من قبل ومن دبر .

الفارياق : ليس هذا بدليل فإن كل انسان في العالم يمكنه أن يصير بوابا ذا مزلاجين .

الضوطار : فسقت وفجرت . انه هو وحده مستبد بهذه الخطة إذ قد فوضت اليه من المالك الأمر .

الفارياق : متى كان ذلك ؟

الضوطار : صلبت . منذ الفي سنة تقريبا .

الفارياق : او عاش هذا الشيخ الفي سنة ؟

الضوطار : الحدت . انما انتقلت اليه بالوراثة .

الفارياق : ممن ورثها ، أمن ابيه وجده ؟

الضوطار : نكلت . من انسان لا يعد في اهله .

الفارياق : هذا أمر عجيب كيف يرث الانسان شيئا من رجل غريب فإن الغريب إذا مات من غير وارث انتقل ماله إلى بيت المال فهو اولى به من رجل على حدته .

الضوطار : عذبت . هذا سر ليس لك أن تبحث فيه .

الفارياق : ما الدليل على كونه سرا ؟

الضوطار : افحشت . هذا هو الدليل . وعند ذلك قام عجلا وأتى بكتاب وأخذ يقلب فيه من اوله إلى آخره حتى يجد فيه مطلوبه إذ لم يكن كثير الدراسة له إلى أن وجد

عبارة مضمونها أن المالك كان احب مرة رجلا فوهبه هبات شتى من جملتها كأس وطست وعصا في رأسها صورة ثعبان وجبة وتبان ونعلان وبابٌ له مزلاجان وقال له وقد وهبتك هذه كلها فاستعملها واهنأ بها .

الفارياق : لعمري ليس في هذه الهبة ما يدل على سر هذا وقد مات كل من الواهب والموهوب له وفقد الموهوب كله فكيف لم يبق إلا المزلاجان فقط وقد ضاع الباب وهما لا ينفعان من دونه شيئا ؟

الضوطار : فندت . لم يبق لنا في غير المزلاجين من حاجة .

الفارياق : بحق هذين المزلاجين عليك يا سيدي ألا ما اريتني الكأس مرة في العمر وحسب ولك علي بعد ذلك الامرة التامة ؟ فلما أن ضغط الضوطار بين هذا السلب والايجاب استشاط وغرا وهم أن يلحق الفارياق بالباب والكأس لولا أن دعاه داع إلى اللوس »[٧٧] .

في هذا الحوار صور الشدياق انطلاقه وتحرره الديني ولخص افكاره وهي مقتبسة بدقة من حركة « الاصلاح الديني » .

امور اخرى جذبته إلى البروتستانتية فالانجيليون لا ينتظمون عادة في مؤسسات ذات قواعد ورتب :

« هل عندكم معاشر الخرجيين سوق وشيخ للسوق ؟
قال لا .
قال ومن يقوّم لكم المتاع ؟
قال كل منا يقوّم متاعه بنفسه ولا نحتاج إلى آخر »[*] .

في هذا الجدل نتبين الاسباب التي دفعته إلى البروتستانتية . ولا يدخل فيها كما نرى ذلك الحقد المرّ الذي ملأ صدره ضد الكنيسة المارونية بسبب شقيقه اسعد ، فهو قد اعتنق المذهب الجديد قبل أن تتفاقم قضية الشقيق كما بيّنا في فصل سابق .

ولكن هل جاءت عقيدته الجديدة متينة أم أنها كانت بابا فتح له اجواء ارحب ؟

في الفترة الاولى من اعتناقه البروتستانتية كان يبدو وكأنه تذوق الدعوة الجديدة وسار خطوات في التهيؤ للعمل التبشيري وكانت قناعاته ، الظاهرة ، تشبه إلى حد ما ،

(*) الساق على الساق ص ١٣١ .



رابليه

ما كان سائدا في جو « الاصلاح الديني » في القرن السادس عشر ، اي العودة إلى الكتاب المقدس واعتباره الينبوع ونبذ كل ما هو تجسيد انساني أو مادي للدين .

ولكن اعادة النظر في الدين لم تقف به عند حد الانجيلية بل انزلقت به إلى العقلانية في جوها الاوسع . وقد لا يجهر بهذه العقلانية دائماً لاسباب ظرفية ولكنها لم تخف في كتاباته على كل حال . لقد كانت البروتستانتية ، في ما ترى ، الخطوة الاولى التي اوصلته إلى الباب الذي غادر منه المسيحية نهائيا .

حدث مثل ذلك لرابليه قديما إذ « بدأ يتذوق الانجيل أو الدعوة الانجيلية ، كما قال عنه كالفان ، ولكن بصيرته عميت بعدئذٍ ، فكفر »[٧٨] .

وجوه متعددة يتشابه فيها هذان الكاتبان الساخران ، هو هذا النحو من الادب في اخفاء المرامي وراء قناع من الهزل والاضحاك والمجون .

كان رابليه في مطلع حياته الادبية ، وفي كتابه الاول ، « غارغانتوا » يسخر من الخرافات والمعجزات ومن القصص الديني ، فقال أن الصفاء في العقيدة هو الذي يظهر حقيقة الله فليس من حاجة اذن إلى العجائب والمعجزات . وإذا كانت العقيدة كاذبة فليست جميع المعجزات بقادرة على جعلها صحيحة ، ولذلك اعتبره البروتستانت ، في وقت ما ، من دعاتهم ولو أنه كان راهبا كاثوليكيا[٧٩] .

ولكن هل أن الواقع هو كذلك ؟

عند قراءة كتب رابليه وتحري الدقة والتأمل يجد المرء آراءه وافكاره على حقيقتها ، خفية ، وراء قناع من الاضحاك والهزل والتسلية واحيانا كثيرة المجون . وقد كان يعمد إلى نسج قصص ومؤلفات مضحكة وغريبة ولكنها تصاغ بدقة لكي تشابه القصص الديني ، وهي تنتهي مثلها بأعجوبة أو معجزة فتأتي الصورة الهزلية ساخرة وضاحكة .

« قتل ابيستمون (Epistémon) في معركة حربية ووجده اصحابه مقطوع الرأس ورأسه بين كفيه فطلب بانورج (Panurge) من اصحابه أن يدعوا البكاء ويبادروا إلى مساعدته فورا لأن جسم الميت ما يزال دافئا وسيعمد هو إلى احيائه . ثم أخذ عنق القتيل وغسله جيدا بالنبيذ الابيض الممتاز ثم أخذ الرأس وغسله ايضا من مقطعه ثم رش مسحوقا من الاعشاب كان يحمله دائما في جيبه ثم دعك المكانين بدهونات معينة ثم ركب الرأس على العنق الوريد مع الوريد العصب مع العصب والفقرة على الفقرة ، وقعها كلها باحكام لكي لا يشكو ابيستمون ، بعد بعثه ، بألم التشنج ، ثم خاط الجلد

ودهن مكان القطع والوصل حول العنق بمرهم يدعى مرهم البعث . وإذا بأبيستمون قد بدأ بالتنفس ثم فتح عينيه وعطس و. . . طلب له بانورج اكلا ونبيذا الخ . . . » .

يقول الكاتب الفرنسي ابيل لوفران : « إننا نرى هنا صورة ساخرة لمعجزتين هما من اهم ما ورد في الكتاب المقدس من معجزات : بعث عازار وبنت يائير . وقد استعار الكاتب المواقف والمشاهد بدقة وحتى بعض الالفاظ والتعابير ولا مجال للتردد في القول أننا نرى هنا صورة لرابليه آخر لا يؤمن بتاتا بمعجزات التوراة وبالتالي بالدين نفسه »(٨٠) .

نعود إلى الشدياق وإلى قصة في كتاب الساق على الساق تشبه قصة رابليه في اغراضها قصة ذلك القسيس الذي حاول أن يحيي خادم المدرسة بعد أن مات بالطاعون . قال في القصة أن القسيس هذا « مضى إلى موضع منفرد وجثا على ركبتيه وهو يدعو الله سبحانه وتعالى لأن يحقق له عقيدته في احياء الرجل . ثم خرج وألقى نفسه على جثة الرجل وجعل فمه في اذنه وهو يناديه قائلا : يا عبد الجليل (اسم الميت) انني ادعوك أن تعود من ظلمة الموت إلى نور الحياة . ثم اصغى ليستمع الجواب فلم يجبه احد . غيَّر القسيس ركعته بأن جعل فمه بين فخذيه وهو يجمجم في الدعاء وذلك على منوال النبي الياس حين صلى لانزال المطر بعد قتل انبياء بعل وكان عددهم اربعمئة وخمسين نبيا على ما ذكر في الفصل الثامن عشر من سفر الملوك الاول . ثم قام نشطا مسرورا واسرع في أن القى جثته على الميت واعاد كلامه الاول ولكن عبد الجليل بالرغم من تكرار دعاء القسيس فإنه لم تعد روحه اليه وهو لم يعطس كما عطس ابن المرأة الذي احياه النبي أليشع على ما ذكر في الفصل الرابع من سفر الملوك الثاني » .

ولكن لماذا لم تحدث المعجزة ؟ يقول الفارياق أو تقول القصة ، انه « كان الاولى بالقسيس أن يرفع عبد الجليل إلى العليَّة ، عليَّة القسيس ، كما فعل النبي الياس بابن الارملة لا أن يبقيه ارضا »(٨١) .

فهذا الخطأ الاجرائي الذي سها عنه القسيس لم يرتكب مثله بانورج . وهنا تتم السخرية الضاحكة . وانك لتحار أيهما كان اكثر سخرية واشد ايلاما ووخزا في المعجزات ، رابليه الذي اقام صاحبه أم الشدياق الذي عجز قسيسه عن بعث عبد الجليل ؟

ولا بد من الملاحظة هنا أن الشدياق يبدو اقل ثقة بفطنة القارىء لذلك كان يأتي

بمعجزات التوراة الواحدة تلو الاخرى مفصلة : « . . . كما ذكر في الفصل الثالث من سفر الملوك الاول . . . الخ » يأتي بها بايماءة ضاحكة ساخرة ليلفت نظر القارىء إلى القصد بينما كان الامر على العكس عند رابليه فالمعجزات اكثر براءة فتصبح ابعد عن الكشف .

في هذه المرحلة من مراحل تفكير الشدياق الديني يبدو واضحا أنه يرفض ما لا يراه يتلاءم مع العقل . ولكنه وقف عند حد لم يتجاوزه : ايمانه بالله ، وهو الحد الفاصل بين الدين ، في جوهره والاخلاقيات فيه ، وبين ما يضاف اليه عادة منْ قصص ومعجزات وما يلحق به من طقوس ومؤسسات وسدنة وجواثليق . « فكل شيء ما خلا الله باطل وهو رب المشارق والمغارب »[٨٢] .

إن اسم الله لم يغادر قلب الشدياق ولا قلمه . نجد ذلك في مختلف مناسبات كتاب الساق على الساق . فالعبارات التي تنم على الايمان به لم تأت على أنها محض كلام لتزيين العبارات ، بل هي تتكرر بعفوية ووضوح على لسان شخصيات الكتاب . في هذا الموقف قد يجد المرء الشبه بمذهب الالاهيين (Deîstes) الذي ساد جو القرن الثامن عشر الاوروبي . وهذه العقيدة ولو أنها كانت المرتكز الذي حل للشدياق مشكلته الروحانية . إلا أن الأمر عنده يمازجه نوع من الشوق قد لا يجده المرء في الفكرة الاوروبية المرتكزة على البحث الميتافيزيقي والاستدلال الفلسفي . فهو يؤمن بوحدانية الخالق الديان بعفوية وفطرة سليمة « فكل ما يحدث في الكون ينطق بلسان فصيح عن قدرته تعالى وتصرفه في الخلق فعليه وحده عوّل وبه اعتصم واليه التجىء ومنه استهد »[٨٣] والله عند فولتير هو « باني الكون الازلي » وهو إله جميع المخلوقات وجميع الاكوان وجميع الازمنة . وفي كلام الاول نرى الشوق والروحانية وقد خلا كلام فولتير منها . غير أن التشابه في النوازع نجده في الدعوة إلى التسامح وحرية المعتقد . ونكاد نلمس هذا التشابه حتى في الاستعارات[٨٤] .

الفن المسرحي

احتفل الشدياق بالفن المسرحي واعجب به وتمنى لو أن العرب أخذوه عن اليونانيين كما أخذوا عنهم الفلسفة . وقد اعتبره فناً أدبياً قائماً بذاته . واعتبره معاصروه كأبن أبي الضياف والطهطاوي طرفة من طرائف الغرب ، يستعان بها لتهذيب النفس .

قال أبو الضياف في كتابه « اتحاف أهل الزمان » يصف ليلة مسرحية حضرها مع الباي أحمد في باريس :

« وأعمال هذا التياترو هي حكايات بعض وقائع تقدمت ، يبرزها من الفكر لحس المشاهدة ويختارون لذلك البلغاء والخطباء ممن لهم معرفة بالأخبار والتاريخ والاشعار . وعدد العملة في ذلك أكثر من مئة . وهي من الصناعات الشريفة عندهم لأن مرجعها تربية الناس وتهذيب اخلاقهم لما يرون من تحسين الحسن وتقبيح القبيح معاينة ، وذلك اوقع في النفس . وفيها الموسيقى وتارة يكون العمل الغناء والرقص »[٨٥] .

أما الطهطاوي فيصف هذا العمل المسرحي مع شيء من التبسط في كتابه « تخليص الابريز في تلخيص باريز » فيقول :

« فمن مجالس الملاهي عندهم محال تسمى التياترو والسبكتاكل ، وهي يلعب فيها تقليد سائر ما يقع . وفي الحقيقة أن هذه الالعاب هي جد في صورة هزل ، فإن الأنسان يأخذ منها عبراً عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ومدح الأولى وذم الثانية ، حتى أن الفرنساوية يقولون إنها تؤدب اخلاق الأنسان وتهذبها ، فهي وأن كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها من المبكيات » .

ثم يقول ولو سمعت ما يحفظ اللاعب من الاشعار وما يبديه من التوريات في اللعب وما يحاور به من التنكيت والتبكيت لعجبت غاية العجب »[٨٦] .

ومن هذين المثالين نرى أن المسرح لم يلفت نظر الكاتبين إلا من ناحيته الاجتماعية وتهذيب الناس بالقدوة . أما الشدياق فقد رأى فيه بالإضافة إلى الغرض الاجتماعي فناً أدبياً مميزاً تمنى لو أن العرب مارسوه ، ولكنه لم يستبعد أن يكون سوق عكاظ عندهم نوع من المحاولة الأولية لهذا الفن ، قال : « ولا يبعد عندي أن الشعراء العرب حين كانوا يتناشدون الاشعار في عكاظ كانوا يجرونها على وجه يكسبها حوكا في النفوس مع اقترانها بالحركات والاشارات . . . ولا شك أن مبدأ الملاهي عند اليونانيين كان مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها ، فإن جميع العلوم والفنون بل الأديان نفسها تكون في مبدأها ضعيفة » .

ثم يسهب في شرح دقائق هذا الفن من ناحية التأليف الأدبي والنص وكذلك من ناحية الاخراج ويذكر الممثلين والممثلات وطرائق تمثيلهم وبراعتهم في الحفظ والاداء ،

ويعدد أنواع المسارح ، وما فيها من أدوات وستائر ورسوم لتغيير المناظر وجعلها موافقة للتمثيلية. برغم هذا الاسهاب ساوره الشك في أن كلامه كان مؤديا للغرض أو أنه كان مستوفيا لجميع جوانب الموضوع ، لا سيما بالنسبة إلى افهام القارىء العربي الذي لم يكن قد قامت بعد ، في ذهنه ، فكرة عن المسرح والتمثيل ، لذلك قام بوضع تصميم لمسرحية ، وهو الأول من نوعه في الأدب العربي فيما نعتقد ، وهو مأخوذ من قصة السموأل المعروفة في كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب .

قال في هذا التصميم : « مثال ذلك : إذا أريد تمثيل [illegible]رى بين السموأل والحارث بن ظالم حين طلب منه أن يسلمه الدروع التي كان أودعها عنده امرؤ القيس، نصبوا مكانا شبيها بالقلعة وجاؤوا بدروع وسيوف وشخصين مثيلي امرىء القيس والسموأل ، فيكون هذا لابساً لباس الملازم لبيته المشتغل بأمور نفسه ، وذلك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر.

(الفصل الأول) « يشرع الشخص الممثل لامرىء القيس في أن يخاطب الاخر بأنه قام له همّ في النفس اضطره إلى مفارقة الوطن ومباينة السكن ، فإن المعالي لا تدرك إلا بجهد النفس ، والمخاطرة وازالة المصون من النفائس والرغائب ، وما أشبه ذلك من الكلام الحكمي . وينشد في خلال ذلك ابياتاً يتمثل بها كقول المتنبي مثلاً :

تريدين ادراك المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

أو قول الآخر :

يغوص البحر في طلب اللآلي ومن رامَ العُلى سَهِر الليالي

ويتأوه في اثناء الخطاب ، ويحرك رأسه وينظر نظر المبتئس الشافن ، إلى أن يفرغ من الانشاد ، والناس منصتون لاتسمع لأحد منهم نأمة ، ثم يأتي بالدروع والسلاح ويسلمها للسموأل . فيأخذها منه . وبعد أن يتوادعا وينشد كل منهما ابياتا دعاء لصاحبه على مايقتضيه المقام يدخل السموأل حصنه ويرخي الحجاب .

(الفصل الثاني) بعد قليل يرفع الحجاب ويأتي الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته ، ومعه جند وأعوان ، شاكو السلاح ، ويطلب الدروع من السموأل وهو متهدد له ومتوعد ، ويتمثل بأبيات تدل على شدة بطشه وسطوته بين أقرانه كقول الفرزدق مثلاً :

وكنا إذا الجَبَّارُ صَعَّر خدَّهُ ضربناه حتى تستقيم الأخادعُ

أو كقول المتنبي :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فيجيبه السموأل من حصنه بالمنع وينشد أبياتاً تدل على وفائه وصدق نيته وشرف نفسه . ثم تدور بينهما المحاورة إلى أن يقنط الحارث من أخذ الدروع ، فيعمد إلى أبن السموأل فيأخذه ويذبحه بمرأى منه . وهنا يرخى السجف .

(الفصل الثالث) بعد قليل ، يظهر السموأل وبيده الدروع ويذهب بها إلى اقارب امرىء القيس ويسلمها لهم . وينشد أبياته المشهورة وهنا يتم الفصل الأخير »(٨٧) .

في هذا التصميم ، نرى بوضوح كيف أن الشدياق لم يكتبه إلا بعد أن أدرك أدراكاً دقيقاً أحكام هذا الفن وأصوله من حيث التقيد بالمكان المحدد واختصار عدد الأدوار مع توجيه الاهتمام بشكل خاص إلى الستائر واللوحات وما يرسم عليها ولباس الممثلين وما يدل عليه وما يقام على المسرح من نماذج وأشكال وما يوضع فيه من أثاث لتكوين الأطار المناسب .

وقد يكون تصميم الشدياق هذا هو الذي أوحى لأحد الأدباء اليسوعيين ، لعله الأب خليل اده ، بوضع تمثيلية كاملة مثلت سنة ١٨٨٧ في مدرسة الاباء اليسوعيين . كما مثلها أيضاً الشباب العربي في اسطنبول سنة ١٩٠٨ في المنتدى الأدبي آنذاك تحدياً لإتجاهات حزب الاتحاد والترقي الحاكم المعادية للعرب . فالمحرك الأساسي فيها هو الشمائل العربية والوفاء(٨٨) .

وفي سنة ١٩٠٩ وضع انطوان الجميل نصاً جديداً لقصة السمؤال وأدخل فيها المرأة يرافقها الحب . وهذا بخلاف تصميم الشدياق وأساس الحادثة المعروفة .

أما نظرة الشدياق إلى المسرح من الناحية الاجتماعية فقد كان يعتورها التردد فمن جهة كان يرى فيه مدرسة عظيمة الشأن يتعلم فيها المرء « كثيراً من المحامد والمكارم » وهو حري بأن يهذب اخشن الاجيال في اعظم المحامد . ولكنه من جهة اخرى هو



بعض اعضاء المنتدى الادبي في اسطنبول الذين مثلوا رواية السموأل، وقد عرفنا منهم: الثاني من اليمين وقوفا جميل الحسيني (القدس) احد مؤسسي المنتدى الأدبي ثم معين الماضي (حيفا). والثاني من اليسار جلوسا مسلم العطار (دمشق) والاول من اليسار جلوسا على الارض زكي التميمي (نابلس).

مسيء للحياة العائلية عندما يشتمل على ابراز الخداع والمكر بين الزوجين وهو لا يحمد مغبته إلا إذا أحسن انتقاء المسرحيات(*) .

الابحاث اللغوية

قد لا تكون الابحاث اللغوية ، في قياس الذوق الآن ، مستساغة في الصحف السياسية السيارة ، فقد أصبح لهذا الفرع من الابحاث نوع خاص من الصحافة والنشرات الأدبية تتفرغ لها ولاشباهها من المقالات . لم يكن الأمر كذلك ، في القرن الماضي ، فتقديم حرف على آخر كان يورط الصحافة بمجملها في مناظرات لا تنتهي ، كما رأينا في الفطحل والفحطل ، مما طبع ذوق القراء على قبول هذا الطراز من الموضوعات وهذا النوع من المتع الأدبية والعقلية .

وتكاد تكون المناظرات اللغوية ملازمة للجوائب . وقد لا يقع المرء على عدد منها إلا وفيه بحث من هذا النوع أو رد على مناظر في كلام أو تصويب لقول أو نقد لبحث أو اكتشاف لقاعدة أو للفظ .

وكلام الشدياق في الابحاث اللغوية عادة يكون مركزاً ، مشحوناً بالمعاني ، غنيا بالجدل والنقد . يبرز جلداً هائلاً في الغوص على معاجم اللغة وذاكرة عجيبة في حفظ متونها وحواشيها . وكلامه هذا يتعب حتى أهل الدراسات اللغوية وأرباب المعاجم في استيعابه فكيف اللحاق به ؟ يقول مارون عبود : « إني لأقر بعجزي عن مجاراة الشيخ في ميدانه هذا ، فما رأينا قبله لغويا بحث اللغة فرد الفاظها إلى اصول قليلة اشتبكت فروعها فصارت ادغالاً محفوفة . . . فالذي فهمه الشدياق من اسرار اللغة لم يخطر ببال احد »(٨٩) .

وكلامه في اللغة يعود إلى ثلاثة اهداف :

١ ـ اغناء اللغة عن طريق جمع المترادفات واستخراج الاسماء من القواميس وشرحها ، وكذلك الدعوة إلى استعمال النحت وتتبع خطى المولدين في التطوير وجعل العربية طيعة لنقل العلوم .

(*) كشف المخبا عن فنون أوروبا ص ١٤٣ ، ٣٠٨

٢ ـ الدعوة إلى إنشاء القواميس والمعاجم .

٣ ـ الكشف عن اسرار اللغة في بناء الكلمة ومصدرها .

أما الدعوة إلى اتباع اسلوب المولدين في التوسيع على اللغة « فلأنهم عبّدوا لنا طرق التعبير ويسروا لنا منه العسير فإن ما وصل الينا من كلام العرب الأولين ، كما يقول ، ان هو إلا قدر نزير ، فالمولدون هم الذين مارسوا العلوم الحكمية التي لم يكن لها ذكر في الجاهلية وتعلموا اللغات الأجنبية وأدخلوا محاسن معانيها في العربية ، فما من علم عرف في زمانهم إلا وبذلوا فيه امكان جهدهم وقد حرصوا على جمع أصول اللغة وفروعها ونوادرها أكثر من العرب انفسهم لأنهم علموا أنه أساس لجميع العلوم والفنون فإذا كان في تضاعيف كلامهم ما يخالف قواعد العربية فهو إما لعدم وقوفهم على نص فيه أو لأنهم كانوا قادرين على توجيهه وتخريجه بخلاف العرب فانهم إنما خالفوا تلك القواعد لمجرد عدم مبالاتهم بها[٩٠]» .

وكثير من آرائه في التطوير اللغوي في الجوائب هو امتداد لهذه الدعوة وامتداد لكتبه اللغوية يتبسط في موضوعاتها ويعيد شرحها ويضيف ما يعن له من الإضافات ، فالمترادفات التي ملأ بها نحو ثلث كتاب الساق كانت ترد من وقت لآخر على قلمه ، حتى ولو كان الموضوع غير أدبي ، مما كان يدل على الاصرار على تعميم المترادفات لاغناء اللغة بالمفردات . وإلى هذا الاصرار يمكن أن يعزي ورود بعض الالفاظ الغريبة في إنشائه وفي شعره .

واكثر ابحاثه اللغوية طلاوة تلك التي كانت تكراراً أو تلخيصا لمادة كتابه الشهير « سر الليال في القلب والابدال ، » وهذا الكتاب ينبني على عدة مقاصد أهمها ايراد الالفاظ التي هي حكاية عن صوت ثم الفاظها المقلوبة والمبدلة ، فيقول في مقدمته : « إن اكثر ما يكون القلب والابدال في الالفاظ الدالة على القطع والكسر والحزق والهدف والشق والفرق والتبديد لما أنها كلها من جنس واحد وجلها مأخوذ من حكاية صوت نحو : قت وقد وقض وقط وجد وجب وجذ وجز واذ وهذ وقذ وقص وحذ وحن وفت وفض وبت وبط وتب وسب وبس وقب وبق وجب وبسج ودق ودك وبك وفك وشك وشق وهت وهد[٩١] ، ويقول ، إن تفصيل ذلك سيأتي في متن الكتاب بما يقضي بالعجب العجاب ويعجب المتأمل فيه غاية الاعجاب » .

وهو يعتبر أن المضاعف أصل ويعدد الأسباب ، من ذلك أنه رأى أن : « معظم

اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو حكاية صفة ، كما جاء قبلاً . وحكاية الصوت تأتي من المضاعف نحو دب ودف ودق وهز وسف وقر . فإذا أرادوا الزيادة في المعنى ضاعفوا الحروف فقالوا : دبدب ودفدف ودقدق وهزهز وسفسف وقرقر . فقولهم مثلاً هزهز وحثحث إن هو إلا هز هز وحث حث فلما بنوه هكذا احتاجوا إلى التسكين . وظهر هذا السر في الماضي المضاعف اكثر منه في المصدر .

وبعض الكلمات يأتي حرفها الأول دالاً على حكاية صوت نحو الصيء والصأصأة والصت أي الصر والصوت والصج وهو ضرب الحديد والصر وهو أشد الصياح والصق وهو صياح الحرباء والصك وهو الضرب الشديد واغلاق الباب والصليل والصلصلة والصم هو السد والصوة وهو صوت الصدى الخ . . .

ومثال آخر انين الموجع وحنينه وعنينه وتشخيرة النائم وقهقهة الضاحك وغناء الرجل وترنمه وصفير الصافر وطنين الطست ورنين القوس وتسبب الماء وتصبصبه وخريره ومثلها فرقعة الاصابع ونصيص الشواء وحفيف الشجر وحمحمة الجواد ومواء القط وزقزقة العصفور وعواء الذئب .

إلا أن الصوت اختلف بالنسبة إلى السمع كقول احدهم تسبب الماء وقول الآخر تصبصب الماء أو خريره والزعزعة والعزعزة والزلزلة واللزلزة والقلقلة واللقلقة وقعقعة الرحى وجعجعتها وخشخشة السلاح وشخشخته وبقبقة الكوز وقبقبته وطنطنة الجرس أو دندنته»(٩٢) .

وهذا الاختلاف يعود إلى الاختلاف في نطق المتكلم وسمع السامع أي في جهازي الارسال والاستقبال .

والسبب الثاني الذي جعله يعتبر أن المضاعف أصل «هو أن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شيء منها تاما من أول وهلة ولكن على التدريج . ولذلك فهو يعتبر أن الفعل السالم جاء آخر الافعال أما الاجوف فقد جاء بعد المضاعف كقولك طب وطاب وضر وضار وصر وصار وأما الناقص فإنه يأتي بعده وكأنه اهمال الحرف الأخير أو أنه نوع من القطعة لغة لبعض العرب كقولك همر وهمى ومحق ومحا وشجب وشجا أي حزن .

والسبب الثالث هو ترتيب المزيد على المضاعف فقلما ترى في المضاعف معنى إلا ورأيت في مزيده مثله أو ما يقاربه كقولك سل وسلب ، وسل وسلت ، كد وكدح ، من

ومنح ، شم وشمخ ، ضم وضمد ، غم وغمر ، طم وطمس ، قش وقشط ، جم وجمع ، رد وردع ، صد وصدغ ، خس وخسف (أي نقص) ، رج ورجف ، رص ورصف ، صد وصدف ، زل وزلق».

ثم يورد اسبابا أخرى ولولا أنها مجهدة لاوردناها هنا ولكنها هي احرى بعلماء اللغة والمتخصصين .

ومتن الكتاب على هذا النسق إذ يأتي باللفظة الواحدة من المضاعف فيشرحها وينقل ما جاء في مختلف المعاجم مصوبا هذا ومخطئا ذاك ، ثم يدلي برأيه أو ترجيحه الخ . . . ثم يزيد على المضاعف حرفا كالالف فيأتي المعنى الآخر فيشرحه ، وينقل اقوال المعاجم كما فعل في اللفظة الأولى ثم يزيد على المضاعف حرفا آخر كالباء مثلاً ويأتي المعنى الثالث . وهكذا دواليك إلى أن يأتي على جميع الأحرف والمزيدة على المضاعف . كقولك حب ثم يأتي بعدها حبت وحتب وحبث ثم حبج الخ . . . وعندما تنتهي الأحرف المزيدة ينتقل إلى مقلوب المضاعف كقولك : حب ومقلوبها بح ويأتي لها بالأحرف الزائدة في آخرها كقولك بحا بحب وبحت بحث وبحج الخ . . .

وهو يجمل ابحاثه في هذا الكتاب فيقول إنه كشف فيها عن مستور المباني واوضح مشكلات المعاني وإنها خفيت على ارباب اللغة وإنه « لم يمد لاظهارها احد قبلي باعه ، وإن كنت اقلهم ودونهم فهماً فإنما هو سر كشفه لي الباري سبحانه وتعالى في بعض الليالي الشديدة والنفس قانطة من الفرج ومتمنية اللحاق بمن درج ولذلك سميت هذا المؤلف سرّ الليال في القلب والأبدال ، وكان الأولى أن يسمى باسرار اللغة والكلام ولكن هكذا جرت التسمية فلم اعدل عنها»(٩٣).

قال مارون عبود يصف هذا الكتاب « لو وضعنا معاجم اللغة كلها في كفة وسر الليال في كفة لشالت في الميزان ، فكلمة البحر تكاد لا تفي صفة لأحمد فارس اللغوي . وهنا ، لاغير ، يصح أن يقال : هل ركبت البحر ؟ لا في كتاب سيبويه » .

وكتاب « الجاسوس على القاموس »(٩٤) كان الغرض من إنشائه الدعوة إلى وضع القواميس على النسق الحديث ، فالقواميس القديمة في رأيه وقاموس الفيروزابادي على التخصيص فيها من القصور والابهام وغيرها من الأسباب «ما يحض اهل العربية على تأليف كتاب في اللغة يكون سهل الترتيب واضح التعريف ، شاملاً للالفاظ التي استعملها الادباء والكتاب ، ويكون سهل المجتني داني الفوائد ، بين العبارة ، وافي المقاصد » وقد هاله أن لغات الاجانب أخذت تزاحم اللغة العربية عند اهلها ، لأن

ترتيب قواميسهم اسهل والوصول إليها اعجل ولا سيما أنها قليلة المشتقات وليس في تعريف الفاظها اختلاف يذكر .

والمؤلفون الأولون قد الفوا واجادوا . غير أنهم الفوا كتبهم على حسب افهامهم ثم هم لم يضبطوا كلامهم ، فكان يقع في كتبهم التصحيف .

والكتاب المهم اللغوي الثلث هو « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » وقد بقي هذا الكتاب مخطوطا ولم يطبع. ويقال إنه ذهب في الحريق الذي نشب في بيت الشدياق في اسطنبول ، والذي لم يبق ولم يذر ، فاحترق مع المكتبة الثمينة والوثائق الهامة ، والمخطوطات التي لا تقدر بثمن .

ويقول مسعد عن الكتاب إنه بلغ عدة مجلدات ، وذكر الشدياق كتابه هذه للمرة الأولى في مقدمة الساق على الساق ، مما يدل على أنه بدأ بوضعه في نحو السنة ١٨٥٤ وربما قبلها. وفي رسالته التي بعث بها في ١٨٨٧ إلى جودت باشا يقول إنه انهاه منذ اربع سنوات . وبذلك يكون قد امضى نحو ٢٩ سنة في تأليفه أو اكثر .

وليس لهذا الكتاب تعريف ثان يستطيع المرء أن يلم بفحواه ، إلا النذر القليل مما جاء في مقدمة الساق على الساق وفي مقال في الجوائب .

بيد أن في الرسائل التي كتبها الشدياق في آخر أيامه ما يدل على أنه كان كتاباً فذاً وأنه كان يرى فيه قمة كتبه وحصيلة عمره .

قال في رسالة إلى أبن شقيقه ظاهر الشدياق إن الكتاب : « لم يسبق له نظير ورأيت أن تقديمه إلى الحضرة العلية السلطانية لايخلو من فائدة ، اما بترتبيب معاش أو باعطاء جائزة . وفوات هذه الفرصة يميتني بالندم ، لأن من عادة السلطان أن يدرك قدر من كتب وما كتب » فأين امسى الكتاب ؟

يقول مسعد إنه احترق مع ما احترق في بيت الشدياق في اسطنبول . في رأينا ان هذا المصير غير مؤكد ، بل هو احتمال ، وهناك احتمالات أخرى ، منها مثلاً ، كأن يكون تسنى لجودت باشا أن يقدم الكتاب إلى السلطان عبد الحميد فضمه السلطان إلى مكتبته المعروفة باسمه. ومنها أن الفرصة لم تؤات الوزير لتقديم الكتاب في الوقت المناسب ثم بلغه وفاة الشدياق فضمه إلى مكتبته الخاصة . وفي هاتين الحالتين قد تأتي الأيام بالكتاب .

أما الاحتمال الثالث وهو أن يكـون جودت بـاشا قـد اعاده إلى ابنـه سليم وهناك احتـرق مع غيـره من المخطوطـات ، وهنا يصـح قول مسعـد ، فخسرت العربية هـذا الكتاب الفريد الذي « لم يسبق إليه قط » .

الشاعر

يكرر الشدياق في ما يشبه الاصرار على تسمية نفسه بالشاعر ، ومع تفوقـه وتفرده بقدرات أدبية ولغوية وفكـرية كبيـرة فقد كـانت صفة الشـاعر وهي اقـل ما عنـده محببة إليه . فإذا كان الشدياق الشاعر لا يرتفع إلى مرتبة الشدياق الكاتب واللغوي والصحفي والمصلح الاجتمـاعي ، فلا ينكـر عليه شـاعريتـه وقريحتـه . ولو جـردناه من كفـاياتـه هذه لبقي الشدياق شاعراً مجيداً ولكن طغيان هذه الكفايات اضاع الشاعر .

يقول في مقدمة ديوانه إنه اولع في سن مبكرة بأربعة اشياء :

١ ـ بالموسيقى والعزف على الكرفت والطنبور .

٢ ـ بتجويد الخط .

٣ ـ بالنظر في الكلام والتقاط الالفاظ .

٤ ـ بالنظم .

كانت سنه لا تتجاوز الثالثة عشرة حين دعي لتعليم احدى الفتيـات القراءة فعلق الصبي تلميذته وشغف بها فقال فيها :

بـروحـي مَـن اعـلّمــه وقـلبـي   أسـير هـواهُ لا يسـطيـعُ صبـرا
أغـار عليـه وجــداً من حـروف   يـفــوه بهـا فتـلثم مـنــه ثـغـراً

فكان هذان البيتان أول ما نظم ، ولما اطلع أبوه على تلك الابيات لامه عليها ونهاه عن النظم ولكنه عصي أباه واستمر في المحاولات فكان مرة يخطىء ومـرة يصيب إلى أن سـافر إلى مصـر واتصل بنصـر الله الطرابلسي الحلبي والشيـخ شهاب الـدين الخفـاجي فسددا خطاه في صناعة الشعر والأدب(٩٥) فكان له في آخر عمره ديوان من نحو عشرين الف بيت .

والـديوان هـذا لم يطبـع بل ذهب أيضـاً طعمة للنيـران في بيتـه . وللتعـرف عـلى الشدياق الشاعر لم يبق من شعره إلا ربع الديوان أو ثلثه على اكـثر تقديـر . ففي الجزء

الثالث من كتاب كنز الرغائب نحو اربعة آلاف بيت واقل من هـذا العدد منشور في بقية اجزاء هذا الكتاب وفي بعض اعداد الجريدة وفي كتبـه ورسائله إلى اهله واصـدقائـه وفي خـواتيم بعض الكتب والتـرانيم . أمـا مقـدمـة الـديـوان فقـد طبعهـا في كـراس عـلى حدة[٩٦] .

كـان شعره يتـراوح في الميزات ، تـظهر فيـه جزالـة اللفظ مـع طـابـع خـاص في الاستعارات وقوة المخيلة وجـلاء التصويـر ولكن المفردات كـانت في بعض الاحيان تـأتي جافة بسبب انطباع المعاجم في ذاكرته .

وافضل ما نظمه كان يأتي عن التأثـرات الذاتية والوجدان العميق كمناجاة الخالق أو الحزن على ولد أو صديق أو الشكوى من صروف الدهر أو طلب الاقـالة من عثـار أو الشكر على نجدة أو المديح ، وقد كان هذا الضرب الأخير من الشعر يطغى على كل مـا بقي من الديوان ولعـل اشهر مـدائحه وافضلهـا القصيدة التي مـدح بها أحمـد باشـا باي تونس وعارض بها قصيدة كعب بن زهير الشهيرة :

بانتْ سُعاد ، فقلبي اليومَ متبولُ ،　　مُتيم إثـرهـا ، لم يفُـد ، مكبـولُ

وقد اختار معارضة القصيدة الغراء زيـادة في تكريم البـاي نظراً لشهـرتها ومقامها الرفيع في المدائح النبوية . وبدأ ، كما بدأ كعب ، بالتغزل بسعاد .

زارت سعـاد وثـوب الليـل مسـدولُ　　فـما الـرقب بغـير النشر مـدلـولُ
تـرمي سعـاد بسهم عن حـواجبهـا　　فـفي الخـليـين مجـروح ومـقـتـولُ
طـال التشـاكي بنـا حتى كـأن تبـا　　شير الصبـاح وقـد لاحت تهـاويـلُ
لم اعـرف الهمّ إلا مـذ كلفتُ بهـا　　وصـار في وصلهـا للنفس تسـويـلُ
مـاالحب إلا غـذاء الصب مكتهـلا　　وقبـل ذلـك نـقـل ثـم تـعـليـلُ

أما المديح فقال فيه :

سـاس البلاد بعـدل ليس يصرفـه　　لهـو المعيشـة عنـهُ والابـاطيـلُ
وقـامَ بالـدين والدنيـا فـما بـرحـا　　بـه سعيـدينِ لا يعـدوهُمـا سـولُ
غـار الحيا منـه حتى قـال قـائلهُم　　لنـا سَحـابـان مسئـول ومملولُ
لـو كان امسـك اجـلالا لـراحتـهِ　　لمـا عدا من نـداها الأرض تحليـلُ

مليت يا تونس الخضـراء حضرتـه | ما دام في الأرض قطر وهو مأهولُ
إن كان في مصر يرجى النيل آونة | ففيــك في كــل آن جــودُهُ نيــلُ

وبالاجمال فقلّ كانت هذه القصيدة من اجود مدائحه . ولعل معـارضتها لقصيـدة كعب خلعت عليها طابعـا خاصـاً ، والمعارضـة عادة يسهـل نفاذهـا إلى القلب إذ تكون القصيدة « الأم » قد مهدت للآذان أن تطرب بالجديدة .

وللقصيدة هذه قصة ذكرها ابن أبي الضياف في كتابه « اتحاف أهل الزمان بـأخبار ملوك تونس وعهد الأمان » وكيف تُليت على الباي أحمد. قال أبو الضياف: انه كان للباي المذكور «في تعظيم الجناب النبوي والأدب معه آثـاراً مشهورة. مـدحه شـاعر، هـو أحمد فارس صاحب الجوائب، بقصيدة عارض فيها قصيدة كعب بن زهير في المصطفى صلّى الله عليه وسلم، «بانت سعاد» المشهورة. فلما قرأت مطلعها بين يديه،اقشعر وقال لي:« هذه معارضة لبانت سعاد »؟ فقلت له « نعم » فأمر للشاعر بجائزة سنية وقـال لي : « مزقهـا الآن » فقلت له : « بعد قراءتها نمزقها » فحلف بـالله « لا نسمعها ولا يسمعهـا أحد من خاصتي » . وبقي يستعيذ بالله أن يعارض مـدح المصطفى بمـدحه مـع أنه لا محـظور في ذلك . لكن الأعمال بالنيات . ونية المؤمن خير من عمله »(٩٧) . وقـد طوى الشـدياق القصيدة زمناً طويلاً احتراماً لموقف الباي ورغبتـه ولم ينشرهـا إلا بعد وفـاته بـطلب من حسين باشا أحد امراء تونس وأدبائها فكـان لها صـدى في الأوساط الأدبيـة وترجمهـا إلى الفرنسية شعراً المستشرق غوستاف دوغـا (Gustave Dugat) عضو الجمعيـة الآسيويـة وطبعها مع نصها العربي سنة ١٨٥١ في باريس .

ولم يخل امر ترجمتها من الطرافة فقـد ذكر في كتاب كشف المخبأ « أن لا شيء عنـد الإفرنج اقبح من أن يروا في قصائد المدح تغزلاً بامرأة ووصفها بكونها رقيقة الخصر ثقيلة الكفل نجلاء العينين سوداء الفرع وما أشبه ذلك ، فشعرهـم كله خصي . وافظع منـه التشبب بغلام وأقبح من هـذا وذاك نسبة شيء من صفـات المؤنث إلى المذكـر ، إلى أن يقول : ولمـا ترجـم مسيو دوكا قصيدتي التي مـدحت بها المـرحوم أحمـد باشـا والي تونس وطبعهـا مع التـرجمة كـان بعضهم يسـألني هـل اسم البـاشـا سعـاد ؟ وذلـك لقـولي في مطلعها : زارت سعاد وثوب الليل مسدول فكنت أقول : لا بل هو اسم امرأة . فيقول السائل : وما دخل المرأة بينك وبين الباشا ؟ وهو في الحقيقة أسلوب غريب للعرب » .

ومهما يكن من أمر هذه القصيدة فإنها فتحت للشدياق باباً على تونس ظلت منافعه

جارية عليه إلى آخر أيامه سواء أكان ذلك من ولاة تونس المتعاقبين بصورة مباشرة أو كان من وزرائهم .

يأتي بعد المديح من حيث الغزارة ، الهجو والنظم المتهكم المقذع ويكاد شعره في هذا الباب ينحصر في التتنجي . ويتميز شعره فيه بأنه كان يتضمن نقداً لغوياً متيناً وساخراً معاً وأفضل قصائده في هذا الباب التي كان مطلعها :

أكل اثيت الشعر للعجم ساحر ... مطاع لما ينهى بما شاء آمر

وهي قصيدة طويلة نشرنا بعض أبياتها في فصل سابق عند كلامنا عن الصدام بين الرجلين . ومما قاله في قسمها الآخر :

يمنّيهم ما لم يصدِّقه عاقل ... ويوهمهم ما لم يحققه خابر
يقول لهم لا خير في القول معرباً ... وأن كلام العلم بالدين ضائر
وإن لفي القول الركيك تبركاً ... وروحاً لقوم عنهم العار ظاهر
وإن غناء اللحن في القول عندهم ... لكاللحن في الإيقاع والأصل ظاهر
وإن « تكاة » جمع « متّكيء » أتى ... وإن « مصونا » لا « مصاناً » لنادر
وأشياء أخرى لو تقصيت عدّها ... لما وسعت معشارهنّ الدفاتر

نظم الشدياق قصائد وموشحات وتواريخ كثيرة في التتنجي عثرنا منها على نحو خمسمئة بيت لم يطبع منها شيء من قبل وإذا اضفنا إلى هذا الرقم ما نشره في كتاب الساق على الساق وغيره لكان العدد كبيراً يمثل غيظ الشاعر ونقمته .

كان الشدياق يرسل ما ينظمه إلى التتنجي تباعاً للضرب على اعصابه وشله كما كان ينشر اشعاره على الملأ لذمه وتحقيره بين الناس . وكان يلجأ إلى التحايل لايصالها إلى صاحبها فيرسلها على يد رجل احياناً ويقول له إن رجلاً أتى من الشرق وسلم له هذه الرسالة لايصالها إليه . فيخدع التتنجي بهذا الكلام ويتسلم هجوه بيده . وفي مرة أرسل إلى صديق له في لبنان اسمه جرجي الخياط ، وهو أديب معروف ، موشحاً وبضعة تواريخ لارسالها تباعاً إلى صاحبها في مالطة وكذلك رتب مثل هذا التدبير مع صديق له في الاستانة وأرسل أيضاً إلى شقيقه طنوس تواريخ وقصائد لقراءتها على من يشاء ، ثم إرسالها إلى صاحبها وهكذا ظل التتنجي يتسلم ، من عدة جهات ، شتيمته مقدرة ومقسطة .

أما شعره في الرثاء فكان أقل من شعره في المديح ولكنه أجود لأنه كان أصدق

عاطفة، وأكثر مراثيه كانت في بعض عظماء الدولة ولكن أرقها كانت المرثية التي نظمها في ابنه اسعد وقد توفي طفلاً فوصف فيها لوعة الوالد المفجوع، ويمكن مقارنتها بقصيدة ابن الرومي من حيث صدق العاطفة ولكنها لا ترتفع إلى مستواها من حيث الجمال الفني.

أما نزعات النفس والشكوى والعتاب والحكميات فجاء اكثرها في خواتيم الجوائب فقد كان يختتم كل عدد من الجريدة - في أول عهدها - ببيتين اثنين، وغالباً ما كانت هذه الخواتيم تصف مرارته وشكواه من احجاف الجوائب وأحياناً من كسادها.

وله مثان غيرها نشرها في كتاب الساق على الساق وكان يكتبها على باب غرفته في باريس وسماها الغرفيات ووصف فيها ضيق احواله وركاكة مسكنه. قال في أحداها:

إذا عصفت ريح وثارت زوابع ... وهدت رعود والغيوم مواطر
ومادت زوايا غرفتي وتزلزلت ... علمت بأن عندي يشرف زائر

وقال في غيرها:

تعالوا وافقهوا عني ثلاثاً ... تعلمكم مراعاة النظير
خلافي ثم جسمي ثم بيتي ... صغير في صغير في صغير

ومنها أيضاً:

أصبحت في غرفتي رهن الهموم فما ... يعتادني اشجاني واوطاري
أرى لكل امرءٍ انثى توانسه ... وليس عندي من انثى سوى الناري

وله بعض القصائد في تسبيح الخالق يختتم بها بعض كتبه. ومما قاله في قصيدة ختم بها كتاب «طبائع الحيوان»:

سبحان من خلق الأشياء متقنة ... فتعبده بالخلق والكلم
ما أن ترى عوجاً فيها ولا خللاً ... وإن منها لذا حمد بغير فم
إن اللبيب له في خلقها عبر ... والجاهلين عن التذكير في صمم
فخير ما قدم الانسان من عمل ... أن يحمد الله في بدء ومختتم

وقد يرى القارىء في هذه الأبيات أثر البوصيري في قصيدته البردة.

وفي الترانيم الدينية له بعض المقطوعات تنم على عاطفة صادقة قال في أحداها: (*)

(*) كتاب صليب المسيح ص ١٢.

ربِّ هب لي راحة قد أمَّمْتُ قبلك
وتملَّك في فؤادي وهب لي جَذَلَك
ثم صن ما قد شرى دَمَك المَسْفوك لك
وَتَحَكَّم لا شريك يداني مِثْلَكَ
ابد لي ما ينبغي فعله لي كلَّ حين
وانلني قوة ينجبر عظمي المهين
يسرن لي ان اعيش معيش المؤمنين
وامتني ذا هدى مثل موتِ الصَّالحين

الفصل الرابع

I

آراؤه الإجتماعية

الإنسان والمجتمع ـ حرية الفرد وحدودها ـ الدين والمجتمع ـ العدل الاجتماعي ـ المرأة في الساق على الساق ـ المرأة في الجوائب ـ الولد وتربيته .

في رفقة القارىء للشدياق تبرز له منه آراء تتردد في أكثر من صورة وأكثر من سياق ويشكل ترددها شهادة على عمق اتصالها بشخصيته الفكرية ونظرته الى الحياة والانسان . والانسان كما يراه ليس مجرد ثمرة للمجتمع في طباعه وميوله وغرائزه ، بل هو كيان فذ يتميز بخصائص ذاتية فيه ، غير اكتسابية . وهو مركب على غرائز وطباع وميول متأصلة فيه ، فهو على العموم ضعيف ، طماع ، مغرور ، متقلب . وهذه النظرة بوجه الأجمال أقرب إلى نظرة القرن السابع عشر الفرنسي منها إلى القرن الثامن عشر .

ونظرة القرن السابع عشر هي النظرة الدينية التقليدية التي تجد أن الانسان لا يستطيع أن يصلح نفسه أو يغير من جبلته إلا برحمة من ربه . وهو بالاساس مسير يتحكم به قدر أو نجم ، كما كان يقول اليونان ، وهذه النظرة وإن كانت نظرة الأديان بصورة عامة إلا أنها في الحقيقة النظرة العامة عند الناس .

وإن الشدياق، ولو أنه يعطي العقل وزناً كبيراً في هداية الانسان ، إلا أنه لا يختلف جوهرياً عن النظرة الدينية الشائعة حول ضعف الانسان وتأصل خصال الهوى والعجز فيه . ولذلك ينزع الى صياغة النماذج البشرية التي يعتقد أنها ستبقى صالحة

لكل زمان ومكان . وهو يعتقد بجدوى العلم وما إليه ، في تقويم خلق الانسان ، إلى حد ما ، فيجعله عضواً نافعاً في المجتمع أو على الأقل مجملاً منسجماً « فليس من أنسان إلا وفيه عيوب ، غير أنه ينبغي لكل منا أن يجد ويسعى في طريق الكمال في تهذيب اخلاقه وحواسه الباطنة » .

إن هذه النظرة الواقعية الى الانسان لا يختلف ما ورد بشأنها في كتاب الساق عما ورد في الجوائب إلا بأسلوب البحث ففي الكتاب يصدر الكلام عن دراسة نفسية بينما هو في الجوائب عن نظرة في السلوك الاجتماعي . أما الجوهر فهو واحد في المكانين .

ففي الساق على الساق نماذج واضحة للانسان وأطواره المختلفة عني الشدياق بأبرازها في سيرته الذاتية . فسيرة الفارياق ليست وصفاً لأفعال وسرداً لأحداث اكثر مما هي تصوير لمواقف الانسان الحر العاقل امام صروف الحياة وتصاريفها وهو عندما يقدم لنا نفسه ويطلعنا على سلوكه تجاه المعضلات والمواجهات يدلنا على هواجسه وما يعتور مكنوناته وأفكاره ثم يحلل نفسيته بنفسه ويكشف لنا طبيعته . وهو يتعمد أن يظهرها غير مثالية ولكنها صحيحة وطبيعية .

وفي مقالات الجوائب تراه اكثر تسليماً بضعف الانسان فطيبته أو شره مخلوقان معه فإذا تعلم من كان مجبولاً على الصفات الحميدة ، فإن علمه يزيده دماثة اخلاق ، وسلامة طوية وعفة قلب ونزاهة لسان « فمثله كمثل الجوهر الشفاف إذا قابله شعاع الشمس » . فعلمه لا يزيده إلا لين عريكة وعزة نفس ، أما من كان مجبولاً على بعض الصفات الذميمة ، فالعلم يهذبه تهذيباً سطحياً لا يدخل في جوهر الخلق ولا في أعماق الطبائع . وشأنه أن يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين ، فمرة يقوي علمه على شره ، ومرة يقوي شره على علمه . فمثله كمثل الشمس في شهر الغيم تبدو مرة وتختفي أخرى . أما من تعلم العلم وهو على أخلاق ذميمة وفي نفسه تصميم على السوء فلا يزيده العلم إلا شراً ولا يزيده إلا قدرة على الأذى . « فمثله كمثل شمعة موقدة معرضة لعواصف الرياح فلا تزال الرياح تعبث بها يمنة ويسرة حتى يتمنى الناظر اليها اطفاءها بالمرة » وهذا النوع من الناس يجب الاحتراز منه أكثر من الاحتراز من الجاهل(١) .

ولعل المقال الآتي يرسم ، اكثر من أي مقال آخر ، صورة هذا الانسان كما يراها صاحب الجوائب .

« من تبصر بالأمور وتدبر المقدور وتقلب في حالات الدنيا وذاق منها البؤس

والنعمى وراقب الناس في معاملتهم وتصرفهم وتفرقهم وتآلفهم ومقاصدهم ومساعيهم وظواهرهم وخوافيهم ونفعهم وضرهم وخيرهم وشرهم تاه عن الصواب وران عن الارتياب ومد على فهمه حجاب . فإنك ترى الانسان من وجه خلقاً شريفاً ونوعاً لطيفاً لابل قيل أنه أشرف المخلوقات وأكمل المبروات لكونه عاقلاً بصيراً سميعاً خبيراً وقادراً على إعمال حواسه وأعضائه ، وبهذا يدني كل أرب لحوبائه ويستخرج من السماوات والأرضين ما خفي علمه وعز رومه ويسخر جميع الحيوانات لمآربه المخترعة ويصور الجماد على أشكال مختلفة مبتدعة وإذا شاء جعل البر بحراً والبحر براً والحر عبداً والعبد حراً والبرد حراً والحر قراً والظلام نوراً والمغمور معموراً والحزن سهلاً والبور حقلاً والوعر فجاً مسلوكاً والغفل ملكاً مملوكاً والسم دواء والسقم شفاً والزعاق فراتاً والأرق سباتاً والبعيد دانياً والمريد عانياً ، وبالجملة فإن كل شيء في الوجود كأنه لخدمته موجود على إرادته مرصود .

ومن جهة اخرى تراه عتلاً زنيماً شريراً لئيماً مريداً عنيداً حسوداً حقوداً شرساً شكساً ضبساً طفساً قذراً مذراً ذعراً دعزاً يفكر في السوء على جاره الخدين ويخاصمه على شفرة سكين فإذا تمكن منها نحره بها نحراً وعاد وهو يجر عطفيه تيهاً وفخراً ويحسب أنه احرز بذلك ذكراً . وتراه غير قانع بالكفاف ولا راجع عن الحاف ولا مقلع عن هوى . . .

فهذا الانسان الذي هو مصدر التمدن ومورد التفنن يفعل ما لا تفعله الضبع في وجارها ، إذ يريد أن يشتف الدنيا على اصبارها ويبتلعها بحذافيرها ولا يرى لأخيه معه شركة في قليلها فضلاً عن كثيرها »(٢) .

هذه الصور وأمثالها والملاحظات على سلوك الناس في مختلف أوصافهم وما يطرأ عليهم ، وردود الفعل عندهم تجاه ما يصادفهم من أفعال ، وهي على كثرتها في الجوائب ، لا تتجمع في عقيدة مركزة واضحة ، إن هي إلا نفثات وحسب يظهر فيها الإنسان غير مثالي عجيباً متقلباً يجمع المتناقضات ويمكن تلخيصه بأنه صورة للانسان الضعيف .

حرية الفرد وحدودها

وكان الشدياق محكوماً بفكرة المقارنة بين المجتمع المتخلف والمجتمع المتقدم ولكل مجتمع من هذين المجتمعين سماته وعلاماته الفارقة . وأكثر ما تظهر هذه السمات

والعلامات الفارقة في موقفه من بعض القضايا الهامة كالحرية والقانون والمساواة ومفهوم الدين والعدالة الاجتماعية . وفكرة المقارنة هذه نجدها في مجمل كتاباته ، في الواسطة ، في كشف المخبا ، وربما في الساق على الساق ، على أن اكثرها تبسطاً واسهاباً وأوقعها منطقاً ووضوحاً تلك التي كانت ترد في جمله الأدبية في الجوائب .

ومع أعجابه بالنهضة الأوروبية الحديثة فقد وقف متحفظاً بالنسبة إلى الكثير من أوضاعها الاجتماعية ومفاهيمها . وقبل أن يتخذ أي موقف من أوضاعها هذه وقبل أن يدعو الى أية فكرة نظر إلى المجتمع على اطلاقه أكان غربياً أم شرقياً ، فكانت له قناعات تنبع من الوجدان الشرقي ولكن غير المتزمت .

ففي مجال الحرية الاجتماعية مثلاً يتساءل هل من الخير أن تعم هذه الحرية المجتمع برمته ، بجميع افراده ، وفي المجتمع هذا يوجد الكريم واللئيم والشريف والسافل والفاضل والمفضول ؟ أجاب : « ان الحرية تكون مفيدة إذا روعي فيها مصلحة عمومية على اخرى خصوصية لا بالعكس » .

ولما كان السفلة من الناس اصحاب مبادرة في السطو والشر والاقلاق وكان الكرام ذوي تصاون وترفع فإن تعميم الحرية على الفريقين تفضي إلى « تسويد اللئيم على الكريم » فالحرية هذه ، إذن ، لا يستأهلها كل الناس ، فليس للأوباش مثلاً « أن يسكروا ويزأطوا كما يجري في المدن الأوروبية ويصيحوا في الشوارع مقلقين بال الناس وراحتهم بزعم أنهم « أحرار » ، فتبا لهذه الحرية » .

يجب ألا يفهم من هذا أنه ضد المساواة بين الناس . بالعكس ، « كلنا في الحقوق سواء » ولكن هذه المساواة هي أقرب الى القناعات الوجدانية منها إلى النصوص القانونية ، فليست هناك مساواة مطلقة وعدل قانوني بل مساواة وجدانية وعدل وجداني . والعدل هو العدل النابع من الضمير . فعلى القاضي أن يفرق ، في أحكامه ، بين الكريم واللئيم ، « والله تعالى لم يسوي بين العباد بل فضل بعضهم على بعض فكيف يسوي القاضي بين اللئيم الذي يبذل ماء وجهه ، والأوباش والسفلة ، وبين الكرام وذوي الأدب والعرض وأهل الفضل »؟(٣) .

الدين والمجتمع

لكن حكماً عادلاً وقضاء عادلاً لا يكفيان وحدهما دون الدين . فالدين ضروري للمجتمع ولا تقوم الدولة ولا القانون مقامه في الردع فهو الطريق إلى ربط الانسان

بالفضيلة . وإذا سلمنا أن الكيسين وأهل المعارف والأدب غنيون عن الدين لا نسلم بأن الجمهور الأعظم ، وفيه الرعاع « غير مفتقرين الى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعل الخير » .

ولا تصلح الدولة لتقوم مقام الدين. ومهما كانت عينها ساهرة، فإنها لا تصل إلى الناس في خلواتهم ومكامن الستر والتستر عندهم « ولكنهم إذا هم تحلوا بالفضائل الدينية فإنهم يستحضرون خالقهم في السر والعلن وكان لهم بذلك اعظم وازع ورادع » .

وما يعجز المجتمع عن تقويمه بواسطة نشر الفضائل أو وضع القوانين والشرائع يفرضه الدين . وجوهر الدين هو الدعوة إلى « مكارم الاخلاق والابتعاد عن الشر » وخلاصته هي « الألفة بين الناس والمحبة والمساعدة »(٤) .

وليس في الدين فرق بين « ذوي وجوه سمر أو حمر أو صفر أو بيض » وعلى هذه الأسس كلها فإن « اتصاف امة بعدم الدين من أعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها »(٥) .

بيد أن ما كان يهول الشدياق، هو أن هذا الدين ، الذي يركز اللحمة في كيان المجتمع ، ويجمل النفوس بالفضائل والمناقب الأثيرة ، أصبح سبباً لتغيير سيماء المجتمع وتفتيته وتشويهه ، وسبباً للشرور عند أقوام كثيرين .

العدل الاجتماعي

في الفصل الذي يسميه « خواطر فلسفية » من كتاب الساق تظهر أفكار الشدياق الاجتماعية اكثر وضوحاً مما هي عليه في أي فصل من فصول كتابه ، أو أي كتابة من كتاباته سواء أكان ذلك في كشف المخبأ أو جريدة الجوائب .

ففيه تظهر دعوته الى العدل الاجتماعي بجلاء . ولا يستدعي هذا بالضرورة ازالة الطبقات فليس هو ضد الطبقية ، إذ « لا ينكر أن وجود الغني والفقير في الدنيا لابد منه كوجود الجميل والقبيح » وهو مع تسليمه بالاساس الذي يقوم عليه النظام الاقتصادي والاجتماعي ، في بريطانيا ، أو أي بلد زاره ، فإنه يرى أن العدل بالمعنى الاجتماعي غير موجود .

ثم يتساءل كيف أن بريطانيا ، المعروفة بالعدل ، تسمح باستمرار الحالة التي

عليها الفلاحون والصناع ، في أريافها ومصانعها ، فهم أشقى خلق الله « ولا فرق بينهم وبين الهمج » وهو ينكر هذا الفقر المدقع الذي يلقي الهموم والأحزان الدائمة في قلب صاحبه ويتساءل « كيف يقع هذا في هذه البلاد التي ضربت بعدلها الأمثال؟ » فالمجتمع بالنتيجة جسم واحد ، وكل عضو فيه ذو وظيفة يؤديها داخل هذا المجتمع بقطع النظر عن كونه وضيعاً أو رفيعاً فهو ضروري . مصلحة الرأس مهمة وكذلك مصلحة بقية الاعضاء . فإذا كان الناس على اختلاف احوالهم ومراتبهم ، هم كالجسم الواحد ، باختلاف ما فيه من الاعضاء الجليلة والحقيرة فلم لا يجري العدل بينهم كما يجري بين الأعضاء ؟ وإن الانسان إذا أكل شيئاً أو لبس شيئاً فإنما يفعل ذلك لاصلاح الجسم كله . ثم إنه ليس من مصلحة الفقير فقط أن تتحسن حاله ولكن النتائج ستعود على المجتمع كله .

وهو يطعن في قول الاغنياء من أن تحسين حال الفقير يبطره . وهو لا يسلم بالمسلمة ذات الجذور الدينية والتي تنسب للفقير فضائل يجب ألا نسلبه إياها عن طريق تحسين حاله بل هو يقول أن الشقاء ادعى الى الفساد والكفر . يجب ألا يفهم من هذا الكلام أنه عدو للغني ولكن يجب الا تشوب هذا الغنى رائحة السرقة أو الغدر أو أن تكون فائدته مستأثرة ومسخرة لفرد لأنه سيكون في هذه الحالة باباً إلى السوء(٦) وطريقاً إلى الفساد ومصدراً للخلل ، وهو بالأجمال مضر بسعادة صاحبه لأنه يفقده لذة القناعة ويصعب عليه أن يفطم نفسه عن الشهوات .

وأفضل من الغني القناعة فهي الرواق المؤدي الى السعادة ، ويقصر عنها المال ، ولو طال السماء . فالفلاح مثلاً أو صاحب الصنعة اللذان يكتسبان من كد يديهما هما اسعد حالاً من الغني المشتت الأفكار . . . فهو أسير ديناره ولا يرعى ذمة جاره .

هذه بعض آرائه الاجتماعية . وقد لا تصور كل ما قاله في هذه الموضوعات غير أنه بإمكاننا أن نلخص افكاره الاجتماعية بأنه :

١ـ ليس ضد التملك والملكية الواسعة وهو ليس داعية للمساواة الاقتصادية بين الأفراد وبين الطبقات ، بل هو ليس ضد وجود الفقر إذا لم يكن هذا الفقر مدقعاً . وأقرب شيء عنده من الأفكار الى الاشتراكية الضيقة ، فكرة استغلال الانسان للانسان .

٢ـ وهناك ظاهرة اخرى من تأثره بالاشتراكية ، هي ورود البحث في شؤون

العمال متجاوراً مع البحث في شؤون الفلاحين ، وجمع القضيتين في حالة اجتماعية واحدة . وهذا ناشيء عن تأثره بالبيئة الفكرية الاشتراكية التي تنظر الى هذه الطبقات على أنها الطبقات المستغلة والمظلومة من النظام . وأفكاره هذه مكتسبة من البيئة الأوروبية ومن الوضع الذهني فيها .

٣ـ على الرغم من أنه ليس داعية ، بطبيعة الحال ، إلى دولة العمال والفلاحين إلا أنه ذو حساسية لوجود الطبقات . وهو دقيق في ملاحظة بعض الامتيازات التي تتمتع بها فئات معينة في المجتمع ، كالقسيس والخولي مثلاً ، هذه الفئات التي تسمى أحياناً فئات طفيلية في المجتمع . وهذه امتيازاتها ليست ناتجة لا عن ارث كما هي عند النبلاء ولا عن كد اليمين كما هي عند الطبقة المتوسطة من التجار مثلاً . فيبدو للأرث ، إذن ، شرعية في نظره وكذلك للكد .

ثم إن أبعد ما في دعوته الاجتماعية عن النهج الاشتراكي ، هو توجهه دائماً إلى الأغنياء : أعملوا كذا لأن في ذلك مصلحتكم ، سايروا الفقراء لأنه كذا . . . وهذا التوجه إلى الأغنياء هو ما يسمى عادة بالمحافظة المستنيرة أو باليمين الذكي . وهو يخشى أن تنقلب نقمة الفقراء إلى دعوة سياسية في ما يسميها « طريقة الأشتراك » عندئذٍ قد لا يقف في وجهها أي اصلاح اجتماعي .

ولكن مع ذلك ، فله شطحات ثورية فكرية تصل إلى حدود الثورة الاشتراكية فقوله ان حاجة الغني إلى الفقير أكثر من حاجة الفقير إلى الغني معناها أنه من الممكن قيام مجتمع من الفلاحين والصناع ولكنه لا يمكن قيام مجتمع كله من الأغنياء . وأن دولة الفقراء أي الفلاحين والصناع أقرب إلى الواقعية وإلى الحق من دولة الأغنياء .

وفي هذه الشطحات مثالية طوباوية وشك عميق يقيم المجتمع الذي هو من طبيعة تفكيره وطباعه ومزاجه . أي بعد كل حساب : من أنت يا غني ؟ و« كيف بني هذا العالم على الفساد وكيف يشقى فيه رجل بل الفان ليسعد رجل واحد »(٧) .

ودولة الفقراء ليست في أساس منطقة ولكنها فكرة استطرادية تساق في معرض كلامه حول تبديل أحوال المجتمع ومن قبيل الضغط على القادرين وعلى المالكين .

المرأة في كتاب الساق على الساق

يقول الفارياق أن حديثه في كتاب الساق على الساق عن المرأة هو بخلاف ما

ينتظره القاريء فإذا ما خطر بباله أن الكلام سيكون من النوع المألوف والذي جرت العادة عليه من ذكر مزايا المرأة في شؤون المنزل : « ومن أنها تحسن أعمال الخياطة والتطريز ، فيقول له ، أن ذلك مذكور في كثير من الكتب فعليه بمراجعتها »[٨] أما هو فسوف يحدثه بأمور جديدة ومن النوع المكشوف ، وعلى التخصيص عن وضع الغريزة بين الحرية والكبت ومعضلة القيود الاجتماعية وهيمنتها على الانسان وعن سلوك المرأة وموقفها تجاه سطوة الغريزة ومدى قدرتها على الكبت أو العكس فأنطق المرأة بأفكارها وخواطرها وشكواها وكشف عن معضلاتها حتى أمكنه القول في نهاية الحديث : « كأنه عاش برهة من الدهر امرأة » .

وقد رأينا أن نقسم آراءه في موضوع المرأة إلى قسمين :

أولاً : من حيث الغرائز وأثرها في سلوكها وطباعها .

ثانياً : من حيث أوضاعها الاجتماعية وتحريرها وتعليمها ومساواتها مساواة مطلقة بالرجل ، ومسؤ وليتها في تربية الولد .

ولا بد لنا من الملاحظة هنا أن القسم الأول أو الطور الأول المتعلق بسلوكها وعواطفها وردت في كتاب الساق على الساق بينما جاء القسم الثاني في جريدة الجوائب وكتابي الواسطة وكشف المخبأ . نقول هذا بوجه الاجمال إذ لا يمنع من أن يكون لكل من البحثين وجود في المواضع الأخرى .

وقد يفيد أن نذكر وضع الشدياق النفساني والعائلي قبل أن نذكر آراءه في المرأة وسلوكها ، كما وردت في الساق على الساق ، إذ أن هذا الوضع النفساني والعائلي كان لهما أثر واضح في الاتجاه والاسلوب .

كانت زوجته قد غادرته منذ نحو السنة ونصف السنة إلى البلاد الدافئة بسبب سوء صحتها . وقد تمتع الآن في باريس بحرية لم تكن له من قبل ، وقد كان من المستحيل عليه أن يكون بعيداً عن النساء ، وهو النهم الذي لا يشبع والظمآن الذي لا يرتوي . والانسان ، كما كان يقول « له عقل يدله على ما ينفعه ويضره ويسؤه ويسره ، وأن معدته وفي حلقومه ميزاناً قويماً يزن به ما هو محتاج إليه من الطعام والشراب ، فأما في أمر المرأة فالقانع العزوف يغدو شرها رغيباً والرشيد غوياً » . . . « والجائع إلى النساء ليس له شكل ينتهي إليه »[٩]. فغياب زوجته عنه وحالته النفسية المنتعشة في الجو الأوروبي الطليق وضعته مرة أخرى على عتبة الصبا فارتد مراهقاً .

وكانت الصدمة التي سببتها له زوجته في مالطة قد بدلت رأيه في المرأة رأساً على عقب كما ذكرنا سابقاً .

لقد برىء الآن من الثقة بها وحسن الظن فيها ، بريء من عذريتها ، بريء من مثاليتها ، من حديثها الناعم اللين ، من سذاجتها الطاهرة الظاهرة وما تخفي تحتها من مكر ودهاء وخداع . ولكنه وإن يكن قد برىء منها إلا أنه لم يهل عليها الشتائم بل تحول الى التأمل في سلوكها والنظر في أمرها ليصل الى الأسباب والدوافع فقصد الفارياقية ذات يوم وسألها :

قولي بحق السطح ، واصدقيني فيما تقولين ، هل لذة المرأة حين تنظر إلى جسم الرجل كلذة الرجل حين ينظر إلى جسم المرأة ؟

قالت : هما سيان ولعل الأولى اعظم .

قال : كيف ذلك والرجل لا نعومة لبدنه ولا ملوسة وقد خصت المرأة بمحاسن كثيرة خلا عنها الرجل ، وذلك كرقة البشرة ونحول الخصر ولطف الكتفين ولطف اليدين ؟

قالت : أن المرأة من حيث كانت تعلم أنه لا شيء في الدنيا يسد عندها مسد الرجل كان يشوقها منه أدنى شيء فهي إذا مال بها الهوى فإنها تترك أباها وأمها اللذين ربياها وتقبل تجري في أثر رجل لا تعرف من صفاته شيئاً سوى كونه رجلاً »[10] هذا هو الواقع كما تصفه الفارياقية ، والمشكلة هي أن الرجل ، بسبب تهاونه وربما اهماله يتجاهل خطورة الأمر فيؤدي هذا الموقف الى الاضطراب في التوازن العائلي وبالتالي إلى الاضطراب في السلوك وربما الجموح . وليس من العدل عندئذٍ ، كما تقول الفارياقية ، أن نحاسب المرأة دون الرجل فمحاسبتها وحدها دليل على أنها هي وحدها التي تخطىء وان خطيئتها خاضعة لمحاسبة الرجل وأن خطيئة الرجل مبررة ولا تخضع لحساب ، وهذا مغاير للعدل الطبيعي .

قالت الفارياقية : « ولو أن الناس سمعوا مثلاً بأن امرأة متزوجة تحب غير زوجها لأنكروا عليها ذلك كل الإنكار ، واستفظعوه غاية الاستفظاع ، فتطبل به الطبول وتزمر الزمور وتكتب الكتب ، ولا يبقى في البلد أحد إلا ويروي عنها حكاية أو ترهة ، فأما الذين سمعوا عن الرجل أنه يحب غير زوجته فإنهم يحملون فعلته على وجه مرض

ويعتذرون عنه باختراع سيئات لزوجته وهم لا يرون في فعله هذا سماجة مع أن للمرأة أسباباً تحملها على الشطح أكثر من أسباب الرجل .

قال الفارياق : تفضلي بذكرها كي اجانبها .

قالت : أولها ما إذا لم يقم الرجل بوفاء حق زوجته ، وهو حق الزواج الذي من أجله تترك غير مرة دينها .

قال : اللهم لطفك وعصمتك ثم ماذا ؟

قالت : ومنها اهماله أمورها وقلة اهتمامه بما فيه راحتها وانشراح صدرها وتطييب خاطرها وتلهيتها وتسليتها الخ . . .

قال : وتعريتها :

قالت: نعم كل هذا وأكثر، حالة كونها أسيرة بيته طول النهار قائمة بخدمته متعهدة لأموره، وهو يطوف في البلد من مكان إلى مكان وينتقل من سوق إلى سوق حتى إذا جاء منزله انطرح كالمغشي عليه وقال أن الشغل جهده والجهد شغله وأنه عرض كذا وجرى له كذا. مع أنه هو الذي تعرض لذلك الكذا وجرى لذلك الكذا. ومنها رقة فؤاد المرأة المشفقة التي فطرها عليها الباري تعالى ، فلا يمكن لها أن تقابل رجلاً عن مودته لها إلا بالوداد أو عن تعلقه بها إلا بالميل إليه والإقبال عليه »(١١) .

والمرأة قبل أن تكون زوجة ، كما تقول الفارياقية ، هي امرأة ولذلك : « إذا ما أهاج شيء من الطبيعة أحاسيسها لكان أول ما يخطر ببالها شخص متصف بالجمال كائناً من كان متخطية في صبوتها زوجها » ثم ان احتفالها بزوجها وتزيينها له إذا ما وجدت فيه ما صبت إليه لا يكون لأنه زوجها ، بل لأنه رجل فحسب « أي لا بالصفة العينية بل بالصفة المطلقة » .

وكثيراً ما تكون الزوجة عند هذا المراهق موضع الشك ، لا بل ويقول في بعض الأحيان أن الخيانة الزوجية شيء مقرر « وان هذا الزوج ورقابة أهله وأهلها وعيون الجيران تمنعها من الاتصاف بالصفة الزوجية التامة »(١٢) وليست الخيانة أمراً نادراً « فطالما قفل أحدهم إلى بيته فوجد فيه قفل عرضه مفتوحاً وسر أمره مفضوحاً فرأى في موضعه خيزناً وزبوناً وقرينا ومزونا » .

والمرأة في معظم صورها ، كما تبدو في الساق على الساق « كائن طاغ تغلب على

تضرفاتها الشطط والرجرجة والتطرف فهي الكائن الذي بيده خراب الكون وعمرانه فإذا أراد الله أن يقضي خيراً على الأرض قيض له امرأة فكانت الوسيلة الى اجرائه ، ويكاد لا يحدث في العالم خطب جلل إلا رآها من خلاله واقفة وراءه أو بالحري مضطجعة » فهي تبطن نهاية الخير وهي تبطن نهاية الشر كما أنها ذات بأس لا يدانيها فيه الرجل إذا ما صممت على أمر فمن طبائعها التطرف في كل شيء . فكل ما كلفت به كانت اكثر تمادياً من الرجل . وينهي الفارياق كلامه عن المرأة قائلاً « إن أخفي شيء منها إنما هو بحر لا يمكن البلوغ الى قعره »(١٣).

هذه هي المرأة كما جاءت في الساق على الساق وليس المجون في سياق الكلام إلا دعابة أسلوب وطرائف بيان توسل بها الكاتب الى الصراحة في تصويرها إلى أن قارب الاباحية .

المرأة في الجوائب

في الجوائب كان الشدياق يتكلم عن أوضاعها الاجتماعية وبالتالي العائلية والعلمية فخلا كلامه من الموضوعات الغرائزية . ويمكن تلخيص آرائه ، كما وردت في الجريدة بأنه لا نهضة للشرق إلا بنهضة المرأة ، فالأمران مرتبطان احدهما بالآخر فلا بد إذاً من البدء بتحرير المرأة لينهض الشرق ولا يكون ذلك إلا بتعليمها وتثقيفها فيرتفع شأنها بنظر نفسها أولاً ثم بنظر المجتمع فتصبح قادرة متمكنة من دورها الخطير . هذا هو الطابع الشامل الذي يمكن استخلاصه من مقالاته في صحيفته الكبرى . وقد جاء في لهجة المفكر والمصلح الاجتماعي والمعلم المهذب ، وخلت المرأة الآن من صفة المعناد الجموح بل أصبحت إنساناً مهيض الجناح لابد من الأخذ بيده وأنهاضه ليستوي للمجتمع توازنه .

لقد أراد الشدياق للمرأة أن تكون منطلقة في كل شيء ، تماماً كالرجل ، ضمن قواعد الفضائل طبعاً . وهو في هذا يختلف عن الطهطاوي والبستاني وربما قاسم أمين أيضاً الذين كانوا يدعون إلى امرأة مثالية ولكنها انطوائية غير منطلقة . ففي هذا التخطيط نرى أن الرجل كان لديهم مميزاً عن المرأة بينما هو عند الشدياق مساوٍ لها . وقد أرادوا وضعها ضمن اطارها الشرقي بينما الشدياق أراد أن « يمغر بها » . لأنه وجد أن النهضة الأوروبية مرتبطة برقي المرأة وبمساواتها بالرجل وأن أحد الأمرين مسبب عن الآخر أو أنهما تؤمان وكذلك إذا ما التفت الى تخلف الشرق فإنه يرى نفس هذا

التلازم، فهذا التخلف كان قرينه أوضاع المرأة الشرقية وتخلفها. فرؤية هذا التلازم والتبصر فيه يحتم تحرير المرأة وفتح طريق العلم والمعرفة في وجهها. ثم إنه من العبث أن تكون العائلة، هذه الخلية الاجتماعية المصغرة، سليمة إذا كانت المرأة العضو الاساسي فيها، لا تدرك أهمية دورها أو أنها ليست كفيئة لهذا الدور. فالأصح إذن أن يبدأ برفع مستواها لتكتمل لها الكفاءة في دورها في تربية العائلة.

وعلى الرجل أن يشرك زوجته بالنظر في اهتماماته لأن ذلك يضفي على جوهما الاحساس بالتساوي مما يدفعها إلى النهوض بذاتها فتكتمل لها شخصيتها ويرتفع وضعها في المجتمع، أما إذا ابتعدت عن هذه الاهتمامات أو هي ابعدت فسرعان ما ترى نفسها أنها اصبحت ثانوية أو تافهة فتنصرف من ثم إلى إضاعة الوقت بالأشياء غير المفيدة.

لا يقف صاحب الجوائب عند هذا الحد بل ذهبت دعوته إلى أن تتعاطى المرأة العمل مستقلة عن الرجل كما تتعاطاه المرأة الأوروبية فهي هناك معادلة للرجل في معاطاة الأعمال على قدر معادلتها له في القوة والجلد فكل ما تطيقه من عمل تباشره[١٤] وهي تبيع وتشتري وتتعاطى الفنون والصناعة وتكدح في أمور المعاش حتى انها تطالب بالحقوق السياسية.

لم يحدد الظروف التي فيها يمكن المرأة الشرقية أن تقوم بممارسة الأعمال بل اطلق هذا الحق بدون أي قيد للظروف أو الحالات. فجاء قاسم أمين من بعده وقال أن المرأة الشرقية غير مستعدة اليوم لشيء مطلقاً فيلزمها أن تقضي اعواماً في تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال في ميدان الحياة العمومية.

ولكن منزلة المرأة في هذا الاطار لا يمكن أن تتحقق إذا لم تتهيأ لها أسباب العلم، وتعليمها وتثقيفها لا تنزلان من السماء وإنما هي من عناية الرجل بها[١٥].

وتعليمها ليس المقصود منه تزويدها بالمعلومات والثقافة العامة فحسب بل أن يكون العلم أيضاً وسيلة لتقويم الاخلاق وتطهير النفس. ويرد صاحب الجوائب على الذين يقفون بوجه تعليمها بداعي أن العلم يبصرها بأساليب تبعدها عن التحلي بالفضائل فيقول: «إن العلم والتعليم هما نور العقل، وهما بمنزلة المصباح الذي يحمله الساري ليتهدي به، فإذا لم تأتمن المرأة على حمل النور، لم يكن لك أن تأتمنها على حمل أي نور كان، مخافة أن تحرق البيت». فالعلم وإن لم يكن مقصوداً بذاته لتوسيع

مدارك المرء إلا أنه أداة أيضاً ووسيلة لتهذيب النفس وجعلها اقدر على التمييز بين الخير والشر .

وتعليم المرأة ليس له منهج محدد عند الشدياق ولكن في مجمل آرائه المنشورة في مقالاته ما يدل على أنه يفتح لها الباب واسعاً دون تحديد للمواد والمراحل .

أما المعلم بطرس البستاني كما يقول نعيم عطية في بحثه عن « معالم الفكر التربوي في البلاد العربية في المئة سنة الأخيرة » فقد حدد المنهج في التعليم النسائي بمواد معينة ، ولم يطلقه لأنه « كان يعد المرأة أضعف عقلاً من الرجل وأقل استعداداً في قدرتها على التذكر والاستيعاب »(١٦) .

ويقول عطية في هذا الشأن أيضاً عن فرنسيس مراش أنه « جعل المرأة فرعاً من الرجل أي أنه وضعها في مرتبة ادنى فلم يدع الى تعليمها إلا بحذر » .

الولد وتربيته

من أهم مقاصد تعليم المرأة إنشاء أمّ متعلمة فالأم عند الشدياق هي المسؤولة الأولى في تربية أولادها فإذا كانت متعلمة أنشأتهم تنشئة قويمة أما إذا كانت جاهلة فلا تلقن أولادها إلا ما يجول في خاطرها فتنشيء في رؤوسهم الأوهام والوساوس فيربى الولد مخلوع القلب وتربى البنت على قصص النساء والزواج والطلاق « فما ظنك بصبي يربى بلا قلب ، وبنت تنبت بلا عقل؟ » .

والولد عنده كما هو عند الامام الغزالي أمانة عند والديه وهما مسخران للعناية به وتربيته وتدريبه وعلى الأخص في أمر طعامه . والشدياق يرفض المرضع لأن ارضاع الأم لأبنها تتمة لرسالة الأم المعنوية والمادية ولأن « الأمهات اللائي يرضعن أولادهن يكنّ بالضرورة أحن فؤاداً عليهم من اللائي يستأجرن لهم المرضع » .

وأخطر ما يتعرض له الأولاد كما يقول في الجوائب هو تخويفهم والقاء الرعب في قلوبهم من أشياء وهمية أو مادية لتأديبهم أو لمجرد السيطرة عليهم أو تلهيتهم . وابقاء الولد من غير تربية اصلاً افضل من تربيته على هذا الشكل لأنه إذا بقي على فطرته جاء فجا ، ولكنه على الأقل يكون مقداماً ذا نخوة وهمة « فيكون العدم هنا خيراً من الوجود » .

ويرى الشدياق للولد ، أن يخلّى مع الطبيعة على سجيته فأحاسيسه هي التي تدله

على الرشد فيكتشف البرد والحر والأثقال والأبعاد « وهو متى جاع طلب الأكل ومتى نعس نام ومتى ظميء شرب ومتى تعب استراح ، فهو في غنى عنا من أصل الفطرة»(١٧) . ولذلك يجب ألا يحمل من التدريب والتأهيل والتوعية مالا يطيقه . وهو مجهول الهوية ، واختلفت الآراء فيه ، كما يقول ، فمنهم من زعم أنه « مفطور على الشر ، فإن ما يشاهد في طباعه وهو رضيع من الحرص والشره والحيلة والحسد والمكر أكثر مما يشاهد فيه من الأحوال المحمودة . ومنهم من زعم انه مفطور على الخير إلا أن الأحوال العارضة تلجئه إلى استعمال تلك الخلة » . فالتربية هي التي تعطيه هويته ، فإذا أحسنت تربيته حسنت اخلاقه وإن اردأتها ردأت . من هنا تنشأ خطورة دور الأم «فالأم هي المربية الطبيعية للولد » كما يقول عبدالله المشنوق(١٨) .

كما أن توجيهه توجيهاً اخلاقياً هو من مهمات المدرسة أيضاً . فعلى المعلم أن يكون مرشداً بالاضافة الى مهمة التعليم . والتوجيه يجب أن يكون على صغر أي حين يكون الأولاد وبهم صلاحية واستعداد لذلك وإلا فإنهم متى ربوا على الفساد ومرنوا على الطلاح فقراءة الكتب لا تجديهم نفعاً . والأم كما شاهدها في الغرب « تربي ابنها على الفضائل وهي ترشحه للعلم والأدب قبل أن ترسله إلى المدرسة ، وهي تؤسسه في المبادىء على صغر فلا يبلغ الخامسة إلا ويكون قادراً على القراءة ، ولذلك ترى الولد منهم إذا ذهب إلى المدرسة يمشي اليها وهو مسرور مستبشر وله نشاط وخفة ، أما الولد في بلادنا فيذهب سنه في الصبا باطلاً فمتى أخذ في التعلم وجده بعيد المأخذ صعب المرتقى ، فضلاً عما يكون قد القي في ذهنه من الخرافات التي تتركز فيه ، وتتأصل فلم يعد ممكناً بعد قلعها . » .

ولم يقسم الشدياق ، أو لم يوزع تعليم الاولاد بالمدارس ، بوجه عام ، إلى مراحل وأطوار . كذلك لم يعتن بتوزيع مواد التدريس ومستواها على سنوات المدرسة . ولكنه ذكر بوجه الأجمال المواد التي يرى تدريسها وهي مزيج من مواد المدارس الابتدائية الى الصفوف المتوسطة فبدأ بالخط ، ولا يعني الخط هنا تجويد الكتابة فقط ، بل ما ينشأ عنه والإكباب عليه ، من حفظ للمفردات اللغوية والجمل الصحيحة ، والقراءة ، ويتبعها القواعد على أن تترك السفسطة في الأمور اللغوية والتخريجات النحوية ثم الجغرافيا والتاريخ والعلوم الطبيعية والحساب ، على ضروبه ، أي الرياضيات بوجه الأجمال واللغات الاجنبية ، ثم الأدب ، وبعد ذلك العلوم العالية أو العلوم المهنية .

ومن هنا نرى الفرق بين كلام الشدياق عن التعليم وبين كلام الطهطاوي وغيره

من رجال النهضة . الشدياق نظر إلى التعليم نظرة شمول بينما كان أترابه في نظرتهم اكثر تفصيلاً وتركيزاً ذلك أن هؤلاء كانوا على اتصال مستمر بالمؤسسات التي يعالجون قضاياها ، كما كانوا على اطلاع مستمر بين متطلبات الواقع وإمكانات الدولة ومناهجها ونياتها ، بل من هؤلاء من كان مسؤولاً ومكلفاً بالتخطيط كالطهطاوي نفسه . بينما كان الشدياق على غير ذلك . فهو الآن في دار الخلافة ، وقد بعدت الشقة بينه وبين وطنه ولذلك لم يعن ببرمجة التعليم إذ لم يكن لآرائه أن تؤثر التأثير القوي المباشر كما كان للطهطاوي ، فترك التحديد بالكم والكيف ، إلا لماما ، فاتصفت آراؤه بالشمول ، كما قلنا ، وهي متناثرة في كتاباته المتعددة في الساق وكشف المخبأ والجوائب . ولكنه ركز من جهة اخرى على مشكلة التعليم الديني فقال إنه يجب النظر فيه على ضوء مقدرة الولد على الاستيعاب والفهم للكلام المجرد وليس على أسس اخرى . فالأمر يتعلق بفائدة الولد بالتخلق بالمناقب والفضائل ، وهو لا يتأتى له أن يستقي ذلك من معين الدين قبل عمر معين . ولذلك رأى ألا تدرس الشؤون الدينية قبل سن الثانية عشرة كما يجب ألا يحفظ الأولاد الآيات عن ظهر غيب دون أن يفقهوا معناها وهم لا يتأتى لهم ذلك إلا بعد سن الرابعة عشرة(١٩) . وهو بخلاف الطهطاوي الذي يرى تدريس الآيات منذ ابتداء الولد في المدرسة بينما يعين جان جاك روسو سن الخامسة عشرة إلى العشرين كحد أدنى لتدريس شؤون الدين وإلا نشأ الولد كعبدة الأوثان . فتعليم أمور الدين عنده وعند الشدياق متعلق بالقدرة على إدراك المعاني . أما الأخلاق فيجب أن تعطى للولد بالقدوة والتوجيه الموافقين لعمره .

II

آراؤه السياسية

حرية الفرد والجماعات ـ الدعوة إلى الشورى ـ الشورى والديمقراطية ـ الشورى ونواب الأمة ـ سلطة المجلس ـ الموقف من السلطان ـ بين العثمانية والقومية العربية .

يحرص الشدياق على الترديد أنه لا يحب التكلم في السياسة ، وأنه ليس من مزاجه الكتابة في موضوعاتها ، وأنه بعيد عن أن يبدي أي رأي فيها أو أن يتصدى لأي من أربابها ورجالها . ردد هذا القول في الجوائب وقبلها في كتابي الساق وكشف المخبأ . وهذا كلام بعيد عن الصحة ولعل ما كتبه في الشؤون السياسية وشجونها ورجالها كان أكثر مما كتبه في أي موضوع آخر ، ويقول مارون عبود في هذا الصدد « إنه ابن بيت لبناني عريق عالج ذووه السياسة في الدنيا والدين فعركتهم عراك الرحى بثقلها ، مات جده وأبوه وأخوه شهداء حرية الفكر والميل ، وهو أحد مشردي هذا البيت » فتبرؤه من السياسة موقف عارض في ما نعتقد والأمر يعود على الأرجح إلى هذه اللفظة بالذات واختلاط المعاني فيها . فإذا تتبع المرء هذه الكلمة في مؤدّاها منذ أيام الشدياق وربما إلى يومنا هذا لوجد أنها تعني السياسة الحزبية من جهة ، وسياسة الحكم أو السياسة المدنية من جهة أخرى .

كان المعنى الأول يختلط بالثاني في كتاب الساق على الساق . بينما كان في الجوائب وكذلك في كشف المخبأ يعني السياسة المدنية . ولكن هذا المعنى كان يأتي أحياناً غير

خال من شوائب الإبهام والإختلاط . وفي ظل هذا المعنى الأخير يجب أن يستقرىء المرء آراء الشدياق الحقيقية والنهائية في السياسة والحكم ، ولكن في غاية الدقة والحذر نظراً للتيارات المتقلبة التي كان يخضع لها ، فقد كان عاطفي المزاج سريع الإنفعال ، فكان هذا المزاج وهذا الإنفعال يؤثران في شطحات القلم ، فكان يكتب اليوم في اتجاه وفي يوم آخر يكتب في اتجاه آخر ، وعلى ذلك فالأفضل من أجل إجراء هذا التحقيق ، أن نقسم كتاباته السياسية إلى قسمين فيسهل عندئذٍ استلال أفكاره وآرائه السياسية التي تمثل وجهة نظره الصادقة وفرزها عن الأفكار والآراء الظرفية التي صدرت سواء عن هوى أو عن ضغن أو عن مصلحة موقتة :

أولاً : المقالات والكتابات التي تبرز آراءه الحقيقية . والملاحظ أن هذه الكتابات تتعلق ، عادة ، بنظم الحكم في الدول الغربية ، كفرنسا وإنكلترا وأسبانيا وروسيا ، وكذلك الدولة العثمانية ، وأحياناً تونس . وهذه الكتابات منشورة في معظمها في الجوائب ، وبعضها في كشف المخبا ، والقليل منها ورد في الساق على الساق .

ثانياً : الكتابات التي يختلط فيها الصدق ، أحياناً ؛ بالإضطرار والغرض والهوى وهي تتعلق بوجه الإجمال بشؤون الدولة العثمانية ومصر ، وأحياناً قليلة تونس ، وهي منشورة أيضاً في الجوائب ، ويدخل فيها بعض ما ورد في الساق على الساق .

وآراءه الحقيقية تنبني ، عادة ، على أحداث ووقائع وتنبثق من ظروف معينة تكون مادتها الحقائق الملموسة ، فليست هي نظريات تأتي ابتداء من محض الضمير ، كالعدالة مثلاً ، تنبني على النظريات والإفتراضات التعليلية . وهو إن بدأ في معالجته للسياسة تحليلياً يتسلسل في كلامه من الإفتراضات والمنطق ، فهو بعيد كل البعد عن وضع القواعد والنظريات السياسية ، فليس هو من مشرعي النظم والكيانات ، بل هو يشرح الواقع ويقارن المبادىء والنظم وأحياناً يكون ذلك لمصلحة الدولة العثمانية عندما يكون الأمر متعلقاً بها أو بالسلطان . فكان يكتب في النظم والحكم مبتدئاً بالتنظيمات البشرية البدائية وحكوماتها كالقبائل السودانية مثلاً ، متنقلاً إلى أكثرها تطوراً في إنكلترا وفرنسا وأميركا . ويتكلم عن العلاقات التي تقوم بين الدولة والفرد ، وكذلك عن السلطة السياسية بالنسبة إلى الحرية . ولا نرى رجلاً من رجالات النهضة كان مؤهلاً لأن ينظر في هذه الموضوعات كما كان عليه الشدياق ، فهو يمتلك ذهناً قادراً وعقلاً نيراً يرى الوقائع على صورتها الحقيقية لا يمر منها شيء ، حتى الظلال ، إلا ويلتقطه فتكون رؤيته شاملة كل شيء ، حتى التفاصيل . يضاف إلى هذه المقدرة ثقافة واسعة غزيرة ،

متعددة المصادر عربية وغربية . ثم هو شاهد اشكالا متعـددة من نظم الحكم في الشـرق وفي الغرب ندر أن شاهد مثلها أنداده من رجال النهضة .

كـان يبحث في الشورى وأصـول الحكم والنـظريـات المختلفـة في سلطة الـدولـة وسلطة الشعب ، وكذلك الناحية الوظائفية للدولة ذاكـراً أشكال الـدولة المتعـددة مجريـاً المقارنة بينها ، ليصل إلى الأفضل . وقد يظهر أثـر فلاسفـة القرن الثـامن عشر في فكـره السياسي المتحرر إلا أن نظرته كانت تصدر في معظمها ، كما قلنا عن الواقع والمقـارنة ، وهي الوسيلة الفضلى لديه وهي أقرب إلى الحقيقة وأبعـد عن المثاليـة الفلسفية . وسـواء أكانت نظرته مكتسبة أم ذاتية فقد كان محورها الخير العام .

حرية الفرد والجماعات

وقـد رأى أنيس المقدسي أن الـدعـوة إلى حقـوق الفـرد والجمـاعـات ظهـرت في السلطنة العثمانية في بدء الحكم الحميدي ١٨٧٦ ثم خبت بعد تعـطيل الـدستور لتعـود بعد انقلاب سنة ١٩٠٨ . وأنه « منـذ ذلك الحـين أخذ الأدب في الشـرق العربي يـرفع صوته داعياً للمبادىء الديمقراطية ومتغنياً بالحرية الفردية والقومية » . ليت المقدسي قدم تاريخ هذه الدعوة بضع سنين إذن لربحت الحقيقة وأنصف الشدياق . فكلام الشـدياق في الحرية قديم لم يضطرب ولم يخالطه التردد إلا بعد الحرب الفرنسية الروسيـة ١٨٧٠ ، وثورة الكومـون وانتشار الفـوضى في باريس عـلى يد الحـرس الوطني فقـال يومـذاك أن « جمهور الرعية لا يكونون إلا من الرعاع فهم لا يستأهلون الحرية »[٢٠] . ولـذلك مـال ميلاً شديداً إلى القول بوجوب قيام سلطة قوية ذات « حكومة قاهـرة » فسلطة على هـذا النحو يكون قرينها الإستقرار .

وكانت دعوته إلى تطوير الأوضاع الإجتماعية تـرتكز أسـاساً عـلى آرائه السيـاسية فالأوضاع السياسية كما يقول أرباب علم السياسة لا يمكن أن تكون معزولة عن أصـولها الإجتماعية ولا يمكن بالتالي الفصل بين الموضوعين ولا يمكن للنظرة السيـاسية أن تكـون سليمة إلا إذا وصلت إلى الجذور الإجتماعية . فـالأصول هـذه والجذور هي التي تفعـل فعلاً مباشراً في تكوين أفكار الناس السياسية ومثلهم العليا. وعلى هـذا الأساس كـانت وظـائف الدولـة مرتبـطة إرتباطـاً وثيقاً بـالأوضـاع الإجتمـاعيـة للشعب . وفي طليعتهـا متطلبات الإنسان الأولية في الأمن على الذات وعلى ما يملك[٢١] ولـذلك كـانت وظائف الدولة في السلطنة العثمانيـة برأي الشـدياق ، تفـوق وظائف أيـة دولة أوروبيـة راقية ،

ذلك أن التكافؤ كان قائماً، إلى حد ما، بين الدول الأوروبية الراقية ومجتمعاتها في تمثيل الحضارة الحديثة وهضمها ، وكان النضج السياسي والإحساس بالحرية لدى الفرد الأوروبي قد بدل الحدود التي تستطيع بها الدولة أن تتدخل للتأثير على مفاهيم الناس بالنسبة إلى الثقافة والمعتقد والسلوك والأخلاق . وأصبحت القاعدة أن كل إنسان حر في أن يسلك السلوك الخلقي الذي يريده ما دام سلوكه لا يؤدي إلى تصرفات تتعارض مع حرية وسلوك الآخرين[٢٢] .

لم يكن الأمر كذلك في الدولة العثمانية ، فقد كان التفاوت بين الدولة وبين المجتمع العثماني واسعاً . لذلك كانت مهماتها أكثر تعقيداً وأكثر تعدداً وشمولاً وأكثر أعباء مما هي عليه في الدول المتطورة . وحدود وظائفها معقدة وهي تتقدم على حدود رعيتها . فعلى الرعية هنا إطاعة الدولة ، لأن حقوق الفرد الطبيعية ، والحالة هذه ، مندمجة بمصلحة الأمة[٢٣] ولذلك وجب على الدولة أن تتدخل بواسطة قوانينها لتقويم الإعوجاج عند بعض الناس لتسديد سلوكهم . وهذا الإتجاه قد لا تقره النظرة العامة المتعلقة بحرية الفرد وبحدود وظائف الدولة ، ذلك أن السلوك هو تعبير عن شخصية الإنسان وأخلاقه ونهجه .

ولكن أمر السلوك هنا ، وفي نطاق الدولة العثمانية مختلف فهو يرى أنه مربوط بمستوى معين من المفاهيم ، فعلى الدولة أن تعيّن هذه المفاهيم وتصوغ لها حدوداً في قوانينها لتطال كل من يخالف السلوك العام ومقاييس الأخلاق المتعارف عليها ، وإذا كان من مقتضيات الحرية و « الحقوق الإنسانية أن الدولة لا تتعرض للفرد في أمور بيته من نحو زواجه وتربية أطفاله وأكله وشربه » فإنه إن تخطى هذه الحدود فسكر مثلاً أو عربد أو قام بأعمال مماثلة فيكون قد تجاوز حدود الحرية وعرض نفسه ليد القانون والعقاب وكذلك « القمار والإسراف في الزواج » مثلاً وإن كانت هي من متعلقات الفرد ولكنها قد تؤدي ، هي وأمثالها ، إلى الخلل في المجتمع ولذلك فقد « صارت بمنزلة الحقوق العمومية ، فيكون للدولة والحالة هذه أن تتعرض له فيها »[٢٤] أي أن على الدولة ، أن توسع نطاق قوانينها وتقدم حدود وظيفتها الإجتماعية وتتدخل في أهواء الناس وتضبط أمر أخلاقهم ، وربما طبائعهم ، وتحدد لهم حدود حريتهم وتقوّم سلوكهم تقويماً إلزامياً . وعلى هذا ، فالحرية الشخصية أو الإجتماعية ، في نطاق السلطنة العثمانية تأتي في ظل الدولة ، في رأي الشدياق وهي غير الحرية السياسية على كل حال .

وهو على النقيض من هذا في موقفه من علاقة الدولة بالدين والمعتقد فعلى الدولة

أن تبتعـد عن هذا المـوضوع ابتعـاداً كلياً ، فهي لجميـع المواطنـين وليس لها أن تفـرض معتقداتها على الفئات التي لا تؤمن بها. وليس لها أن تتدخل في معتقدات أية فئة أو أي فـرد مٕن رعيتها فـإنها إن حاولت فـإن نتيجة سيـاستها الإكـراهية تكـون تعزيـزاً للنفـاق وفقـدان ولاء الرعيـة ، فضلاً عن « أن الإضـطهاد والإجبـار على شيء يـزيد المضـطهد وشيعته كلفا بما اضطهد عليه ».

ثم أن المعتقد أمر وجداني ، فليس من وظيفة الدولة ، بل لا يجوز لهـا أن تتجاوز حدود النظر في سلوك الفرد الظاهري إلى الكشف عن قناعاته الخاصة ووجـدانه البـاطني فـإذا جاز لهـا النظر في سلوكـه الظاهـري هذا لمقتضيـات النظام وتـوفير الأمن والحمـاية للمجتمع فلا يجوز لها أن تتعرض له بسبب ما ينطوي عليه صدره .

ولكن إذا كان الإنسان حراً في أن يتدين بـدين ما أو لا يتـدين بأي دين أصـلاً ، فليست الدولة حرة في أن تكون كـذلك لأن الـدين هو مصـدر العدل والإنصـاف أو هو موجب لهما على الأقل . ولا يشترط في الأمر دين معين فعلى الدولة ان تدين بدين ما وإن كان في الواقع غير حق .

ويقترب الشدياق من روسو في هذا القول ولكنهما لا يلتقيان . فـالشديـاق يفرض الدين على الدولة أما روسو فيفـرضه عـلى الرعيـة لأنه « ممـا يهم الدولـة أن يكون لكـل مواطن دين ، غير أن عقائد الدين لا تهم الدولة إلا بالمقدار الذي تناط معه هذه العقائد بالأخلاق والواجبات » فالشدياق يفرض الدين على الدولة لـردعها عن الـظلم ولإشاعـة العدل والإنصاف لمصلحة الرعيـة بينما يفـرضه روسـو على الـرعية لتكـون أسلس انقياداً وأكثر طاعة للدولة .

وإذا كان أساس « نظرية الدولة » سلطتها ، وأنها مطلقة السيادة في وضع القوانين إلا أن العدالة هي رأس كل نظام وهي الغرض النهائي لوظيفة الـدولة وهي التي تنـظم لهـذه السلطة حدودهـا . ولكن متى تكون هـذه السلطة حقاً ومتى تخـرج عن أغراضهـا فتصبح تسلطاً ؟ يكاد هذا التساؤ ل يكون الباعث الأول لكتابات الشـدياق في السيـاسة ونـظم الحكم مما يشـير إلى هـاجس معـين كـان يـدفعـه إلى النـظر في أمـر هـذه السلطة وماهيتها . هنا تعود بنا الأسباب مرة أخرى ، إلى قضية شقيقه أسعد لنرى هذا الهاجس أللاإرادي ، عن ماهية السلطة التي قبضت عليه وأعدمته الحياة .

في النظام التقليدي لجبـل لبنان أن السلطة تتـركز في يـد الأمير الحـاكم نيابـة عن الدولة . ومن ضرورات سلطة الدولة ألا تدع أحداً يكوّن لذاته وجوداً يقاسمها وجودها

أو سلطتها وإلا ضاعت معالم الدولة . وسلطتها ليست موحدة بل هي واحدة لا تعتورها التجزئة إذ « لا يمكن أن يكون في الدولة أكثر من سيادة واحدة ، لأن تقسيم السيادة معناه القضاء عليها » كما يقول أرباب علم السياسة .

إذن كيف يجوز لفئة ما ، أو لجماعة من الأفراد ، ليسوا الدولة ، وليست لهم سيادتها ولا سلطتها أن يمارسوا وظيفة الدولة فيصادروا حرية فرد ما بل وأن يعدموه الحياة ؟ كيف حدث هذا وليس لهذه الفئة « من سلطان ديني أو مدني على أي كان كيف يجوز ذلك وكلنا في الحقوق سواء ؟ » .

في هذا الكلام ، فضلاً عن أنه تحريض للدولة على الفئة المعتدية ، رأي في الحكم والسلطة . فإذا كان للدولة أن تعتقل متهماً ما عندما يرتكب جرماً يخالف قوانينها فالدولة هي التي تحاكمه وليس لفئة ما دينية أو غيرها ، وكائنة من كانت ، أن تشارك الدولة في ذلك . إن هذا الخلل في نظر الشدياق لم يكن شيئاً وهمياً كما نعلم ، إذ أوشك أن يذهب به « إلى قنوبين المؤدية إلى سجِّين » بعد أن ذهب بشقيقه أسعد . لذلك نرى هذا الإنفراج النفساني الذي أحس به عندما وطأ أرض مصر ، وبعد أن تفلت ، أو انملص كما يقول ، من أيدي تلك الفئة . ويظهر هذا الإنفراج في الوصف السعيد والصورة البهيجة التي صور بها مصر في كتاب الساق وفي كتاب الكنز المختار .

تأتي في هذا الوصف معان شفافة في حكم محمد علي فهذا الوالي وإن يكن يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، وإرادته هي القانون ، إلا أنه يحكم البلاد حكماً أبوياً إن صح التعبير وهو يخضع ، نظرياً على الأقل ، لأحكام الشريعة وما ينجم عنها من توفير العدالة والمساواة . وقد « جعل البلاد على حد سوي في الأحكام الشرعية والسياسية وسوى بين الغني والفقير والوضيع والخطير ، وكان ذلك من حسن تدبيره وسداد تفكيره »[٢٥] فأمن الفرد على حقوقه الشخصية . لذلك كانت سلطته فاضلة فحصل من الرعية على رضاها وقبولها وبالتالي على ولائها .

لا يعمم الشدياق هذا المديح على كل حكم فردي ، بل هو خص به محمد علي دون غيره لأسباب نفسية وظرفية فهو في قرارة نفسه ضد هذا الطراز من النظم لأن الحكم الفردي إذا كان مقبولاً لظرف ما فقد ينقلب ، بل هو غالباً ما ينقلب إلى حكم استبدادي . ولذلك دعا إلى الشورى أو المشورة . لأن هذا النظام تشيع في ظله العدالة والحرية والمساواة .

وفي ظل الشورى تأمن الرعية على نفسها من الظلم وتنتشر أسباب التمدن والحرية والعدالة . « والبلد الذي تظل حكومته استبدادية تبقي رعيتها على الحالة الهمجية إلى ما شاء الله »[٢٦] .

« إن حالة الإستبداد كانت معروفة في ممالك أوروبا حين كانت متسكعة في ظلمة الجهل ولم يكن بها مجالس شورى ، فكان كل من اعترض على الدولة شيئاً ألقي في السجن ورمي بالخيانة » وبعد إنشاء الشورى فيها « صار من يتهم بخيانة ونحوها لا يجري عليه جزاء إلا بعد المحاكمة لدى الحاكم الشرعي »[٢٧] .

لا بد من القول هنا أن الشدياق لم يكن مبتدعاً أو منفرداً في هذه الدعوة فالجو العام في السلطنة كان يوحي بنشوء طبقة من المتنورين التغييريين . وكانت االضرورات السياسية ملحة إلحاحاً شديداً لإجراء التغيير في مؤسسات الدولة وأجهزتها . فتطور الأوضاع الداخلية وتشابك العلاقات والمصالح الخارجية لم تعد تسمح ببقاء المؤسسات السياسية على حالها . فكان على الدولة أن تتجاوب مع التطور وتستجيب للضرورات في الداخل والخارج وتقتبس من النظم الأوروبية ما يتلاءم وأوضاعها ومستوى رعيتها الثقافي والإقتصادي فإن بقاء هذه المؤسسات على حالة الجمود سيزيد من تخلف الدولة وتردي نظامها وتعزيز الإستبداد ، كما أنه يؤدي إلى تضعضع السلطنة وتفكك الأمبراطورية .

لقد كان إعلان الدستور وحكم الشورى ، نهاية المطاف لمسيرة طويلة ، حمل أعباءها جماعة من رجال الإصلاح المتنورين ، فما أن انتصف القرن التاسع عشر ، حتى كانت الأفكار قد نضجت عند عدد كبير من الرجال ممن ولي المناصب العالية في الدولة العثمانية . وكان ذلك بفعل الإحتكاك بالحضارة الأوروبية وقد رأى هؤلاء أن الدولة ملزمة بفتح الأبواب للمدنية الحديثة وإدخال التغيير على الأنظمة السياسية وإصلاحها فسلامة الإمبراطورية العثمانية أصبحت مرتبطة إرتباطاً وثيقاً بقدرتها على الإصلاح[٢٨] . ولكن دعاة الإصلاح هؤلاء مع قولهم بضرورة الإقتباس كانوا متمسكين بالتراث الإسلامي تمسكاً شديداً ، فكان من الطبيعي أن تطرح قضية هذه المنجزات ومطابقتها لأحكام الشريعة الإسلامية ومبادئها . فكانوا يعودون إلى أحكام هذه الشريعة بالشرح والمقارنة . فما كان لهذا الإكباب عليها والتعمق فيها إلا ليزيدهم تشبثاً بدعوتهم . فالشريعة تتضمن في جوهرها ونصوصها القواعد الأساسية لدعوتهم الإصلاحية في الشورى والعدل والمساواة .

من هؤلاء كان مصطفى رشيد باشا الذي مكث مدة طويلة في باريس كسفير للدولة العلية وقد أصبح مشبعاً بأفكار المجتمع الأوروبي ولكن دون أن تقتلع جذوره الشرقية . وكان يقول بإنشاء نظام تشريعي وإداري حديث في جميع أنحاء الإمبراطورية يكون قائماً على مبدأ المساواة بين جميع المواطنين . منهم أيضاً عالي باشا وفؤاد باشا وهما مع رشيد باشا يعتبرون آباء الإصلاح في السلطنة العثمانية(٢٩) وكان منهم أيضاً ، ولكن ببريق أقل ، سامي باشا ذلك الصحفي والسياسي والمجاهد ، وكان يدعو إلى الإقتباس من الحضارة الحديثة ما يتلاءم وحكم الشريعة في الشورى ، مركزاً على الإصلاح الإجتماعي ونشر العلم ، فهما الأساس في ضمان الحكم الصالح واستتباب الشورى .

وقد اعتنق ، فيما بعد ، هذه المبادىء خير الدين التونسي وشرحها في كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك فقال بوجوب اقتباس الأفكار والمؤسسات الأوروبية وإقناع المحافظين بأن ذلك ليس مخالفاً للشريعة بل هو منسجم مع روحها وأن العدل هو الأساس السليم للدولة . وما ضمانته في الظروف العادية سوى تقييد سلطة الحاكم بالشريعة وبالتالي بالشورى .

ومنهم أيضاً الطهطاوي في مصر ، الرائد الحقيقي للنهضة الإصلاحية الحديثة في العالم العربي ، كان يقول بضرورة تبني المؤسسات الغربية الحديثة في الحكم ، وكان يرى أن تبني هذه المؤسسات هو عودة إلى روح الإسلام الحقيقية في الشورى . وفي نطاق هذه النظرة لم تكن آراء فلاسفة القرن الثامن عشر غريبة على من تربى على تراث الفكر الإسلامي كهذه الجماعة ، كالقول بأن المجتمع الصالح هو الذي يهيمن عليه مبدأ العدل وإن غاية الحكم خير المحكومين(٣٠) .

كان بعضهم يضمن آراءه في كتب عليها مسحة التقرير والبيان ، يمهدون لها بأبحاث ومشاهدات ، لا سيما الطهطاوي في مؤلفاته الكثيرة ، وخير الدين التونسي في مقدمة كتابه . ومن هؤلاء الرجال من وصل إلى موقع السلطة كرشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا الذين ولُّوا الصدارة العظمى عدة مرات وكذلك خير الدين باشا في رئاسة الحكومة التونسية ثم في الصدارة العظمى في اسطنبول . وسامي باشا الذي كان أول وزير للمعارف في الدولة العثمانية .

يختلف الشدياق عن هؤلاء جميعاً بأن كتاباته كانت في مقالات سياسية وأدبية تنشر في جريدة جوابة ولذلك كان مجاله أوسع نطاقاً ، فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تكون آراءه أوسع انتشاراً وأكثر تأثيراً في سواد الناس . وكانت هذه المقالات تلبس لباس الدفاع عن الإصلاحات ، لا سيما « التنظيمات الخيرية »[٣١] وقد دعا في هذه الكتابات إلى الشورى لأن الشورى هي الطريق الذي يفضي إلى العدالة والحرية ، ثم أنها أفضل الحلول بالنسبة للدولة العثمانية لأنها توفق بين الضرورات المستحدثة من جهة وأوضاع الدولة السياسية والدينية والطبيعية من جهة أخرى . ثم إن ما يؤول إلى خير الرعية هو واجب على وجه الإلزام . لقد تبسط في شرح هذا الكلام عندما تصدى في الجوائب للدفاع عن التنظيمات المذكورة ومما قاله أن مشاركة أهل الرأي في سياسة الحكم مفروضة شرعاً « قال عز من قائل : وشاورهم في الأمر . فكيف بغيره ؟ وإن الله تعالى أمره بمشاورة أصحابه صلّى الله عليه وسلم ليستن به المسلمون وإن كان في غنية عن المشورة» ولا مجال للجدل في أمر الأخذ بالسنة، ثم يقول «إن حكم الشورى ثابت بالقواطع الشرعية بل أن الشريعة تمنع استقلال أرباب السلطة بالحكم وتمنعهم من أن يتصرفوا في مصالح الأمة بالسياسة الشرعية ويستقلوا استقلالاً تاماً من غير التقيد بمشورة ولا بقانون بل بمجرد إيثارهم ورأيهم ، إن من يسعى لإبطال الشورى هو أكثر ذنباً وإساءة لدى الشريعة من محدث الجزئيات الممنوعة »[٣٢] . فليس هذا النظام كيفياً إذن ، يخضع للإستنساب أو لضرورات مدنية أو اجتماعية أو سياسية بل هو نظام للحكم مفروض بالشريعة ، ومن لا يعمل به يحاسب على مخالفته للشريعة ويعاقب .

فالمرتكز الأساسي لكلام الجوائب هو النظرة الإسلامية الواضحة لأصول الحكم والتي تعني أن الدولة تكون فاضلة إذا اتبعت الشريعة ، والشريعة تفرض الشورى ففي ظل الشورى تأمن الأمة من تعسف الحكام والسلطة هي للقانون .

ومن الواضح هنا أنه يبحث أمر التنظيمات والشورى بحثاً إسلامياً صرفاً ، فالجدل حول التنظيمات كان مطروحاً على هذا الأساس أي مطابقتها أو عدم مطابقتها لأحكام الشريعة . وقد تصدى الشدياق بعنف لتخطئة من ادعى أنها تخالفها فقال « والعجب من أهل البصيرة والمعارف إذا قدحوا في تلك القوانين ، كونهم هم أمناء الأمة ، ويعلمون حال سيرة الأمراء والحكام وما يكون منهم إذا كانوا مستبدين بالأمر ،

فكيف يسوغ لهم القدح فيما هو مشتمل على الأصول الثابتة بالقواطع الشرعية المتضمنة لمصالح الأمة وصيانتها من الجور ؟ » قال هذا الكلام في الدفاع عن التنظيمات ، كما ذكرنا ، وكذلك عن « عهد الأمان » في الأيالة التونسية « فهما شيء واحد في المقصود وإن اختلفا بالإسم »(٣٣) .

قد يفيد أن ننبه هنا إلى أن معنى الشورى عند الشدياق في بادىء الأمر ، أي عندما كان يدافع عن التنظيمات ، كان يعني الشورى التقليدية التي تفرض على الحاكم مشاركة أهل الرأي له في النظر في شؤون الحكم والأمة . وهو نظام يقتصر على جماعة من أهل الحل والعقد والرأي يصطفيهم الحاكم لمعاونته في أمور الدولة .

والغرض الأساسي في هذه الشورى ، هو أن يكون الحكم عادلاً ، يستتب في ظله الأمن والعدل ولا يحدث هذا إلا بالحؤول دون أن يتفرد الحاكم بالرأي وبالسلطة معاً لأن « حكومة مطلقة التصرف وعادلة أمران متضادان »(٣٤) .

أما الشورى التي دعا إليها فيما بعد فهي التي تتسع قاعدتها فتشمل الأمة بأسرها ، فهي قد تشابه في جوهرها النظام الديمقراطي المعروف في الدول الغربية .

والإسلام ، كما يقول سيد قطب ، قد حدد المبدأ ولم يحدد نظاماً خاصاً للشورى فتطبيقها متروك للظروف والمقتضيات ، فهو قد وضع القواعد العامة وترك المجال مفتوحاً أمام تطور الزمان وبروز الحاجات اكتفاء بتقرير المبدأ العام (٣٥) .

الشورى والديمقراطية

وعلى هذا الأساس يقترب تعريف النظام الديمقراطي الغربي من التعريف الاسلامي الشامل للشورى . فالقواعد العامة متشابهة وسلطة « الأمة » في الشورى هي سلطة « الشعب » في الديمقراطية .

ولكن هل تناسب الشورى الحديثة ، أي الديمقراطية ، أوضاع الدولة العثمانية وظروفها ؟ .

يشترط أرباب علم السياسة ودعاة الديمقراطية أجواء معينة ومستويات محددة ليتوفر لها النجاح .

من ذلك أنه لا يمكن أن يسود الشعب ويحكم ما دامت جماهيره أمية تقاسي الجهل وشظف العيش وتتجلى الاستكانة السياسية على الأكثرية فيه . فلا يتهيأ له في هذه الحال أن يتفهم الديمقراطية ، كما أنه « لا يتيسر إدخال النظام الديمقراطي في بلد مترامي الاطراف ألف الحكم الفردي ، ويصبح إدخاله أشد صعوبة إذا كانت مستويات البلد الاقتصادية منخفضة وكانت مواصلاته واهية »[٣٦] وقد كانت أوضاع الدولة العثمانية على هذه الأوصاف من التردي والتخلف .

لذلك لم يكن من الصواب أن تستورد الديمقراطية الغربية كما هي وتدرج في الهيكل العثماني . فهي في أوروبا نفسها لم تزل ، عند البعض تحت البحث . وهي إن لائمت الشعب البريطاني فلأنها كانت تأتي وفق متطلباته وأوضاعه الاجتماعية الخاصة به ووفق أحواله الاقتصادية وتطورها . وقد كان النظام الديمقراطي فيها يسير بخطى ثابتة يتطور مع الزمن ومقتضى الأحوال . بينما هي دخلت إلى فرنسا بثورة لم تبق ولم تذر .

ولا تصلح أية من هاتين الديمقراطيتين للنقل إلى الكيان العثماني وليس من الصواب القول إن ما يلائم دولة ما يلائم دولة أخرى ، فلكل دولة حضارتها التي تميزها عن غيرها ، والأفضل للدولة العثمانية أن تقتبس من النظم الأوروبية ما يلائم ظروفها الخاصة وطبيعة مواطنيها وبصورة تدريجية لا ثورية ولا استنساخية ، آخذة بعين الاعتبار الأوضاع الاجتماعية قبل كل شيء .

ضمن هذه القواعد دعا الشدياق بحرارة إلى الشورى الحديثة بعد أن إنتهت مرحلة الدفاع عن التنظيمات وعن الشورى التقليدية .

الشورى ونواب الأمة

في النظم الأوروبية تتمثل الأمة بالمجالس النيابية . ويمارس المجلس عادة صلاحيات السيادة في الدولة وفيه تتركز سلطة الدولة لا في غيره من المؤسسات والناخبون هم الذين يختارون ممثليهم في هذه المجالس .

لا يختلف شكل الشورى الحديثة التي أخذ يدعو لها عن هذا الطراز الأوروبي وجوهره . وقد حدد مفهومه لها بأن « المراد بمجالس الشورى المجالس التي يحضر فيها

نواب الأمة بانتخاب شرعي لا المجالس التي يحضر فيها وزراء صاحب الملك ووكلاؤه فهذا النظام لا يغني عن مجلس النواب لأن أعضاء المجلس الأول كلهم يتسابقون إلى أرضاء صاحب الملك لكيلا يحرموا من مناصبهم»[٣٧] .

من هذا التعريف يتبين لنا بوضوح ماذا تعني « الشورى » الآن بالنسبة إلى الشدياق ، هي تعني الشكل المطابق للديمقراطية الغربية . فهناك « مجالس منتخبة ونواب للامة يمثلون سلطتها » . وهناك أيضاً « الانتخاب » أي الاجراء العملي الأولي الذي يثبت فيه الشعب سيادته وهنا تكتسب كلمة شورى ، أو مشورة[٣٨] معناها النهائي فإذا ما وقع المرء في كلام الشدياق على إحدى هاتين اللفظتين فإنما يعني ذلك ، الحكم النيابي أو النظام البرلماني .

ولكن كيف يجري انتخاب النواب ؟ للشدياق تحفظ صارم في شكل الانتخاب الديمقراطي الذي نعرفه اليوم ، فالناس عنده ليسوا سواء فمنهم الفاضل ومنهم المفضول وهناك الدهماء والرعاع وحشو العامة وليس من صالح الأمة أن تفسح المجال لهذا الطراز من الرعية أن ينظروا في سياستها أو يؤثروا فيها « لأن الغباوة غطت على أبصارهم وبصائرهم فلا يدركون مصالحهم وحقوقهم وما يجب لهم وعليهم » . فمن خطل الرأي إشراكهم في شؤونها ثم إن إفساح المجال أمامهم يؤدي بالحكم إلى التخريب « لأن العامة مجبولون على الشر فإذا لم يكن لهم وازع قوي من أهل السياسة والحكم فإنهم يجمحون في أهوائهم » .

قد تكون هذه الأقوال وهذه الآراء مغايرة لجوهر الديمقراطية التي تساوي بين الناس جميعاً في الحقوق السياسية ، فيبدو على هذا الأساس وكأن الشدياق قد وقع في تناقض واضح ، فمن جهة يقول بسلطة الأمة في مجموعها ومن جهة أخرى يفرق الناس إلى فاضل ومفضول .

ولكن الديمقراطية بذاتها ، وكما هي تمارس عملياً ، ألا تقع في مثل هذا التناقض والعجز عن المساواة ؟ إنه من الواضح أن الصلاحيات السياسية في الدولة وفي ظل النظام الديمقراطي مقسمة تقسيماً غير متساو كما يقول علماء السياسة ، والنظام هذا عاجز عن أن يفسح في المجال لكل فرد أن يقوم بدور فعال في الحكم ، كما أنه من الواضح أيضاً إن بعض الناس في ظله يؤثرون في الرأي العام والتوجيه السياسي أكثر من

البعض الآخر . وعلى هذا الأساس وضمن إطار القرن التاسع عشر وظروفه يمكن القبول بتفريق الشدياق للناس بين فاضل ومفضول وصالح وغوغائي . والواقع انه كان يتنازعه في هذا الشأن موقفان ، فمن جهة كانت أحاسيسه الانسانية وما لاقاه في ربيع عمره من العنت والقهر لا تقبل بالطبقية ولا بالفروق بين الناس ولكنه من جهة أخرى كان يتأثر بالاحداث والأفعال التي يرتكبها الكومونار في باريس بإسم الديمقراطية والحرية والمساواة . فكانت أعمالهم تكفره بالديمقراطية وما ينجم عنها . إن الذي يظهر في أول الأمر وكأنه هجوم من الشدياق على سواد الشعب هو بالحقيقة هجوم على أهل الغرائز وليس على أولى العقل والنظر . وأهل الديمقراطية أنفسهم يقولون بأن المساواة التي تستند إليها الديمقراطية يجب ألا تتماشى إلا مع الواقع والمصلحة في الأمور المختلفة ، فالحكم الغوغائي الناشيء عن المساواة المطلقة في الديمقراطية المتطرفة هو خطر على الديمقراطية نفسها و « روح المساواة الحقيقية تبتعد عن روح المساواة المتناهية بعد السماء عن الأرض » كما يقول مونتسكيو .

إذاً ، في ظل هذا التعريف ، من ينتخب نواب الأمة وكيف يجري هذا الانتخاب ؟ قد يكون الحل في ذهن الشدياق على غرار ما أقرته الدولة في ما بعد أي الانتخاب على درجتين وهو أسلوب يجري على الناس نوع من « الغربلة » فيتعذر معه على من كان من الدهماء وحشو العامة ، أن يصل إلى درجة نائب ثانوي ، فيسقط ، عملياً ، في هذا الانتخاب المدرّج ، أثر الغوغاء في انتخاب نواب الأمة وبالتالي ينتفي أثرها في الحياة السياسية .

سلطة المجلس

يتحاشى الشدياق ، في بادىء أمره ، القول بتوسيع صلاحيات مجلس الشورى أو المشورة فهو لا يعطيه قوة تنفيذية تطغى على الحكومة ، كما هو الحال في بعض النظم الأوروبية ، بل يقول « إن أغراض المجلس أن يبحث أعضاؤه في مصالح الوطن وراحة الرعية ولا يتحاشوا من أن يزيفوا أعمال الدولة إذا اعتقدوا أنها على غير الصواب » .

وفي هذا القدر، وإن كان متواضعاً، سيماء للمعارضة ونوع رقابة الشعب على الحكومة . ثم هو يعود فيزيد من قدر المجلس وسلطته ، فيقول إنه يوازي الحكومة في السلطة « فمثل الملك ومجلس شوراه وما يتعلق بهما من الادارة والتدبير مثل ميزان لا بد أن يكون له كفتان تتوازيان » فهنا يتوازى الشعب مع الحكومة .

ولكنـه كان في أغلب الأحيـان ، يجعل يـد المجلس فوق يـد الحكومـة ، فيقول أن السلطة يجب أن تكـون « موكـولـة إلى مجـالس من أهـل الحـزم والعـزم » ، وهم الـذين ينظرون في شؤون الدولة ويقررون مسالك الحكم وسياسة الحكـومة وليس عـلى الحاكم « إلا تنفيذ ما يأمرون به » . فلمجلس الشورى هنا سلطة التقريـر والتشريـع وليس على الحاكم أو الحكومة إلا التنفيذ .

في ظل النظام النيابي هذا تنتفي صفـة الحاكم القـاهر والمحكـوم المقهور ، وتنتفي المشـاحنة ويهـون على الـدولة أن تؤدي وظـائفها وأن تقـوم بتدبـير أمـر الـرعيـة وفـرض الضرائب وجباية الأموال « ومعلوم أن الانسان يهون عليه أن يؤدي شيئاً عـلى يد نـائبه أكـثر من أن يؤديه عـلى يد غـالبه قـاهرة » . والشعب الـذي يمتلك حقوقـه السيـاسيـة وينتخب نـوابه لا يثـور لأنه يشعـر بأنـه هـو الـذي يهيمن عـلى السلطة بـواسـطة ممثليـه و « نواب الأمة في مجلس الشورى هم المكلفون بتـدبير أمـور بلادهم » . والانكليـز مثلاً « لا يميلون إلى الشغب والفتنة وذلك لاعتمادهم على نوابهم في مجلس المشورة وحكومتهم أشبه بالجمهورية »(٣٩) .

والشورى والحرية عند الشدياق تتـلازمان إذ أن طبيعـة الشورى البحث والمنـاقشة وتعدد الاراء « وينتج عن هذا ، على التدرج ، الحرية » .

وقد سلـم الشدياق بقيام الرأي الآخر ، أي المعارضة ، بيد أن هذه المعارضة يجب ألا تكون تمحلاً وسفسطة وتشتيتاً للرأي وليست المجالس النيابية منابر « لأظهار الفصاحة وتنميق الكلام » وليس من الضروري أن تنتظم المعارضة في حزب أو في أحـزاب ، فهو لم ير التلازم بين الحكم الديمقراطي والحياة الحزبية بل على العكس رأى أن الحـزب كيان يقوم على منفعة خاصة بأركـانه ، وليس لأغـراض المصلحة العـامة ، ولـذلك فـالحزبيـة مسيئة إلى جوهر التمثيل الشعبي ، أسـاس الديمقـراطية ، وهي مؤذيـة لهذا التمثيـل في سلامته من الشوائب . وجوهر المعارضة عنده هو تزييف أعمـال الدولـة إذا جرت عـلى غير الصواب ، وتقويم اعوجاجها إذا حدث .

والتحزب قد يتطور إلى حركة إنشقاقية في الحياة السياسية يسيء إلى تماسك الدولة وقد ينقلب إلى حركة إنقسامية في كيانها كما رأى في فرنسا بعد أن تقطع أهلها أحـزاباً إذ « لم يبقوا أمة واحدة » .

ولا يجوز ، عند الشدياق ، إيقاف الحياة الـدستوريـة إلا في حالتـين : الأولى عند

قيام حرب كما حدث عندما إشتبكت الدولة العثمانية في الحرب مع روسيا وعطل مجلس المبعوثان . والحالة الثانية عند قيام فوضى تضر بتماسك الدولة ووحدتها كما حدث لحكومة تيار مع « عصاة باريس » عندئذ يصح أن تقوم « حكومة قاهرة » .

الموقف من السلطان

وقول الشدياق بالشورى أو الحكم النيابي لا يناقض ولاءه للسلطان ولا يعني تقييد سلطته بشيء جديد . فالسلطان بالأساس مقيد بأحكام الشريعة و « الأمة » هي التي تقيم وليها وهي التي تزيله ، فهي مصدر السلطات ، إذن ، ما يصدر عن إجماعها فهو قانون ، طبعاً ، كانت هذه الصورة الواضحة والمستمدة من الشريعة مموهة بألوان عثمانية من التقاليد ومخلفات العهود والأزمان فالسلطان بالنظرة العثمانية ، يعلو إلى مرتبة غير مقيسة بشيء ، يستوحي سلطته من مصدر علوي ، وهو وريث الأمجاد في التاريخ العسكري والفتوح بإسم الدين . وفي يده تتركز السلطة وبإرادته تقوم المؤسسات في الدولة . ويكتسب النظام هيبته من السلطان ، فيصبح الخضوع للدولة وكأنه خضوع لذات السلطان . وهو رمز وحدة الدولة في أقاليمهاالمترامية الأطراف المتباينة الأجناس واللغات .

لقد تأدب الشدياق بهذه النظرة إلى السلطان فخضع لها خضوعاً رضائياً صافياً . ولكنه لم يفرض على نفسه مثل هذا الموقف بالنسبة إلى أي عاهل آخر . فهو مثلاً ، قد وقف موقفاً شديداً من الباي محمد وإلغائه لعهد الأمان وعودته إلى الأستبداد ، وقال إن ذلك مخالف للشريعة وإنه لا يجوز للأمة أن تتنازل عن سلطتها وإن هي تنازلت عنها للحاكم كما فعلت في تونس فإن ذلك يكون دليلاً على تغلب عناصر السوء والغوغاء على سواد الأمة فالأمة تكون عندئذ كلها مؤاخذة ، ينالها الأذى والعقاب ، في الدنيا والآخرة ، إذا هي سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض بنيها[٤٠] ، فالشريعة تفرض على الأمة في هذه الحالة أن تصحح الموقف وما تجمع عليه يصبح نافذاً .

فالسلطان ، بنظر الشدياق شيء ، وأي عاهل آخر شيء آخر . ولا تظهر آراؤه الحقيقية في الملكية المطلقة إلا في مقالاته المتعلقة بالسياسة الخارجية ، ففيها نتبين ، بوضوح ، كراهيته للملكية هذه ، وهو لا يقبل بالقول المأثور من أن الملك يستمد سلطانه من السماء . ويتهكم على الذي يعتقد أنه «سلّط على الأمة بأمر الله تعالى وحكمه لا

برضى أمته » أي « هذا الذي تعبر عنه الافرنج بالحق الالهي » .

والحكم الملكي المطلق شديد الخطر على الدولة ، فإذا كان في ظرف من الزمن مقبولاً فقد يصبح في الغد خاضعاً لأغراض الحاكم وأهوائه فالملكية المطلقة أسوأ ما تبتلي به الأمم . وقوله إن « أبهة الملك الفارغة مصبوغة بدم الفقراء المساكين»(٤١). تصور لنا نقمته على هذا الطراز من الحكم .

أما الملكيات المقيدة بدستور فلا تندرج تحت هذا القول . إذ إن النظام الملكي المقيد والنظام الجمهوري متشابهان والدولة سواء أكانت جمهورية أو ملكية يجب أن تكون « مؤسسة على الحرية » والجمهورية أفضل من الملكية المقيدة لأنها « أقل كلفة وأكثر حرية من غيرها » ولكنه يلاحظ إن أهل التجارة والاقتصاد وأرباب المشاريع الكبرى يفضلون الملكية على الجمهورية لأنها تمثل الاستقرار عندهم أكثر من الجمهورية .

بين العثمانية والقومية العربية

إصطلح الباحثون في نشوء القومية العربية على ردها إلى أحداث مختلفة في أسسها ، متباينة في أغراضها وأهدافها ، كالحركة الوهابية مثلاً ، التي قامت على فكرة الاصلاح الديني وتطورت إلى حروب مع الاتراك للقضاء على نفوذهم في الجزيرة العربية ، فاتخذها البعض على أنها البادرة الأولى في اليقظة العربية . كما إتخذ البعض الآخر حروب محمد علي باشا وانتقاضه على السلطان على أنها حركة استقلالية عربية في جذورها ومقاصدها . بينما رد آخرون هذه اليقظة إلى أسس أدبية وثقافية ، وقد ذكر جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » هذه الأسباب ولكنه ركز على أثر الجمعيات الأدبية(٤٢) . غير إن هناك من يشكك في الدوافع الأساسية لتأليف هذه الجمعيات وكذلك في أثرها(٤٣) .

ومع ما تتصف به هذه الابحاث من صفاء القصد فإن معظمها جانبتها الاصابة في ما نعتقد وحملت من الاستنتاجات ما لم تحمله طبيعة الظروف والوقائع من أغراض وأهداف ، وهي لم تتجه الاتجاه الأصح في البحث لأنها أهملت أو تناست العنصر الأساسي في اليقظة ومادته الأساسية الحقيقية : الانسان العربي .

إن نقطة البداية ، في ما نرى هي هذا الانسان ومحافظته على ذاتيته حيثما وجد وكيفما كان . قد يطرأ على الذهن إن الظروف المختلفة لم تكن لتسمح للانسان العربي

يومذاك أن يكون على وعي كامل ودقيق لهويته ، فالاحساس القومي المميز كان أبعد من أن يتبلور في نفسه في ذلك الزمان ، ومع ذلك ، ومع التسليم بوجود هذا العجز فإن الأسس التي كانت كامنة فيه كانت كافية لتجعله يدرك إدراكاً يقينياً أن له « ذاتية » خاصة تميزه عن « الغير » .

كان يكتشف هذه « الذاتية المميزة » في اللغة قبل كل شيء . ومن هذه اللغة كان ينطلق ليكتشف العناصر الأخرى لهذه الذاتية ، فتتداعى الأسباب ، وتتبدى لعينيه بوضوح عناصر التاريخ والحضارة والارث والأرض . فاللغة هي الأساس وهي التي ترافق وتحدد وتحرك الفرد حتى أغوار تفكيره ومشيئته[٤٤] . فهي الاداة الفعالة لتحقيق الذات ولا يعلو عليها شيء . وهي أكثر ما تبدو في فعاليتها وجلائها في المجتمع الذي يتحكم فيه « الغير » .

وعلى هذا يمكن للباحث أن يرى أن العنصر الأساسي الذي قامت عليه النزعة القومية العربية في الامبراطورية العثمانية كان الانسان العربي ولغته القومية فتأسست ، من ثم ، إنطلاقاً من هذا الواقع ، الهيئات والأحزاب في مطلع هذا القرن كالمنتدى الأدبي وحزب اللامركزية والاصلاح والعهد والاخاء والقحطانية وغيرها .

من هنا نرى فضل الشدياق وسبقه إلى التعبير عن هذه الذات وبلورتها والتركيز عليها إنطلاقاً من اللغة فقام بحملته ضد التتريك ودعا إلى سيادة اللغة العربية في الاقاليم العربية وطالب بتعريب دوائر الدولة في هذه الأقاليم وتعليم العربية إجبارياً في جميع المدارس حتى التركية منها وكذلك إجبار الحكام الاتراك على تعلمها .

ومع ذلك فإن بعض علماء الأدب العربي يضعه بين دعاة العثمانية فيقول المقدسي عنه « إنه كانت له اليد الطولى في الدعوة إلى العثمانية في الأدب العربي وإن الباحث يجد كثيراً من القصائد والمقالات التي تدور على عظمة الدولة ومدح سلاطينها»[٤٥] .

لا ينكر أن الكثيرين من مفكري العرب قالوا بالعثمانية ولكن عندما كانت العثمانية هذه صيغة تضم جميع شعوب الامبراطورية تحت لواء السلطان العثماني . ولكن عندما قامت الطورانية ونزعة التتريك تبدل الأمر عند الكثيرين فظهرت النزعات القومية المتعددة ومنها العربية .

أما دعاة العثمانية الاصفياء كمصطفى كامل وعبد العزيز شاويش والأمير شكيب

أرسلان وغيرهم فقد ظلوا على رأيهم إلى آخر عهد السلطنة وقد يعود الأمر إلى إختلافهم مع الآخرين في إعتبارهم لاوليات العناصر التي تدخل في تكوين الهوية ، فقد كان مرتكزهم الأساسي ، كما يبدو ، الدين ، بينما كان المرتكز الأساسي عند الآخرين اللغة والجنس ، وقد عاصر الشدياق الوحدة الألمانية كما عاصر الوحدة الأيطالية وكتب عنهما كثيراً فقال « إن اللغة والجنس يحددان عنصر الأمة ، ولذلك فالدعوة إلى وحدة الجرمان حتمي فالجرمان جنس واحد ولغة واحدة »(٤٦).

لقد سادت العثمانية في ظرف من الظروف لأنها كانت أقصى ما يمكن الذهاب إليه ، بل ربما كانت الدعوة إلى القومية في دولة الخلافة نوعاً من الشعوبية بسبب طبيعة هذه الدعوة المفككة لتماسك الامبراطورية العثمانية .

لقد كان الجو العام يوحي بالولاء الصادق للعثمانية عندما كانت ترسم الحيز الواسع والدائرة الكبرى لشعوب السلطنة ولكن ما أن برز دعاة الطورانية حتى تبدلت صورة الدولة والأفكار المناقضة فأصبح الشدياق من دعاة القومية وكتب مقاله العنيف في العدد ٨٥١ من الجوائب والصادر في ١٢ نيسان ١٨٧٧ ، وكان هذا المقال من أكثر ما كتبه وضوحاً في التعبير عن الوجدان العربي والوعي القومي فبرزت فيه الروح القومية ، والاحساس بالفواصل المميزة بين الترك والعرب كما عبر أيضاً عن موقف جلي ومكتمل حول ما يمكن تسميته بالمسألة العربية في الدولة العثمانية . ولهذا الموقف ملامح ثلاثة : الأول ، هو أنه كان يؤمن بلغته العربية والثاني أنه كان يؤمن بالجنس العربي . والثالث ، أنه ذهب في الغيرة على قوميته إلى حد رفض العثمانية واعتبار العثمانية نوعاً من التركية المقنّعة وإسماً آخر لنزعه التسلط العنصري واللغوي على القوميات المختلفة التي تتألف منها الامبراطورية. والنقطة الأخيرة بالذات تضعه في صف الغلاة من دعاة القومية العربية(٤٧) . لأن الرأي الراجح حتى بين دعاة حزبي الاصلاح والمركزية وغيرهم ، هو التسليم بوجود فارق بين العثمانية والتركية . وقد كان ملخص الموقف العام المتخذ في هذه القضية ، حتى قبل الحرب العالمية الأولى ، هو القبول بالعثمانية ورفض الطورانية والتتريك . وندر أن ذهب كاتب عربي ، كما نرى في مقال الشدياق ، إلى حد الصراحة الكاملة في المرادفة بين العثمانية والتركية أو الطورانية . صحيح إن هذه الصراحة لم تخن بعض الذين تعرضوا لهذا الموضوع ، ولكن هؤلاء كانوا خارج أراضي الدولة العثمانية وجاؤوا بعد الشدياق بسنوات عديدة . وجزء من قيمة قول الشدياق أنه قيل في اسطنبول نفسها وعلى صفحات الجوائب وفي زعمنا أن المقال هذا

هو وثبة هامة لتأريخ الوعي القومي لذلك آثرنا نقل فقراته الأساسية . قال الشدياق في العدد ٨٥١ من الجوائب :

« قد طال استعظامنا للنطق الشريف الذي تلي بحضرة أعضاء مجلس الاعيان عند إجتماعهم في السراية السلطانية لدى حضرة سيدنا ومولانا السلطان المعظم كما طال تعجبنا من المحاورة التي جرت بين رئيس المجلس وفاسيلاكي بك أحد الأعضاء من منتخبي الاستانة في ثالث عشر هذا الشهر . ووجه الاستعظام أن هذا النطق الجليل اشتمل من الحكم السياسية والأصول الملكية على ما يكاد أن يقوم القانون الأساسي . فمن ذلك قوله « وجميعكم تعلمون أن ترقي شوكة واقتدار الدول والملل إنما هو قائم بواسطة العدالة حتى إن ما انتشر في قوة دولتنا العلية وقدرتها في أوائل ظهورها كان مراعاة العدل في أمر الحكومة ومراعاة حق منفعة كل صنف من صنوف التبعة » فهذا إقرار بأن العدل هو قوام الملك ، ومن مستلزماته وضع الشيء في محله وتولية المناصب لمن هم أهل لها ، كما أنهم عرّفوا الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه ، وأصله من الظلمة . فلا شك أن مولانا لم يقل هذا إلا بعد أن عقد نيته على إقتفاء أثر أجداده الأولين فيما سنوه من العدل ومراعاة حقوق الرعية . فيا لها من بشرى تملأ القلوب سروراً . إلى أن قال : « وغير منكر أن المحافظة منذ ستمائة عام على أَلْسنة صنوف تبعتنا ومِلِّيتهم ومذاهبهم كانت النتيجة الطبيعية لهذه القضية العادلة » فهذا تصريح بأن السلاطين الأولين ، رضي الله عنهم أجمعين ، لم يعارضوا رعاياهم في لغاتهم وجنسيتهم ، بل تركوها لهم واكتفوا منهم بالطاعة والولاء كما هو شأن الدولة المتمدنة . ففي الأول إشارة إلى ما فعلته دولة الروسية في بولاند ، فإنها أبطلت لغة أهلها ظلماً وعدواناً ، بل تعرضت أيضاً لابطال زيهم وهيئتهم ، فعرضت نفسها لتنديد كتّاب الجرائد ، وفي الثاني إشارة إلى أن السلاطين الأولين لم يحاولوا أن يحملوا الرعية على التجرد عن جنسيتهم خلافاً لما يرومه بعض الناس في هذه الأوقات ، إذ يحاولون أن يجردوا الرومي مثلاً عن روميته ، والأرمني عن أرمنيته ، فلا ينسبون إلا إلى لفظة « عثماني » ، وهو غير جار على أصل من أصول السياسة لأن دخول الناس في طاعة الدولة لا توجب عليهم أن ينسبوا إلى جنس الدولة ألا ترى أن الانكليز ، وبعد أن ملكوا سكوتلاند وإيرلاند لم يوجبوا على أهلها أن يقولوا : « نحن إنكليز » ؟ وإنما يقول ، من هو من البلاد الأولى ، أنا سكوتشي ، ومن هو من البلاد الثانية ، أنا إيرش . فليتذكر من يحاول أن تكون جميع رعية الدولة العلية منسوبة إلى لفظة « عثماني » .

إن العرب لا يريدون أن يتجردوا عن عربيتهم وينسبوا إلى شخص بخصوصه ، وأنه لا يصح لمن دخل في طاعة الروسية من الجراكسة والتتر وغيرهم ، أن يقول عن نفسه : أنا روسي أو أنا إسكندري أو بطرسي ، نسبة إلى قيصر الروسية المتولي الآن ، وإلى بطرس الأكبر .

وهنا ملاحظة أخرى وهي أن إقامة لفظة « عثماني » مقام لفظة تركي يوهم أن الترك جيل مهين لا ينبغي النسبة إليه . والحال أن كل من قصد بلادهم من المسلمين وغير المسلمين أثنى عليهم ووصفهم بالكرم والامانة والوفاء والاستقامة والصدق والحلم والوقار وحفظ حقوق الجار .

نعم إن مولانا المعظم قال في النطق الشريف : « مؤملاً أن الأسم العثماني الذي ما برح حتى الآن علم المكنة والاقتدار المشتهر ، يكون من بعد الآن شاملاً لدوام المنافع المختلفة الموجودة بين جميع تبعتنا وحفظها » وقوله قبل ذلك : « فيقضي إذن من الآن فصاعداً أن تكون كافة تبعتنا أولاد وطن واحد ، وأن يعيشوا بأجمعهم تحت جناح حماية قانون واحد ، وينعتون بالنعت المخصوص منذ ما ينيف على ستمائة سنة لأهل بيت سلطنتنا السنية » غير أن المراد بذلك الحث على مجرد الاتحاد والتآلف ، ويؤيده قوله : « كافة تبعتنا أولاد وطن واحد » مع أن أوطانهم مختلفة ، إذ لا يخفى أن للدولة العلية ممالك شتى في كل من أوروبا وآسية وافريقية . ومعلوم أن أوروبا ليست آسيا وآسيا ليست أفريقية . وقوله أيضاً : « ربط هذه الأقوام المختلفة كلياً في الأديان والأجناس » وهو تصريح باختلاف الجنسية . وقد تقدم أنه مدح أسلافه العظام على أنهم لم يتعرضوا لرعاياهم في السنتهم ومليتهم ومذاهبهم وإلا فيكون تناقضاً .

وفي الجملة فإن هذا النطق قد حوى من الأصول السياسية ما يعمر البلاد ويسعد العباد .

أما وجه تعجبنا من المحاورة التي جرت بين رئيس مجلس المبعوثان وفاسيلاكي بك . والأحرى أن نقول وجوه تعجبنا ، فهو أن أعضاء المجلس حرروا جواباً على النطق السلطاني جرياً على عادة مجالس الشورى في أوروبا . فكان من جملة ما كتبوا فيه : « وبناء على العناية التي أظهرها أجدادكم أن سائر الملل كائنة تحت طاعتكم تيسر لتلك الملل بقاء جنسيتهم ودينهم الخ . . » فقال فاسيلاكي بك « الأولى إضافة لفظة : ولغتهم » وهو كلام سديد لا غبار عليه ، لأنه موافق لنص النطق الذي صرح بأن السلاطين حافظوا منذ ستمئة سنة على ألسنة صنوف تبعتهم ومليتهم ومذاهبهم ، كما مر ، وإذا بالرئيس قد إستشاط غيظاً وقال له « لا أفهم مرادك هنا ، إذ لا نعترف لغة

إلا اللغة الرسمية » وهو جواب طائش عن الغرض ، فإن مراد البك المومأ إليه أوضح من أن يفسر ، فلا دخل هنا للغة الرسمية ، ولهذا ليس المراد هنا باللغة الخاصة بكل أمة . فما كان من الرئيس إلا أن قال له : اسكت ، لا يسوغ لك أن تتكلم من دون إذن » فأجابه البك « قد أخذت الاذن » فقال الرئيس « إني آمرك بالسكوت ثانياً ، فلا تحوجني إلى أن آمرك ثالثاً » ، ثم قال : « هل يمكن أن نعترف لغة غير اللغة الرسمية ؟ فالمرجو ممن لا يعترف لغة أخرى أن يرفع يده » . وهنا عجائب وغرائب أحدها قول الرئيس لفاسلاكي « لا أفهم مرادك » كما تقدم . الثانية ، زجره إياه عن شكر مولانا المعظم على إبقاء لغة قومه . الثالثة قوله لا نعترف إلا اللغة الرسمية . والصواب أن يقال « لا نعترف لغة رسمية إلا اللغة العثمانية أو التركية » فإن غير الرسمية لغة أيضاً ، وإنما المنفي كونها رسمية ، فمن زعم أن العربية ليست لغة فألحقه بالملحدين . الرابعة ، إن اللغة العثمانية ليست رسمية على الاطلاق ، فإن الدولة العلية إذا كاتبت إحدى الدول فإنها تكاتبها باللغة الفرنسية وكذا مكاتبتها إلى سفرائها في الخارج وخطابها لهم ، وزد على ذلك ، إن المجالس البلدية في بعض الولايات التي يتكلم أهلها بغير اللغة العثمانية تجري فيها المذاكرة على مصالح البلاد باللغة التركية وبلغة أهل البلاد ، وإنما تكتب المضبطة بالتركية أو اليونانية وفي بعض الولايات تكتب جميع الأحكام الشرعية والأوامر الادارية باللغة العربية ، وذلك نحو الحجاز واليمن وبغداد وسورية . وليس في تونس ومصر وطرابلس وجبل لبنان للغة التركية استعمال في شيء من الأحكام . فما معنى اللغة الرسمية إذن ؟ ولقد عزّ علينا نشر تلك المحاورة في الجوائب الماضية ، لأن بعض الحساد يستنتجون منها أن أعضاء مجلس المبعوثان لا يسوغ لهم أن يعبروا في المجالس عن خواطرهم ، فيكون إجتماعهم والحالة هذه ، عبثاً ، غير أنه ينبغي أن يتذكر أن هذا العرض لا يغير من جوهر الاجتماع . فما دام ذلك متاحاً لهم فلا بد من أن ينتج على التدرج : الحرية ، التي هي مراد مولانا المعظم في النطق الشريف والمدار على العمل بموجبه» .

* * *

وبعد فقد كانت أيام الشدياق في اسطنبول مفعمة بالعراك مع صروف الزمان والإنتكاسات ومع خصومه وظل فيها محافظاً على الروح النضالية ، وهذه الروح بارزة في كتاباته إلى اخر عمره ، قوي الشكيمة في العداوة ، ثابت على المبدأ في الصداقة فيعاقب ويثيب مما أوجد له شبه حزب يتحرك لنصرته في معاركه الكثيرة ويتعصب له في جميع الأنحاء من بغداد إلى المغرب .

واستفادت الحركة الأدبية واللغوية فضلاً عن السياسية من نشاط هذا الحزب الذي كان يواجه خصوماً كباراً أيضاً وأهل علم وكفاية وعناد ومع أن حزب الشدياق لم يتنزه دائماً عن المبدأ القائل : الغاية تبرر الواسطة ، إذ كان في كلامه نفسه وكلام أنصاره وتصرفاته وتصرفاتهم عنف المتعطش إلى الإنتصار على الخصم وإذلاله وتحقيره ، فإن هذا الحزب نشر الحيوية في الجدل والبحث والتخطئة والتصويب . وهناك كتب وكراريس ، فضلاً عن المقالات ، سال فيها الحبر على العصبية الشدياقية . وقد يكون الأديب الكبير مارون عبود الذي كتب عنه كتاباً بعد مئة سنة من تأسيس الجوائب آخر نموذج للشدياقي الملتزم .

أما جريدة الجوائب فقد كان لها بمستواها وسعة انتشارها نفوذ لا يدانيه نفوذ أية جريدة من جرائد العصر ، ولم تكن عند صاحب الجوائب أية عقدة تغل قلمه ، فكان معتداً بنفسه يتكيء على العثمانية ليهاجم السيئين من الأتراك وذوي المناصب العالية أياً كانوا ، وقد انتقدهم في مقالات مسهبة ومناسبات متعددة انتقاداً ساخراً وعلى الأخص في طرائق حكمهم وكان من أثر هذه المقالات تقوية الإحساس بالتمايز ووعي الذات عند العربي . ورأينا الشدياق يذهب إلى حد رفض العثمانية فيما بعد فيمهد الطريق للقول بالعروبة ، فكان هذا الرفض يأتي من الشدياق أحد العلامات على اتجاه هذه الأمبراطورية الحاسم نحو الزوال تحت وطأة الضغوط العالمية ونشأة الأفكار القومية .

مـراجع الفصـل الأول

(١) الشدياق : كشف المخبأ عن فنون أوربا الطبعة الثانية ، ص ١٥١ .

(٢) مارون عبود : صقر لبنان ، ص ١٩ .

(٣) كان جبل لبنان ارض التزام .

(٤) الخوراسقف خيرالله اسطفان : زبدة البيان أو خلاصة تاريخ أم مدارس لبنان عين ورقة ، ص ٢٦ .

(٥) رستم باز : مذكرات ، ص ١٢ .

(٦) أمين الريحاني : قلب لبنان ، ص ٤٢٥ .

(٧) أ . ن . بولياك : الاقطاعية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين : ترجمة عاطف كرم ، ص ١٥٥ .

(٨) مخائيل مشاقة : الجواب على اقتراح الأحباب ص ١٥٤ ـ ويقول أيضاً أن « سكـان الجبل ثلثمـاية ألف نسمـة ليس لهم سـوى ثلث أملاكـه والثلثين همـا في تملك الأمراء والمشـايخ وأوقـاف الرهبنـات والبطاركـة والمطارنـة والكنايس ومعابد الدروز وأكثـرها معـافاً من دفـع الأموال الميـرية والفقـراء يتحملون اثقالاً فـلا يبقى لهم من الإيراد ما يكفي لمعـاشهم الضروري . ولـذلك يـوجد الـوف من أهالي الجبـل يتسولـون في المدن من شيـوخ وعواجز ونساء وأطفال وألوف يشتغلون بالاجرة في حمل الاحجار والأتربة والاطيان في العماير وألوف خادمون في بيـوت وحوانيت أهـالي المدن في سـوريا وبـلاد مصر وهـذا جميعه لسبب عـدم إمكانهم تحصيـل المعاش في أوطانهم لأن أرض لبنان غير ممكن أن تكفي لمعيشة اهاليه » الجواب على اقتراح الاحباب ، ص ١٥٤ .

(٩) الشيخ ناصيف اليازجي : رسالة تاريخية ، ص ١٦ و١٧ .

(١٠) المطران يوسف الدبس : تاريخ سوريا ج ٤ ، ص ٧٤٩ .

(١١) مدرسة عين ورقة انشأتها الطائفة المارونية . بـدأت نشاطهـا سنة ١٧٨٩ ، وظلت تعمـل إلى مستهل القـرن العشرين معنية باللغة العربية عناية خـاصة فضـلاً عن السريـانية والعلومُ الـدينية والحـديثة والفلسفـة ، ومنها تخرج عدد من المشاهير امثال اسعد الشدياق وبطرس البستاني ورشيد الدحداح . أما المعهد الماروني الـروماني (ويسمى أحياناً مدرسة روما المارونية) فقد انشأته البابوية في روما سنة ١٥٨٤ لتخريج رجال الـدين للطائفة المارونية . وقد اشتهر طلابه بتنشيط حركة الاستشراق في أوروبا ونشر اللغتين العربية والسريانية كما أن طـلاباً آخرين ممن عادوا الى لبنان اصبحوا بطاركة ومطارنة .

(١٢) أسد رستم : بشير بين السلطان والعزيز ، ج ١ ص ٥ .

(١٣) Dr Jabbour Abdel - Nour : La contribution des libanais à la renaissance littéraire arabe au XIX siècle .

(١٤) الدكتور مشاقة ص ٦١.

(١٥) ليوسف الشدياق (١٧٦٢ ـ ١٨٢١) خمسة ابناء هم : طنوس (١٧٩١ ـ ١٨٦١) المؤرخ المعروف صاحب كتاب « تاريخ الاعيان في جبل لبنان » انغمس في السياسة في شطر عمره الأول ثم صرف شطره الأخير في وضع كتابه ونسخ كتب الطب والتاريخ وعلم الفلك الخ . والثاني منصور (١٧٩٥ ـ ١٨٤١) تعلم في عين ورقة واتقن الخط والنسخ كوالده وجميع اشقائه وعمل مدبراً لبعض الحكام . والثالث أسعد (١٧٩٨ ـ ١٨٣٢) كان كاتباً ذكياً وخطيباً ، بهي المنظر درس في عين ورقة أيضاً واعتنق البروتستانتية في مطلع شبابه مما أوقعه في نزاع مع الكنيسة المارونية ومات سجيناً في قنوبين . كتب حادثته المعلم بطرس البستاني في كراس اسمه « قصة اسعد الشدياق ». الرابع غالب (١٨٠٠ ـ ١٨٤٢) يتصف ، كاشقائه بالعلم والذكاء ، عمل في السياسة ضد الأمير الحاكم مما دعا الى نفيه إلى مصر والسودان ثم عين كاتباً في ديوان محمد علي وعند زوال اسباب النفي عاد إلى لبنان واستأنف العمل في السياسة إلى أن اعتلت صحته ووفاه القدر .
والخامس فارس (١٨٠١ ـ ١٨٨٧) صاحب هذه الترجمة .

(١٦) الأمير الأحمر اسم اطلقه مارون عبود على الأمير بشير شهاب الثاني .

(١٧) حدثني الأمير محمد أرسلان أن والده الأمير أمين حدثه نقلاً عن والده الأمير مصطفى : «أن جدته الست حبوس كانت توجس من عداوة الأمير بشير ولم تكن لتأمن من غدره ، بعكس صفاء المودّة بينها وبين الصلحيين فهرَّبت أولادها حيدر وأحمد وأمين إلى مدينة صيدا حيث لا تستطيع يد الأمير الشهابي أن تطالم فنزلوا دار محمد الصلح وعاشوا سنوات مع ولديه أحمد (أحمد باشا في ما بعد) وعبد الرحيم . ثم انتقلوا إلى عكار بعد أن أصبحوا شباناً فنزلوا عند حكامها من آل الأسعد » .
ولما قام الخلاف بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط كان الشهابي قد استقوى بوالي مصر ووالي عكا فبدأ في تصفية من يوجس منهم فأرسل ابن عمه الأمير بشير قاسم إلى الست حبوس في بشامون فقام بالمهمة على أكمل وجه : قتلها ثم نهب بيتها ثم صادر أملاكها .
ويقول الأرسلانيون إنها قتلت طعناً بالخناجر ومنهم من يقول خنقاً بيدي الأمير بشير قاسم نفسه ، وكان ذلك سنة ١٨٢٤ ، وكان عمرها ٥٦ سنةأما الشيخ بشير جنبلاط فجرت تصفيته سنة ١٨٢٥ تحت أسوار عكا.
وعن الأمير محمد أرسلان أيضاً إنه : « بعد أن دارت الدوائر وعُزل البشيران الثاني والثالث عاد أبناء الست حبوس من عكار مع الجيش العثماني إلى ديارهم . وعندما وقعت الواقعة بين الدروز والنصارى سنة ١٨٦٠ وفي إحدى المعارك الكثيرة كان على رأس الدروز الأمير أمين ابن الست حبوس الأصغر وكان قد اشتهر بالشجاعة والفروسية معاً وكان على رأس الفريق الآخر الأمير بشير قاسم شهاب فتمكن الارسلاني من خصمه وأطاح برأسه بسيفه إنتقاماً لأمه بعد نحو ٣٥ سنة .

(١٨) الشدياق : كتاب الساق على الساق (الطبعة الأولى) ص ١٤ .

(١٩) الشدياق : مقدمة ديوانه ص ٢ والساق على الساق ص ٢٢ .

(٢٠) « الغرر الحسان في أخبار اهل الزمان » حققه ونشره اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ووصفا مؤلفه بأنه ديناً تقياً محباً للرهبان ينافح من يتناولهم بالتعريض واوقف عليهم الاملاك الكثيرة . أما الكتاب فيقولان عنه انه المرجع الأكبر لتاريخ لبنان في القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر .

(٢١) الساق على الساق ص ٣٨.

(٢٢) يرى الذين كتبوا في سيرة فارس أو في تاريخ مدرسة عين ورقا أنه كان في يوم ما تلميذاً لهذه المدرسة .

ونحن نميل إلى أن ذلك لم يحدث إذ لم يذكر الشدياق شيئاً من هذا لا تلميحاً ولا تصريحاً ولو أنه كان انتسب اليها لكان ذكر الأمر في سيرته . وقد كان لهذه المدرسة مقام خاص لديه وقال عنها أنها « قدوة في تعليم اللغة العربية » (رسالة إلى طنوس ٢٥ تشرين الثاني ١٨٤٤) ولعل الخطأ الذي وقع فيه البعض كان التباساً بين فارس وشقيقيه غالب وأسعد اللذين التحقا بتلك المدرسة وكان اسعد من تلامذة البطريرك حبيش نفسه عندما كان يعلم فيها .

(٢٣) تقسم القصة إلى ثلاثة أقسام أو فصول . الأول والأخير كتبهما المعلم بطرس البستاني . أما الأوسط فينسب إلى فارس احياناً وإلى اسعد احياناً أخرى ، وهذا القسم ، أي الأوسط طبع على حدة سنة ١٨٣٣ في مالطة باسم « خبرية اسعد الشدياق الذي اضطهد لأجل اقراره في الحق »، وهو في رأينا ليس لفارس وليس لاسعد ، إذ يغلب عليه ضعف الاسلوب الذي اشتهرت به مطبوعات المرسلين وكتاباتهم ، ولذلك لا يصح نسبته إلى أسعد فضلاً عن فارس ، بل أغلب الظن أن كاتبه كان المرسل الاميركي اسحاق برد ، وربما كان برد قد استعان بأسعد لتذكر بعض الأحداث ، وعلى كل حال فالاقسام الثلاثة تتمم بعضها بعضاً . وهي تروي قصة اسعد ، والاحداث التي وقعت له بسبب انتقاله من المذهب الماروني الى المذهب الانجيلي .

(٢٤) القس فريد عودة : العمل الانجيلي في الشرق العربي ص ٤٥ .

(٢٥) المعلم بطرس البستاني ، ص ١٦ .

(٢٦) العمل الانجيلي ، ص ٥٤ .

(٢٧) الساق على الساق ، ص ١٥٣ .

(٢٨) المعلم بطرس البستاني ، ص ٨ و٣٧ .

(٢٩) الساق على الساق ، ص ١٣٠ . وقد يلاحظ القارىء كيف يستبدل الشدياق الالفاظ المتعلقة بالدين ورجال الدين بالفاظ التجارة والتجار ولا يخفي القصد من ذلك ، فالسلعة تعني المذهب والخرج الدعوة أو التبشير البروتستانتي . والخرجيون هم البروتستانت والسوقيون هم الموارنة أو الكاثوليك بوجه عام .

(٣٠) الأب لويس شيخو : المشرق ، المجلد ١٢ ـ سنة ١٩٠٩ ـ ص ٢٦٢ .

(٣١) ويمكننا أن نستنتج أن ذلك حصل في نيسان سنة ١٨٢٦ ، وليس سنة ١٨٢٥ كما يقول طنوس خطأ في كتابه تاريخ الأعيان (ص ١٩٨) . وهذا واضح لأن الرسالة التي حملها فارس من أسعد إلى اسحق برد مؤرخه في ٤ نيسان سنة ١٨٢٦ كما هو مبين . ففي هذا التاريخ كان فارس ما يزال في لبنان .

(٣٢) المعلم بطرس البستاني ، ص ١٠٢ ، و١٠٣ و١١٩ و١٢٣ .

(٣٣) القس عودة ، ص ٤٦ .

(٣٤) ارسل الشدياق الى أخيه طنوس بعد نحو ربع قرن من هذه الحادثة عتاباً شديداً لأنه اغفل في تاريخه ذكر شقيقهما اسعد ومزاياه فقال له : « انكم لم تذكروا ما اشتهر به في الفصاحة والعلم وغير ذلك ، ولا عذر لكم بأن تقولوا انه ترك مذهب أبائه ، فإن تغيير المذهب لا يسلب الانسان محامده . فلا بد أن تعقدوا فصلاً على حدته في آخر كتابكم وتذكروا منه ما لم تذكروه في الجزء الأول مما يخص أخانا . وحتى إنكم لم تذكروا سنه ولا حليته وصفاته كما ذكرتم صفات غيره » (رسالة الى طنوس في ٧ نيسان ١٨٥٦ ـ (من مجموعة المؤرخ الاستاذ يوسف يزبك) .

(٣٥) الساق على الساق ، ص ١٢٦ و١٣٨ .

(٣٦) المرجع ذاته ، ص ٢٢٣ .

(٣٧) الدكتور ابراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، ص ٣٦ .

(٣٨) طنوس الشدياق : اخبار الأعيان في جبل لبنان ، ص ١٩٨ .

(٣٩) فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، ج ١ ص ٤٩ .

(٤٠) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ص ٥٢ .
(٤١) بولس مسعد : فارس الشدياق ، ص ١٨ .
(٤٢) تاريخ الوقائع المصرية ، ص ٣٤ ، و٤٩ .
(٤٣) المرجع ذاته ، ص ٢٩ .
(٤٤) الساق على الساق ص ٢٠٦ ، و٢٠٧ .
(٤٥) نصرالله الطرابلسي من كاثوليك حلب هاجر الى مصر سنة ١٨٢٨ . والتحق بنجيب البحري فصار من كتاب ديوانه ثم ادخله في خدمة محمد علي (المشرق السنة ٣ ص ٤٠٣) .
(٤٦) الساق على الساق ، ص ٣٣٧ .
(٣٧) المرجع ذاته ، ص ٣٣٨ .
(٤٨) عادل اسماعيل : السياسة الدولية في الشرق العربي ، ج ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٤٩) عفاف لطفي السيد : مجلة العربي ، العدد ١٢٨ (تموز ١٩٦٩) .
(٥٠) عبد الرحمن سامي باشا : رموز الحكم ، ص ١٦١ وما بعدها .
(٥١) رسالة الشدياق الى طنوس ٨ تشرين الأول ١٨٥٥ (من مجموعة يزبك) .
(٥٢) العمل الأنجيلي في مصر بدا على يد المبشرين الانكليز سنة ١٨١٩ ، أما المتبشرون الأميركان فلم يبدأ عملهم إلا سنة ١٨٥٤ (القس عودة ، ص ١١٥) .
(٥٣) الساق على الساق ، ص ٣٦٥ - ٣٧٨ .
(٥٤) يظل الشدياق يستعمل هذه التسمية الى أن يضع لهذه السفينة اسمها الجديد « الباخرة » وكان ذلك في كتابه كشف المخبأ .
(٥٥) تفضل باعطائنا ميكروفيلم عنها الدكتور ارثر باركر Dr. Arthur Barker مدير العلاقات في الجمعية بعد أن بوبها ورقم صفحاتها .
(٥٦) لعله بدأ بتعريب « الرؤ يا » فقد قال في كتاب الساق أنه « ذهب الى عمله وهو موجس من تعبير الوحش » وفي الرؤ يا من الاصحاح الثالث عشر إلى الاصحاح العشرين ذكر للوحش ، وهو شخصية اساسية في هذه الفصول . وهي ترمز بالاجمال إلى « جميع القوى التي تنهض على الكنيسة على توالي العصور ولا سيما المملكة الرومانية » كما جاء في حاشية للأب جورج فاخوري البولسي في « العهد الجديد » الطبعة البولسية ١٩٦٤ ، ص ٥١٢ .
(٥٧) في مقدمة الطبعة الأولى لكتاب اللفيف ما يفيد أن تعليم العربية في مدرسة الحكومة إنما انشىء بسببه وأنه توطئة لتعريب التعليم في مالطة . أما الطبعة الثانية من الكتاب فقد طبعت بإشراف الشيخ رسول النجاري أحد علماء مطبعة الجوائب . وجاء في مقدمة الطبعة الأولى أيضاً بحث في أصول وضع الفواصل بين الجمل وعلامات الوقف أي ما يعرف بالفرنسية Ponctuation وهو أول بحث من نوعه في المؤلفات العربية المطبوعة في ما نعلم . وبعد أن عدد العلامات والفواصل ، وقد اصبحت معروفة ، قال : « ولعمري لو كان هذا في اللغات الأفرنجية لازما لكان في العربية الزم لكثرة العطف فيها وملاحظة تفريع الجمل بعضها على بعض ، وذلك في غيرها لا يلزم » .
(٥٨) عثرنا على كراس « صليب المسيح » في مكتبة المتحف البريطاني تحت ريم 1010 . 14505 وهو خال من اسم المطبعة وتاريخ الطبع . وقياسه ١٨ × ١٠ ، وبمقابلة هذا الكراس مع المطبوعات التي كانت تصدر عن مطبعة مالطة وجدنا أن احرفه تطابق « كتاب الباكورة الشهية » ، وبقية الكتب التي صدرت سنة ١٨٣٦ . وفي الكراس ١٣ ترنيمة مجموع أبياتها ٢٣٩ بيتاً . وليس لهذا الكراس جلد ولذلك ضاع الأسم واتخذ عنوان الترنيمة الأولى « صليب المسيح » اسماً له .

(٥٩) الأب لويس شيخو : تاريخ فن الطباعة في المشرق : مجلة المشرق السنة الثالثة ، ص ٥٠٤ والمجلد ١٢ ص ٦٢٦ .

(٦٠) كراس العيد المئوي لنقل المطبعة الأميركية الى بيروت ، ص ٢ و٣ .

(٦١) الشدياق : الواسطة في معرفة احوال مالطة ، ص ٢٦ .

(٦٢) يقول مارون عبود في كتابه « صقر لبنان » أن الشدياق يسكت سكوت السمكة عن أسير مالطة الأمير بشير مع أنه كتب كتاباً برأسه عن مالطة ، أن هذا ما يحيرني . صقر لبنان ص ٨٤.

(٦٣) الساق على الساق ، ص ٤٩١ ورسالة الى طنوس في ٧ آذار ١٨٤٢ (مجموعة يزبك).

(٦٤) رسالة الى طنوس في ٥ تشرين الثاني ١٨٤٤ . (مجموعة يزبك).

(٦٥) الساق على الساق ص ٤٨٩ .

(٦٦) هذه القصيدة جاءت في مذكرة كتبها في مالطة سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤).

(٦٧) الساق على الساق ص ٥٠٧ .

(٦٨) محضر اجتماع الجمعية في ٢٩ كانون الأول ١٨٤٤ .

(٦٩) رسالة الى جرجي الخياط في ١٢ تموز ١٨٤٤ .

(٧٠) محضر اجتماع الجمعية في ٢٠ آذار ١٨٤٤ .

(٧١) رسالة الى طنوس في ٥ تشرين الثاني ١٨٤٤ .

(٧٢) محضر اجتماع الجمعية في ٢٨ كانون الثاني ١٨٤٥ .

(٧٣) الساق على الساق ، ص ٥٤٠ ـ رشيد باشا رجل الاصلاح التركي الكبير والصدر الاعظم في ما بعد أما سامي باشا فقد تكلمنا عنه في صفحات سابقة .

(٧٤) محضر ٧ تشرين الثاني ١٨٤٥ ومحضر ٩ شباط ١٨٤٦ .

(٧٥) رسالة الى طنوس في ٢٥ آب ١٨٤٦ (يزبك).

(٧٦) الساق على الساق ، ص ٤٥٢ .

(٧٧) محمد الفاضل ابن عاشور ، الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، ص ١٤ و١٥ .

(٧٨) المرجع السابق ص ١١ ـ ١٢ .

(٧٩) أحمد ابن أبي الضياف : اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج/٨ ، ص ١١٨ .

(٨٠) في محفوظات الدولة التونسية عشر رسائل متعلقة بالشدياق ، منها سبع رسائل منه إلى الخازندار وثامنة تشتمل على مقتطفات من الأخبار السياسية مرسلة الى الوزير أيضاً والتاسعة رسالة الى وزير المال عبد العزيز بوعتور والعاشرة شكوى على سليم الشدياق من محلات كوهين لبيع الاسلحة في باريس لعدم تسديده ثمن ما اشتراه . وفي ما يلي رسالة من الرسائل الموجهة الى الوزير :

« وبعد فإني أقبل راحتكم الشريفة وادعو بدوام دولتكم المنيفة واعرض اني في غرة هذا الشهر بعثت لجنابكم الرفيع ما رأيت تعريبه وهو لا يخلو من الفائدة مع تذكرة فيها اسم أحد تجار مالطة . وإني هذه المرة واجهت طباع الجرنال المسمى « ميديترانيو » واستعلمت منه عن اسم الرجل الذي يكتب له من محروسة تونس طعناً في سياستها وأحوالها . فغاية ما علمت منه أنه رجل مالطي ، فلم استغرب حينئذٍ لؤمه فيما يطعن به على بلاد يأكل من خيرها ويعيش في نعمتها فإن ذلك دأب المالطيين حتى في الطعن في حاكمهم وملكتهم ، وإنما لاح لي أن حسم هذا التطاول ممكن من طرفكم السعيد فإن السنيور داويد طنطليانة إذا طولع في ذلك لا يألو جهداً في البحث والتنقير عنه حتى يعرفه إذ هو محب لسيادتكم ، وغاية ما أرجو في قولي وعملي استعطاف خاطركم الشريف واستجلاب رضى مولانا وسيدنا المعظم ادام الله دولته العلية ودولتكم أيضاً بالعز والاقبال

ما تعاقبت الأيام والليال » . في ١٦ ربيع الثاني سنة ١٢٦٤ خادم بابكم العالي فارس الشدياق .

أما الأخبار التي كان يبعثها إلى الوزير التونسي سواء من أوروبا أو مالطة أو اسطنبول فهذا مثال لها وهي من العاصمة العثمانية وهي تشبه في طرازها تسقط الأخبار في العمل الصحفي :

« الحمد لله : اسلامبول : مفاوضة الديوان وسفير دولة فرنسا لما تنته على وجه أما السفير فإنه أبى إلا أن يكون معروفاً عند الدولة وأما الوزراء الذين هم جميعاً من نصب دولة روسية فإنهم أبوا الا انكاره واحتجوا أنهم إذا فعلوا خلاف ذلك يخشون مجاهرة الروس في الحرب وإن السفير المومي اليه كتب الى دولته بخصوص ذلك والجواب منتظر يوماً فيوماً . وهذا الخبر قريب الاحتمال فإن عساكر المسكوب تجمعت في بصارابيا على عزم أن تتقدم الى اسلامبول إذا صدر من دولة فرنسا ما يوجب الحرب وللروس عشرون سفينة حربية تطوف في البحر الأسود وكان خروجها من مرسى سيفا سطوبول . أما ملدافيا ووالاخيا وصربيا فإنها مطمئنة ساكنة . وذكر أن نائب قنصل السردو في غاليبولي أمر بأن يعتبر اللمبارديين الذين هناك رعية لدولة سردينية . وقد وقعت النار في كسكا وطبكابو ولكنه بودر إلى اطفائها في الحال فلم يحترق بها إلا إثنا عشر بيتاً فقط فأما النار التي وقعت في بيوك اغلي باسلامبول سابع عشر هذا الشهر فقد ذكروا أنه احترق بها نحو الفين وخمسماية دار اكثرها في حارة الافرنج وكان من جملتها خمس أبنية بالحجر . ومن حيث أن الترك ما برحوا مضمري البغض للنصارى فلم يبادر احد منهم إلى اغاثتهم بل كانوا ينظرون اليهم وهم شامتون الخ . . . » .

(٨١) محضر ٩ شباط ١٨٤٦ .

(٨٢) كشف المخبأ ، ص ١٢٧ .

(٨٣) محضر ١٨ أذار ١٨٥٠ .

(٨٤) محضر ٢٠ آذار ١٨٥١ .

(٨٥) الأمير محمد باشا الجزائري : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، ج ٢ ص ٤٦ .

(٨٦) كشف المخبأ ، ص ٢٥٣ .

(٨٧) عثرنا عليه في هذه المكتبة تحت رقم ٥١٥٠ ومجلد مع مخطوط آخر اسمه « مبدأ في بيان ارتباط التمدن بدين الاسلام » ، وقد جاء كتاب المماحكات في سبعين صفحة قياس ٢٠ × ٢٤ . قال الناسخ في ختام الكتاب : « تمت الرسالة المسماة بمماحكات التأويل في مناقضات الأنجيل تأليف فارس البراعة احمد فارس الشدياق جزاه الله عنا خيراً وأحسن إليه . وذلك عن نسخة كتبت في اليوم الأول من شهر رجب سنة ١٢٨٣ هجرية بخط مصطفى رشدي ابن أحمد فيليوزي وقد تم نسخها ثانية في اليوم السابع من شهر ذي القعدة سنة ١٣١٨ هجرية على صاحبها افضل الصلاة والتحية » . والكتاب مكتوب بالقلمين النسخي والرقعي العاديين . وقد ذهب التجليد ببعض الكلمات .

(٨٨) انتقلت هذه المخطوطة الى مكتبة الأوقاف ، كما جاء في فهرس المكتبة القديم ، من مكتبة جامع الباجي جي .

(٨٩) جاء في مقدمة الديوان وبخط الآلوسي : « مقدمة ديوان أحمد فارس افندي ، وهبنيه مؤلفه الفاضل المشار إليه في اسلامبول المحمية ، وأنا الفقير نعمان الوسي زاده ١٣٠١» .

(٩٠) الجوائب العدد ٣٩١ - ٣١ أيار ١٨٦٩ .

(٩١) الساق على الساق ص ٦٦٢ .

(٩٢) قال في معرض الحديث عن نابليون الثالث وعن مدحه بقصيدة ثانية انه حدث أن « استقل بولاية الملك ولقب الأمبراطور ، فنزعني نازع آخر من : « وقال يمدح الأمير » إلى أن اهنئه بقصيدة » (كشف المخبأ ، ص ٢٨٤) . ونابليون الثالث اعلن نفسه امبراطوراً كما هو معروف ، في ٢ كانون الأول ١٨٥٢ ثم يقول في نفس

الصفحة « وفي غضون ذلك شرعت في تأليف كتاب الفارياق » فكتاب الساق اذن من مواليد سنة ١٨٥٣ في باريس .

(٩٣) الساق على الساق ، ٦٦٦ .

(٩٤) رسالة الى طنوس في ٣ نيسان ١٨٥٧ .

(٩٥) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ، ص ١١٤ ـ وابن عاشور ص ٢٢ .

(٩٦) الجوائب العدد ٨٤٤ (٢٢ / ٢ / ١٨٧٧) .

(٩٧) إحسان حقي : تونس العربية ص ١٧ ـ وابن عاشور ص ١٩ ـ وابن أبي الضياف ، ج ٤ ص ٢٦٦ وج ٨ ص ٢٦٣ .

(٩٨) جريدة الحياة ـ بيروت ـ العدد ٥١٠٦ ـ ٧ كانون الأول ١٩٦٢ .

(٩٩) ديوان قبادو، ج ٢ ص ١٢٩ .

(١٠٠) صدر العدد الأول من الجوائب في ٣١ أيار ١٨٦١ فلو قدمنا مجيئه الى القسطنطينية على هذا التاريخ بنحو سنة أو النستين وهي المدة التي نقدرها لممارسة عمله الجديد في المطبعة السلطانية ثم ارتقائه إلى رئيس مصححين ثم لاصدار الجريدة لقلنا أنه جاء من تونس في نحو السنة ١٨٥٩ وربما قبيلها وفيها صدر مرسوم الباي محمد الصادق لهولط الأنكليزي باصدار الرائد .

(١٠١) المطبعة السلطانية أو « دار الطباعة العامرة » انشئت في أوائل القرن الثامن عشر وقامت بطبع الكثير من الكتب باللغتين العربية والتركية وما أن توسط القرن الثامن عشر حتى اصيبت بالوهن فأقفلت ثم أعيد فتحها سنة ١٧٨٣ وانفقت عليها الأموال وتطورت وأصبحت من أعظم مؤسسات الطباعة في العالم الاسلامي . مما طبعته للشدياق كشف المخبأ عن فنون أوربا في طبعته الأولى سنة ١٨٦٦ وكتاب سر الليال في القلب والابدال سنة ١٨٦٧ .

(١٠٢) مقدمة الطبعة الأولى من كتاب كشف المخبأ .

مراجع الفصل الثاني

(١) بولس مسعد : ص ٢ .

(٢) كنز الرغائب في منتخباب الجوائب ، ج ٥ ص ٢ .

(٣) كان من الصعب الاستدلال على شخصية الشدياق الصحفية والأدبية والسياسية استدلالا كاملاً وكذلك الاطلاع على مستوى الجوائب لولا كتاب « كنز الرغائب في منتخبات الجوائب » وقد حشد فيه جامعه ، سليم فارس الشدياق ، افضل ما نشرته الجريدة ، وكذلك افضل ما كتبه الشدياق لا سيما في سنوات الجريدة الأولى ، وهي المفقودة . فإذا ما استشهدنا في بحثنا هذا بكتاب الكنز فيكون ذلك بديلاً عن الأعداد المفقودة . والكتاب المذكور يتألف من سبعة اجزاء . الأول منها يشتمل على المقالات التي كتبها الشدياق في بدء عهد الجريدة وهي في معظمها مقالات اجتماعية وعلمية وأدبية وقليل منها في السياسة . والجزء الثاني يكاد يقتصرعلى مقالاته السياسية وتعليقاته على الحرب البروسية الفرنسية وكذلك على حركة الكومون في باريس وهو في زعمنا أهمها من حيث الاستدلال على آرائه السياسية ، والثالث خصص لما نشرته الجوائب من نظم الشدياق ، والرابع للقصائد التي نظمها الشعراء والادباء في مدح الجريدة وصاحبها ، أما الخامس والسادس والسابع فهي تشتمل على الفرمانات السلطانية والمراسلات الدولية والاحداث التاريخية المعاصرة والمعاهدات والقوانين العامة وغير ذلك من الوثائق . صدر الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٨٧١ والأخير سنة ١٨٨٠ .

(٤) وهم : « في تونس يسأل عند سليم الشدياق أبن المؤلف ، في بيروت يسأل عنها السيد محمد البربير وأولاده المكرمين ، في لندن عند المستر نت ستراند عدد ٢٧٠ . في مالطة عند مستر سترادا ديالي . بمصر القاهرة عند أحمد افندي العشي بالموسكي . في طرابلس الشام الخواجا نقولا خلاط » .

(٥) الجوائب ، العدد ٣٣٧ .

(٦) القصيدة نشرت في الجوائب العدد ٢٢ وفي الكنز ج٣ ص ٧٠ .

(٧) الجوائب العدد ٨٣ وكررت الجريدة نشر هذا النص في العدد ١١١٤ أي بعد نحو عشرين سنة في سياق احدى مجادلاتها .

(٨) المرجع ذاته ، الأعداد من رقم ٨٥٠ إلى ٨٥٦ (١٨٧٧) .

(٩) الشدياق : سر الليال في القلب والابدال ص ٩٦٠ . ولما زار الخديوي اسماعيل القسطنطينية استزار الشدياق فأثنى عليه وقال له : « إنني اجل العلم في شخصك » واهداه خمسة آلاف جنيه (اعيان البيان ص ١١٢) .

(١٠) رسالة إلى ظاهر الشدياق في ١٤ تشرين الأول ١٨٦٦ . فثمن الجوائب في جبل لبنان كان يذهب إلى ارملة اخيه طنوس في أول الأمر ثم إلى بعض اقاربه في ما بعد . أما في تونس فكان يذهب إلى ابنه سليم .

(١١) عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ج ١ ص ٨٤ .

(١٢) رسالة الشدياق إلى الخازندار في ١٤ صفر ١٢٨٦ (١٨٦٩) .

(١٣) قال الأستاذ علي حيدر النجاري ابن الشيخ رسول النجاري في مقال له في مجلة الأديب البيروتية إن الشدياق. اسلم الشيخ رسول « قيادة ابنه الوحيد في تحرير الجوائب وتصحيح مطبوعاتها خلال السنوات السبع الأخيرة من حياتها » (مجلة الأديب السنة ٣٧ ج ٢ شباط ١٩٧٨) .

(١٤) كنز الرغائب، ج ٦ ص ٣٠٠ .

(١٥) الجوائب، العدد ٨٩٣ .

(١٦) كنز الرغائب ، ج ٥ ص ٦٥ .

(١٧) المرجع ذاته ، ص ٣١٥ .

(١٨) قال الفاضل ابن عاشور : « بنقل احدى مقالات الشدياق إلى الرائد التونسي فتح باب المقالة فيه » (ابن عاشور ص ٢٨) .

(١٩) الجوائب ، العدد ٤٠٦ .

(٢٠) كنز الرغائب ، ج ١ ص ١٠٣ .

(٢١) المرجع ذاته ، العدد ٤٩٦ .

(٢٢) رسالة الشدياق إلى الشيخ يوسف الاسير ٢٥ ذي القعدة ١٢٧٩ (١٨٦٢) .

(٢٣) من الحملات العنيفة التي قامت بها الجوائب ضد خصومها وخصوم الدولة ما حدث مع رزق الله حسون وكان هذا ينحاز إلى روسيا ضد الدولة العثمانية مما أثار الشدياق وحمل عليه حملة شديدة فأصدر حسون في لندن سنة ١٨٦٨ مجلة خصصها للتهجم على الشدياق وسماها « رجوم وغساق إلى فارس الشدياق» ثم وضع كتابا سماه « النفثات »وكان كلام حسون عنيفا متبذلا في جدله شتاماً في لفظه .

وتصدت الجوائب ايضاً لأمين شميل الكاتب في جريدة الاهرام لوضعه كتابا عن الحرب العثمانية الروسية وأسبابها ، وكان اكثر ما اثار صاحب الجوائب قول الشميل إن الارثودكس في بلغاريا اكثر عدداً من المسلمين فكذبته؛ الجوائب واتهمته بأنه عميل لروسيا .

وقبيل تعطيل الجوائب نهائياً بنحو ثلاثة اشهر نشب عراك عنيف بينها وبين محرر جريدة « الاعتدال » في اسطنبول لصاحبها يحيى السلاوي بسبب تهجمه على خديوي مصر فتولى منازلته في الجوائب احد الكتاب البارزين فيها الشيخ رسول النجاري بمقالات مسجعة وسليم فارس الشدياق ابن صاحب الجريدة فتدخل بين الصحيفتين الأديب العراقي محمود شكري الالوسي وحسم النزاع برسالة إلى كل من المتناظرين.

أما حملة الجوائب على جريدة ثمرات الفنون وصاحبها الشيخ عبد القادر القباني فيختلف موضوعها عن غيرها من الحملات فالأمر هنا لا يتعلق بالسياسة بل بخبر مدسوس على الجوائب إذ ذكرت خطأ أن الشيخ إبراهيم الاحدب وافته المنية فابنته وقالت إنه كان على مقام عظيم من العلم والأدب .

وقد تمكنت ثمرات الفنون من الجوائب وتهكمت على صاحبها ونسبت نشر الخبر إلى سوء القصد . ويبدو أن مقال القباني تضمن اتهام الجوائب بالشماتة بالموت فأجابت الجوائب « لو كان من عادتنا أن نشمت بالموت لكنا شمتنا بموت الثمرات عندما اعلنت افلاسها » ثم راح الشدياق يسمي جريدة القباني بسكرات الجنون .

هذه بعض الشذرات من مناظرات الجوائب مع خصومها والجريدة حافلة بالكثير منها والطريف .

(٢٤) الجوائب ، العدد ٥٠١ .

(٢٥) رسالة إلى أبن شقيقه ظاهر في ٢١ اذار ١٨٧٢ (يزبك) .

(٢٦) رسالة إلى ظاهر في ٥ ذي القعدة ١٢٨٨ (١٨٧٢) (يزبك) .

(٢٧) رسالة إلى ظاهر وبشارة الشدياق (يزبك) .

(٢٨) الجنان ١٥ حزيران ١٨٧١ .

(٢٩) الجوائب العدد ٨٤٨ و٨٥١ .

(٣٠) يقول إبراهيم عبده في اعلام الصحافة إن إسماعيل عين الشدياق عينا له في القسطنطينية (اعلام الصحافة ٣٩) .

(٣١) وبسبب الخديوي اسماعيل عطلت الجوائب سنة ١٨٦٩ شهرين .

(٣٢) توماس بيري « الصحافة اليوم » ترجمة مروان الجابري ص ٢٦٠ .

(٣٣) الرافعي : عصر اسماعيل ج ١ ص ٨٢ .

(٣٤) الجوائب ، العدد ٤١٨ .

(٣٥) كشف المخبا ، ص ١٤٥ .

(٣٦) السيد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الأمام محمد عبده ، ص ٩٩٧ .

(٣٧) الجوائب العدد ١١٧٧ (٦ جمادي الاولى ١٣٠١ و٥ اذار ١٨٨٤) .

(٨٣) بين الأعداد التي كانت ترسل إلى جريدة البشير كان العدد الأخير وقد كتبت على حاشيته بخط اليد « ارجوكم عند صدور البشير أن تعلنوا بأن الجوائب عطلت تعطيلاً وليس كما كتب بعض الجرائد المحلية من أنها الغيت وفي الاطلاع عليها كفاية » .

(٣٩) كنز الرغائب ، ج ١ ص ٤١ و٤٢ و٨٠ .

(٤٠) المرجع ذاته ، ص ٢٣٧ .

(٤١) قبل وفاته بأيام سأل حرمه أن تشترك معه في احصاء عدد الذين سبقوه إلى عالم الأرواح من خلانه وذكر ١٨١ نفسا قال إن اعزهم لديه كان سامي باشا ونجله صبحي باشا وكمال باشا وعلي باشا وفؤاد باشا ، وهم من اقطاب الدولة والاصلاح في ذلك الزمن ، واستاذان يعرف لهما فضلهما عليه وهما الشيخ شهاب الدين الخفاجي والسيد نصر الله الطرابلسي الحلبي وهما اللذان اتم عليهما دروسه في العلوم العربية وهو في مصر (بولس مسعد) .

مراجـع الفصـل الثالث

(١) الجوائب العدد ٦١٤ ، وانسياقا مع هذا الاتجاه ، احصت الجوائب سنة ١٨٦٧ المخطوطات الموجودة في مكتبات الاستانة ، فإذا بها تبلغ ٧٦٤٨٦ مخطوطة موزعة في اربعين مكتبة . وجاءت احفلها مكتبة السلطان محمود في جامع ايا صوفيا وفيها ٦٢٩٢ مخطوطة ثم تلتها مكتبة السلطان عثمان في جامع نور عثمانية وفيها ٥٨١٦ ثم مكتبة السلطان محمد الفاتح وفيها ٥٢٧١ ثم مكتبة شيخ الإسلام عاشر افندي وفيها ٤٨٢٧ ثم مكتبة السلطان سليم في مدرسة لاله وفيه ٤٠٠٠ ثم مكتبة محمد باشا كوبرولي في جامع كوبرولي وفيها ٣٢٤٥ الخ . . . (الكنز ج ٥ ص ١٨٤) .

(٢) عبد السلام هارون : تحقيق النصوص ونشرها ص ٣٨ .

(٣) الشدياق : الجاسوس على القاموس ص ١٨٤ .

(٤) قال في موضوع التحريف والتصحيف في مقدمة ديوانه : « إن اهل العربية اهملوا صيانة كتب العلم وخصوصاً اللغة عن التحريف والتصحيف إذ كان يجب عليهم أن يعينوا ديواناً مخصوصاً للنسخ ، فكل من أراد أن ينسخ كتباً لزمه أن يحضر إلى الديوان لكي يمتحن فيه ، فمن رأوه عالما أذنوا له وسلموا له صكاً بذلك ومن رأوه جاهلاً منعوه» .

(٥) خواتيم مقامات الهمذاني وامثال العرب للمفضل الضبي وديوان العباس بن الاحنف في ديوان الطغرائي .

(٦) خواتيم رسائل بديع الزمان الهمذاني ودرة الغواص للحريري والموازنة بين أبي تمام والبحتري ومصارع العشاق للسراج (الجوائب العدد ٤٤٨ والعدد ٩٢٤) .

(٧) معظم هذه الكتب كان يدرس في المدارس الثانوية إلى آخر العهد العثماني .

(٨) يقول خليل صابات مؤلف تاريخ الطباعة في الشرق العربي إنه « إلى سليم بن احمد فارس الشدياق يعود فضل ازدهار مطبعة الجوائب فقد كان مديرها وروحها العاملة . والمكتبة العربية مدينة لأحمد فارس الشدياق ومطبعته بتلك الثروة الأدبية التي كانت مدفونة في خزائن كتب الاستانة لا يعرف الناس عنها شيئاً حتى هيأ الله لها مطبعة الجوائب التي طبعتها ونشرتها في الاستانة وكافة الولايات العثمانية . وتمتاز حروف تلك المطبعة بالجمال والدقة وندرة اخطاء مطبوعاتها » (خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ، ص ٢٩) .

(٩) طبع في مالطة سنة ١٨٤١ .

(١٠) شرح طبائع الحيوان ، ص ١٢ .

(١١) جورج بوست : « نظام الحلقات في سلسلة ذوات الفقرات » ، ج ١ ص ١٢ .

(١٢) الجنرال امين المعلوف : معجم الحيوان ، ص ٧٥ .

(١٣) العهد القديم ، ويسمى التوراة ايضاً ، هو كتاب اليهود المقدس وكذلك المسيحيين . جاء في كتاب المرشد إلى الكتاب المقدس للقس سيكل سيل : « إن العهد القديم هو كتاب المسيحيين ايضاً لأن كل ما تكلم به انبياء ذلك الكتاب «هي مصدر الايمان وأساسه » (المرشد إلى الكتاب المقدس ص ١١ ـ ١٥) . يبلغ عدد اسفاره بحسب الكنيسة الرومانية ٤٦ سفراً وتسقط الكنيسة البروتستانتية منها سبعة اسفار مع عدد من بعض الاصحاحات وفقرات من اسفار مختلفة ويطلق على هذه المجموعة اسم « الابوكريفا » . أما العهد الجديد فيتألف من أربعة اناجيل هي انجيل متى وانجيل مرقس وانجيل لوقا وانجيل يوحنا ويضاف إليها سفر اعمال الرسل ورسائل بولس ويعقوب وبطرس ويوحنا ويهوذا ورؤ يا يوحنا فيكون مجموع اسفار العهد الجديد ٢٧ سفراً .

(١٤) للكتاب المقدس ترجمات كثيرة إلى اللغات القديمة والحديثة ومن اشهرها الترجمة اللاتينية المعروفة بالفولكاتا . أما ترجمته إلى اعربية فيقال إن أول من قام بها اسقف اشبيلية يوحنا سنة ٧٥٠ وقد ترجمه عن الفولكاتا .

(١٥) فالموارنة مثلاً ، اصبحوا لا يفهمون السريانية ، كما قال المطران داوود الماروني الحلبي الذي ترجم « كتاب الهدى » إلى العربية في القرن الحادي عشر (حاشية الخورسقف يوسف داغر في كتابه « بطاركة الموارنة ») وكتاب الهدى هو مجموعة قوانين خاصة بالطائفة المارونية ترجم من السريانية إلى العربية سنة ١٠٥٨ (بطاركة الموارنة : ص ١٦) .

(١٦) وصف المطران الرزي وأعوانه في مقدمة الطبعة هذه عملهم والنهج الذي اتبعوه والاسلوب اللغوي الذي اعتمدوه فقالوا : « قديما كانت النسخة العربية أيضاً مشهورة تامة في الالفاظ صادقة في المعاني حين زهر في نواحي الشرق دين المسيح ولم تكن بعد انقلبت الأمور من شدة الاحزاب والمراطقة في تلك البلدان. لكن من بعد ما نقص هناك العلم والايمان خسرت أيضاً النسخة المذكورة وبقيت منها مصاحف قليلة فقط وفيها غلطات كثيرة ونقصات غزيرة ذلك من قلة النساخ والعلماء ومن كثرة الغشومة والجهالة . ثم تقول المقدمة : وإنك لتجد شيئا من الكلام غير موافق قوانين اللغة لأنه لم يرد روح القدس يقيد اتساع الكلمة الالهية بالحدود المضيقة التي حدتها الفرايض النحوية فقدم لنا الاسرار السماوية بغير فصاحة وبلاغة وكلمات يسيرة مستسهلة» .

(١٧) تسقط الكنيسة البروتستانتية الابوكريفا Apocryphes لأنها تعتقد أنها لم تكن موجودة في العهد القديم (المرشد إلى الكتاب المقدس ، ص ٢٩) ، و« ليست هي من وحي الروح القدس » (المعلم بطرس البستاني : قصة اسعد الشدياق ، ص ٢٠) ، فليست هي اذن من الاسفار القانونية المقدسة . غير إنها ، كما يقول مارتن لوثر ، قد تكون « صالحة ومفيدة للمطالعة » ، وجاء في كتاب الصلوات العامة لكنيسة انكلترا وارلنده المتحدة « إن الكنيسة أنما تقرأها لقدوة السيرة وتهذيب الاخلاق ولكن لا تسند إليها تعليما وتثبته منها » (كتاب الصلوات العامة ص ٦١٤) .

(١٨) محضر الجمعية ١٠ حزيران ١٨٤٤ .

(١٩) وقد يفيد أن ننقل هنا كلاماً للبابا بيوس العاشر في شأن اللهجة العامية وأثرها السيء في العبادة . قال في رسالة له : « ان لغة الانشاد يجب أن يستبعد منها كل ما يجعلها مبتذلة ، فالانشاد ممنوع باللغة العامية لأنها لا تؤثر لدى ممارستها في العبادة في قلوب المستمعين تأثير الكنيسة السعيد » . Motu Proprio sur la musi-que sacrée . Actes de S . S . Pie X (Tome 1e .).

(٢٠) سليمان البستاني : مقدمة الالياذة ، ص ٧٥ .

(٢١) كشف المخبأ ص ١٢٤ .

(٢٢) هناك قرائن كثيرة تدل على أن الشدياق كان يعرف العبرانية . من ذلك قوله أن الدكتور لي كان مكلفاً « بمعارضة » الترجمة بالأصل الذي « اترجم » عنه (كشف ص ٧٢) . فالمعارضة المكلف بها الدكتور لي تعني

هنا مقارنة الكلام المترجم ومطابقته على الأصل العبراني الذي يترجم عنه الشدياق وليس مباشرة الترجمة ، وهذا دليل واضح في اعتقادنا على أن الشدياق كان هو الذي يقوم بالترجمة عن الأصل العبراني لا الدكتور لي . وقد وردت في كتاب الجاسوس على القاموس مثل هذه القرائن ايضاً . وكان معلمه وشقيقه اسعد يعرف العبرانية ويقتني بعض كتبها أما السريانية فكان يتقنها اتقاناً تاماً .

(٣٢) لوقا ، ٢٤ ـ ٣٠.

(٢٤) تعريب الاناجيل : الأب يوسف قوشاقجي ، ص ٦١.

(٢٥) محضر الجمعية ١١ شباط ١٨٥٠ .

(٢٦) الدكتور عبد النور ، مساهمة اللبنانيين ، ص ١١٢ .

(٢٧) المرجع ذاته ص ١١٤.

(٢٨) العيد المئوي لنقل المطبعة الأميركية الى بيروت ، ص ١٣ و ١٤ .

(٢٩) قال مارون عبود : « جاءت ترجمة الشدياق للتوراة أصح الترجمات بشهادة علامة زمانه المطران يوسف الدبس الشهير » (صقر لبنان ، ص ٩٤).

(٣٠) الدكتور عبد النور ، ص ٣٦.

(٣١) المرشد الى الكتاب المقدس ، ص ١١٤ .

(٣٢) نسيب وهيبه الخازن : مقدمة الطبعة الجديدة لكتاب الساق على الساق .

(٣٣) عجاج نويهض : بروتوكولات حكماء صهيون ، ج ٤ ص ٣٠٠ .

(٣٤) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ، ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٣٥) « المجلة » بالفتح ، كما جاء في سرّ الليال في القلب والأبدال هي الصحيفة فيها الحكمة ، وكل كتاب . وعبارة الصحاح : المجلة الصحيفة التي فيها الحكمة . قال ابو عبيد : كل كتاب عند العرب مجلة . وقال النابغة : مجلتهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب . (سر الليال ص ١٥١) . وقد اطلق الاتراك اسم المجلة على القانون الوارد ذكره سنة ١٨٧٠ . وينسب الطرازي في كتابه تاريخ الصحافة العربية إلى الشيخ إبراهيم اليازجي بأنه اشار باستعمال كلمة مجلة على دورية « الطبيب » التي اصدرها الدكتور بشارة زلزل سنة ١٨٨٤ . كما اطلق الشدياق اسم المجلة على الماغناكارتا .

(٣٦) كنز الرغائب ج ٥ ص ١٥٩ .

(٣٧) قالت جريدة « دمشق » : « أن كتاب مجلة الأحكام العدلية لم يعرب حتى الآن . على أن حضرة مدير الجوائب رأى اهمية تعريب هذا الكتاب ونشره ، فبذل عنايته واتم تعريبه في دائرة الجوائب . وقد طالعنا نسخة منه فرأينا الترجمة على غاية الدقة والربط والانتظام وحسن العبارة وسهولة تأدية المعنى » (الجوائب ٢٨ نيسان ١٨٨٠ العدد ٩٩٩) .

(٣٨) زين الدين ابن نجيم : كتاب الأشباه والنظائر ـ دار الطباعة العامرة ـ ص ٤٦ ، ٨٤، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، .

(٣٩) الجوائب ، العدد ١٠٦٦ .

(٤٠) كنز الرغائب ، ج ٥ ص ٣ .

(٤١) المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٤٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٦ .

(٤٣) الجوائب ، الاعداد ٥١١ ، و٨٣٨ و٩٢٨، و٩٢٩ .

(٤٤) سفر اعمال الرسل ، الفصل الرابع ٣٣ و٣٤ و٣٥.

(٤٥) الجوائب ، العدد ٥١٠.

(٤٦) للدكتور شبلي الشميل رأي آخر يقول فيه أن : « الاشتراكية ترجمة لفظة « سوسياليزم » الافرنجية وضعها كتابنا الأولون وجرى عليها الجمهور وهي خطأ في التعريب جر معه خطأ اعظم في الفهم والصواب إنها « الاجتماعية » وهي لا تعني اقتسام المال بل العدل في تقسيم المنفعة بين العمل ورأس المال » (مجموعة الدكتور شبلي الشميل ، ص ١٥٢) .

(٤٧) كشف المخبأ ، ص ٣٠٦ و٣٠٧ و٣١٢ .

(٤٨) جاءت هذه الكلمة في اعداد كثيرة منها العدد ١٢٩٤ .

(٤٩) الرائد التونسي ، العدد الأول .

(٥٠) كنز الرغائب ، ج ٧ ص ١٠٠ .

(٥١) «إنشاء مرعي وإنشاء العطار » ص ١٣٦ .

(٥٢) رشيد الدحداح : قمطرة طوامير ، ص ١٠ و١١ .

(٥٣) ديوان قبادو ، ج ٢ ص ٥١ .

(٥٤) الساق على الساق ص ٧١ .

(٥٥) المرجع ذاته ، ص ١٢ و١٣ و١١٤ .

(٥٦) المرجع ذاته ، ص ١١١ و١٧ .

(٥٧) جان بول سارتر : ما الأدب ،ص ٩٥.

(٥٨) علي بركات : مجلة العربي ، العدد ١٦٥ (آب ١٩٧٢) .

(٥٩) سارتر ، ص ٧٥ .

(٦٠) الساق على الساق ، ص ٥٢٧ و٥٢٩ .

(٦١) المرجع ذاته ، ص .

(٦٢) المرجع ذاته ، ص ٤٩ .

(٦٣) المرجع ذاته ، ص ٧٥ و ٧٦ .

(٦٤) المرجع ذاته ، ص ٢٠١ .

(٦٥) جاء في كتاب « عنوان الأريب » أن الانشاء العصري جاء أميل للارسال منه للسجع وهذا الأسلوب المنتشر الأن بكثرة بين أغلب كتاب العربية هو الأسلوب الذي انتهجه ولي الدين ابن خلدون في المقدمة وغيرها من مصنفاته الجليلة ، والفضل في إحياء هذه الطريقة بين حملة الاقلام في العصر الأخير يرجع بأكمله لشيخ الجماعة احمد فارس افندي صاحب جريدة الجوائب مناراً لهداية الكاتبين بين العالمين . (الشيخ محمد النيفر : عنوان الأريب عما نشأ في المملكة التونسية من عالم أديب : المقدمة) .

(٦٦) لويس عوض : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، ص ٢٨ .

(٦٧) منح الصلح : السخرية في الأدب العربي ، ص ٣٦ .

(٦٨) الجاحظ : كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ .

(٦٩) الساق على الساق ص ٣٤ .

(٧٠) المرجع ذاته ، ص ١٨٣ .

(٧١) المرجع ذاته ، ص ٥٩٢ .

(٧٢) المرجع ذاته ، ص ٢٤٠ ـ ٢٥٣ .

(٧٣) المرجع ذاته : ص ٤٨٣ .

(٧٤) المرجع ذاته ، ص ٧ و٥٠٩ .

(٧٥) ابن قتيبة : عيون الأخبار : المقدمة .

(٧٦) الضوطار : الرجل الذي يدخل السوق فيبيع ويشتري دون رأس مال .

(٧٧) الساق على الساق ، ص ١٢٤ - ١٢٧ .

(٧٨) ص ١٢٥ LUCIEN FEBVRE : Le problème de l'incroyance au 16e siècle , (La religion de Rabelais) .

(٧٩) ص ٢٧٦ ABEL LEFRANC : Rabelais .

(٨٠) ص ١٩٠ LUCIEN FEBVRE , op . cit. .

(٨١) الساق على الساق ص ٣٤٠.

(٨٢) الساق على الساق ، ص ٣٦٤.

(٨٣) كنز الرغائب ، ج ١ ص ٩٠ و٢١٩ ، و٢١٠.

(٨٤) الساق على الساق ، ص ١٥٩ و٣٦٤ ، وللمقارنة راجع Prière à Dieu لفولتير .

(٨٥) ابن أبي الضياف ، ج ٤ ص ١٠٢ و١٠٣ .

(٨٦) عمر الدسوقي : نشأة النثر الحديث ، ص ٣٠.

(٨٧) كشف المخبأ ، ص ١٠٦ و٣٠٧ و٣١٠ .

(٨٨) من حديث مسجل لابن العم عفيف الصلح رحمه الله يصف فيه مرامي جماعة المنتدي الأدبي في اسطنبول من تأسيس ناديهم ويتحدث عن تمثيلية الصموأل قال :

« وفي السنة الأولى ١٩٠٨ ، فكر البعض منا بالقيام بعرض رواية تمثيلية في العاصمة ، وفي مسرح من الدرجة الأولى. وفي الناحية التي يقال لها بي أوغلو رواية السموأل ، أو الوفاء العربي وكان القصد من ذلك هو إبلاغ جانب الحكم وجو الاستانة عن وجودنا وأثرنا وعملنا بواسطة هذه الرواية. وفعلاً تشكل قسم من إخواننا لتمثيل هذه الرواية حسب استعداداتهم ، ودعونا اكثر رجال الدولة ونواب العرب وبعض وجهاء العرب الموجودين مع قسم من الاتراك والقصد هو أن ننطلق بلغتنا في الاستانة ، ممثلين لشيء يعود امره للعرب ، وإن يكن الاختيار وقع على الصموأل فالأمر لم يكن شيئاً في تلك الأيام وكان الأقبال على المجيء كبيراً وقد ابهجنا ذلك واسترعى نظرنا ، ولكنه من جهة اخرى استلفت نظر ، لا أقول اكثر رجال الدولة ، إنما الرجال المختصين في وزارة الداخلية أو ما شابه . حضر بعض العاملين والمستشارين في الوزارة طبعاً ورئيس قوى الأمن . أما التمثيل فقد كان جميلاً حسب نظرنا في تلك الأيام وترك اثراً بالنفوس ، الملابس والسيوف واللغة الفصحى ، ولم نتمالك نحن ولا الممثلون تمالكوا شعورهم في اثناء التمثيل من نبرات الصوت .

وبعد أن انكشفت شخصيات بعضنا دعينا الى وزارة الداخلية فذهبنا اثنان : جميل الحسيني وأنا ، واجتمعنا بمدير الأمور السياسية في وزارة الداخلية . ثم دار البحث بيننا وأفهمنا الرجل أن المعاني التي أردنا إظهارها والظهور فيها في تلك الليلة صارت مفهومة لديهم ، مع اعتقاده بأننا لسنا غير مخلصين للدولة ووجودها والرغبة في تعزيز امرها في العالم ، إنما على كل الأحوال سجلت لنا خانة في الدوائر المختصة وأصبح هناك ملاحقة . إن لم أقل مراقبة ، على أمورنا ». والحديث طويل ومن أراد أن يؤرخ للمنتدي الأدبي أو عبد الكريم الخليل فعليه بمراجعة مجلة « قضايا عربية » (السنة السادسة العدد الخامس - أيلول سنة ١٩٧٩).

(٨٩) مارون عبود ، ص ١٦٧ .

(٩٠) مقدمة ديوان أحمد فارس .

(٩١) سر الليال في القلب والابدال ص ٥.

(٩٢) المرجع ذاته ، ص ٢٢ و٢٣.

(٩٣) المرجع ذاته ، ص ٥ و٦ - صدر الجزء الأول من الكتاب سنة ١٢٨٤ (١٨٦٧) في المطبعة السلطانية على

نفقة مصطفى باشا الخازندار وهو في نحو الستمئة صفحة من القطع الكبير . أما الجزء الثاني فلم ير النور بالرغم من تخصيص عشرة الاف فرنك من الخازندار أيضاً لهذا الغرض ويبدو أن المبلغ ذهب في تأسيس مطبعة الجوائب كما ذكرنا . وقد منح السلطان المؤلف وساماً رفيعاً مكافأة على هذا الكتاب الفذ .

(٩٤) جاء هذا الكتاب في نحو ٧٠٠ صفحة . والمقدمة من نحو مئة صفحة وفي المتن ٢٤ نقداً على قاموس الفيروزأبادي الفه الشدياق في فترات متقطعة في نحو ٣٠٠ صفحة ولما عطلت الجوائب ستة أشهر أضاف اليه ٤٠٠ صفحة وصدر سنة ١٢٩٩ (١٨٨١) في مطبعة الجوائب في حرف جميل وطبع جلي وورق فاخر على نفقة الأمير الهندي محمد صديق خان بهادر زوج شاه جهان ملكة بهوبال . وقد مدح الشدياق الأمير الهندي في مقدمة كتابه . وطبعت مطبعة الجوائب معظم كتب الأمير التي ألفها بالعربية .

(٩٥) مقدمة الديوان ص ٢ و٣ .

(٩٦) مقدمة الديوان ص ١٨ و٢٣ والساق على الساق ص ٣٢٧ وكنز الرغائب ص ١٣ .

(٩٧) أبو الضياف ج ٤ ص ١٧٨ .

مراجع الفصل الرابع

(١) كنز الرغائب ، ج ١ ص ٢٠٨- و٢٠٩ .
(٢) الجوائب ، العدد ٥٠٥ وكنز الرغائب، ج ١ ص ٢٤٠ .
(٣) كنز الرغائب ، ج ١ ص ٦٢ .
(٤) كشب المخبأ ، ص ٢٥٦ ، والساق على الساق ص ١٣٤ .
(٥) الساق على الساق ص ٣٦١ .
(٦) كشف المخبأ ، ص ١٠٠ .
(٧) الساق على الساق ص ٦٠٢ .
(٨) المصدر ذاته ص ٣٢٢ .
(٩) المصدر ذاته ص ٢٤٠ و٢٤١ .
(١٠) المصدر ذاته ص ٦٦ و٤٢٠ .
(١١) المصدر ذاته ص ٤٩٤ - ٤٩٦ و٥٧٧ .
(١٢) المصدر ذاته ص ٢٠ و٤٦٩ .
(١٣) المصدر ذاته ص ٦٦ و٦١٩ .
(١٤) كنز الرغائب ، ج ٢ ص ١٢٣ .
(١٥) الساق على الساق ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .
(١٦) نعيم عطية : معالم التربية الحديثة في البلاد العربية .
(١٧) الساق على الساق ص ١٦ .
(١٨) عبدالله المشنوق : تاريخ التربية ، ص ١٦٧ .
(١٩) الساق على الساق ، ص ١٥ وكنز الرغائب ، ج ١ ص ٨٨ .
(٢٠) كنز الرغائب ، ج ٢ ص ١٩٣ و٢١٨ .
(٢١) رايموند كارفيلد كيتيل : العلوم السياسية ترجمة فاضل زكي محمد ، ج ١ ص ٢٠٧ .
(٢٢) روبرت م . ماكيفر : تكوين الدولة حسن صعب ص ٤٠٢ .
(٢٣) الجوائب العدد ٣٦٩ وكنز الرغائب ج ١ ص ١٧٩ .
(٢٤) كشف المخبأ ، ص ٤٨ .

(٢٥) الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار ، ص ٧٥ .
(٢٦) كشف المخبأ ص ١٥١ .
(٢٧) الجوائب ، ٨٤٨ .
(٢٨) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ص ٤٢ .
(٢٩) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٧٥ .
(٣٠) البرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة : ترجمة كريم عزقول : ص ٩٢ .
(٣١) يقول البرت حوراني في كتابه الفكر العربي في عصر النهضة إن الجدل حول التنظيمات كان يجري في اسطنبول باللغة التركية وإنه لم يتردد في اللغة العربية سوى اصوات خافتة في هذا الشأن (ص ١٠٩). يبدو أنه من سوء الحظ أن كتابات الشدياق دفاعاً عن التنظيمات لم تكن من بين المقالات التي قرأها الحوراني ولا نظن أن الصحافة التركية كانت اكثر تركيزاً أو أوسع انتشاراً أو اعنف لهجة من الجوائب .
(٣٢) كنز الرغائب ، ص ٦٥ ، و١٧٦ و١٧٨ .
(٣٣) التنظيمات هي مجموعة قوانين ادخلت على الدولة العثمانية لتنظيم أمورها على أسس جديدة في جميع الميادين الادارية والقضائية والمالية والتعليمية وغيرها . وهي تنبثق من مرسومين سلطانيين صدرا عن السلطان عبد المجيد الأول ، الأول صدر سنة ١٨٣٩ ويعرف هذا المرسوم « بمنشور كلخانة » نسبة إلى قصر كلخانة الذي صدر فيه . والثاني صدر سنة ١٨٥٦ بعد حرب القرم ويعرف باسم « التنظيمات الخيرية » وقد استمرت التنظيمات مصدراً للقوانين الاصلاحية وتطوير جهاز الحكم الى يوم إعلان الدستور سنة ١٨٧٦ . وكان المقصود بهذه التنظيمات جعل الدولة أكثر عصرية وكان من ابرزها الغاء الاقطاعية وإنشاء محاكم نظامية وإصلاح شئون المحاكم الشرعية ومساواة غير المسلمين بالمسلمين . وقد قاومها المستفيدون من الأنظمة القديمة والرجعيون ورجال الدين . وزعماء هذه الاصلاحات هم رشيد باشاوعالي باشا وفؤاد باشا . وكان رشيد باشا يرد على مهاجمي التنظيمات بأن الأوامر السلطانية المبنية على المصلحة العامة هي مطاعة وواجبة التنفيذ لأنها صادرة عن « ولي الأمر » ولمصلحة الرعية .
أما « عهد الأمان » فهو مجموعة اصلاحات ادخلت على كيان الدولة التونسية في ٩ كانون الأول ١٨٥٧ في عهد الباي محمد وقد تكون مقتبسة من اصلاحات خط كلخانة واستكمل الاصلاح في ٢٦ نيسان ١٨٦١ بدستور نشأت بموجبه وزارة ومجلس تشريعي مؤلف من ستين عضواً معينين وجعلت للباي مخصصات ولم يعد له الحق بفرض الضرائب . ولكن الباي محمد الصادق لأسباب متعددة الغي هذه الاصلاحات في تموز ١٨٦٤ فهاجمه الشدياق مهاجمة عنيفة .
(٣٤) الجوائب ، العدد ٨٤٩ .
(٣٥) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ، ص ٩٧ - ٩٨ .
(٣٦) تكوين الدولة ، ص ٢٣٨ .
(٣٧) الجوائب : العدد ٨٤٨ .
(٣٨) يسمي الشدياق المجالس النيابية في فرنسا وبريطانيا بمجالس الشورى أو المشورة كما يسميها احياناً مجالس النواب .
(٣٩) كنز الرغائب ، ج ٢ ص ١٨٤ و٢١٣ .
(٤٠) سيد قطب ص ٤٦ .
(٤١) كنز الرغائب ، ج ١ ص ٦٠ - ٦١ و٢١٧ ، ج ٢ ص ١١٩ .
(٤٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة أنيس فريحة ، ص ١١٧ - ١٢٠ .
(٤٣) زين زين : نشوء القومية العربية ، ص ٥١ .

(٤٤) ساطع الحصري : ما هي القومية، ص ٥٦ .
(٤٥) أنيس الخوري المقدسي : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٤٦) كنز الرغائب، ج ٢ ص ٩ .
(٤٧) الجوائب ، في ما نظن ، أول من استعمل كلمة « الأمة العربية » في مؤداها السياسي الذي نعرفه اليوم ووصفت نفسها بأنها « لسان هذه الأمة » العدد ١٠٦٠ ـ ٦ كانون الأول ١٨٨١ .

بيبلو غرافيا

رأينا أن نلحق بهذه الدراسة قائمة بمؤلفات الشدياق وآثاره وما عثرنا عليه ومما كان مجهولاً حتى الآن . وقد ذكر بعض الباحثين قسماً من هذه المؤلفات والآثار وفاته القسم الآخر . والقوائم متغايرة عند المؤلفين فجمعناها في قائمة واحدة واضفنا إليها الجديد المجهول . وفي ظننا أن هذا الثبت هو أشمل ما يجده القارىء في هذا الباب بانتظار ما يكشفه الزمن والباحثون من سيرة هذا الكاتب الخصب .

آثاره المخطوطة

١ـ نطق السيط بالدرر واليواقيت[1] .

٢ـ الدرر اللجي في غلط المطران التتنجي[2] .

٣ـ المرآة في عكس التوراة[3] .

٤ـ مماحكات التأويل في مناقضات الأنجيل[4] .

٥ـ المسائل المفخمة في العقائد المبهمة[5] .

---

(١) مقامة تنسب إلى الشدياق في مدح الأمير بشير الثاني ـ المكتبة الوطنية في باريس .

(٢) ورد ذكره في رسالة الشدياق الى لجنة نشر المعارف المسيحية .

(٣) قال عنه بولس مسعد أنه « سفر ضخم يقع في نحو ٧٠٠ صفحة افرغه في قالب بديع لم ينسج على منواله وشرع في إنشائه على أثر ترجمة التوراة في لندن واتمه في آخر مرحلة من حياته . وكان قد أوعز إلى نجله ألا يطبعه إلا بعد وفاته ولكنه احترق مع ما احترق في بيته » .

(٤) في مكتبة الأوقاف في بغداد ويذكر الطرازي في « تاريخ الصحافة » كتاب « لا تأويل في الأنجيل » واغلب الظن أنه كتاب المماحكات نفسه .

(٥) هذا الكتاب مذكور في مقدمة مماحكات التأويل .

٦- اعتراضات انجيل شريف[٦].
٧- النفائس في إنشاء أحمد فارس[٧].
٨- الروض الناضر في أبيات ونوادر[٨].
٩- التقنيع في علم البديع[٩].
١٠-الاجرومية[١٠].
١١- ديوان رسائل[١١].
١٢- ديوان الشدياق المسمى « المغنى لكل معنى »[١٢].
١٣- منتهى العجب في خصائص لغة العرب[١٣]
١٤- مجموعة رسائل[١٤].

آثاره المطبوعة

١٥- الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية	مالطة ١٨٣٦
١٦ - « صليب المسيح » (كراس ترانيم)	مالطة ١٨٣٦
١٧- اللفيف في كل معنى طريف[١٦]	مالطة ١٨٣٩
١٨- المحاورة الانسية في اللغتين الانكليزية والعربية	مالطة ١٨٤٠
١٩- الاجوبة الجلية في الأصول النحوية[١٧]	مالطة ١٨٤١

(٦) ذكر اسم هذا المخطوط في قائمة مكتبة غنية هي مكتبة احمد وفيق باشا في اسطنبول عندما عرضت للبيع سنة ١٨٩٣ بعد وفاة صاحبها والكتاب ، كما جاء في وصفه ، نسخ بخط جميل جداً في ١٥٠ صفحة في بيروت سنة ١٢٨١ (١٨٦٤).

(٧) و(٨) و(٩) ذكر هذه المخطوطات الطرازي في كتابه الصحافة العربية كما ذكرها أيضاً بولس مسعد في كتابه فارس الشدياق .

(١٠) ذكره الطرازي .

(١١) ورد اسم هذه المجموعة في رسالة الشدياق إلى شقيقه طنوس في ٢٠ نيسان ١٨٥٦ .

(١٢) قال الشدياق في آخر « مقدمة الديوان » : « وكما إني خالفت الشعراء في تقديم هذه المقدمة على شعري فكذلك خالفتهم في تسمية مجموع ما نظمت وهو المغني لكل معنى ومن الله استمد الحسنى » .

(١٣) ورد اسم هذا الكتاب المخطوط في الساق على الساق وفي رسائله إلى أهله وفي بعض مقالاته في الجوائب وأخيراً في رسالته الى جودت باشا .

(١٤) تتألف من ٨٠ رسالة الى اهله واصدقائه ورجال الحكم في الاستانة ومصر وتونس وسوريا ولبنان .

(١٥) اتبعنا في التسلسل تاريخ الطبع .

(١٦) الطبعة الثانية : الاستانة ١٨٨١ .

(١٧) مختصر لكتاب بحث المطالب للمطران جرمانوس فرحات .

٢٠ـ تخطئة المطران التتنجي (مذكرات إلى لجنة (S . P . C . K .). مالطة ١٨٤٣.

٢١ ـ « زارت سعاد »[١٨] باريس ١٨٥١.

٢٢ـ السند الراوي في النحو الفرنساوي[١٩] باريس ١٨٥٤.

٢٣ـ الساق على الساق في ما هو الفارياق[٢٠] باريس ١٨٥٥.

٢٤ ـ كراس : الحمد لله[٢١] لندن ١٨٥٧.

٢٥ـ مقدمة ديوان أحمد فارس[٢٢] الاستانة ١٨٦٠.

٢٦ـ الجوائب الاستانة ١٨٦١ ـ ١٨٨٤.

٢٧ ـ الواسطة في معرفة أحوال مالطة[٢٣] تونس ١٨٦٦.

٢٨ـ سر الليال في القلب والابدال الاستانة ١٨٦٧.

٢٩ ـ فلسفة التربية والأدب [٢٤] الاسكندرية.

٣٠ـ غنية الطالب ومنية الراغب[٢٥] الاستانة ١٨٧١.

٣١ـ تصويب سهام التغليط على قطر المحيط[٢٦] الاستانة ١٨٧١.

٣٢ـ هوادي التأليف في تخطئة إبراهيم ابن ناصيف[٢٧] الاستانة ١٨٧١.

٣٣ـ صوت الرديف في شعر الشيخ ناصيف[٢٨] الاستانة ١٨٧١.

٣٤ـ أحاسن المقال في محاسن الشمال[٢٩] الاستانة ١٨٧١.

---

(١٨) طبعها بالعربية ، على الحجر وبخط يده المسيو دوغا عضو الجمعية الأسيوية مع ترجمتها إلى الفرنسية .

(١٩) بالاشتراك مع المسيو دوغا .

(٢٠) طبع الساق على الساق للمرة الثانية في مصر سنة ١٩١٩ والثالثة كذلك في مصر عن الطبعة الثانية وهي تحمل اخطاءها والرابعة في بيروت سنة ١٩٦٦ عن الطبعة الأولى وقدم لها الشيخ نسيب وهيبة الخازن والخامسة صدرت في بيروت ١٩٨٢ محررة من الاستطرادات اللغوية .

(٢١) كراس مطبوع على الحجر بامضاء انطونيوس الأميوني وهو للشدياق يحتوي على أربع قصائد ومقدمة في مدح رجالات تونس وخبر تعيينه لانشاء جريدة في تونس.

(٢٢) للمقدمة اصل مخطوط في مكتبة الأوقاف في بغداد.

(٢٣) الطبعة الثانية في الاستانة ١٨٨١ وجمعت في كتاب واحد مع كشف المخبا .

(٢٤) ذكره معجم سركيس وأنه صدر في الاسكندرية بدون تاريخ .

(٢٥) الطبعة الثانية في الاستانة سنة ١٨٨٨.

(٢٦) و (٢٧) و(٢٨) مذكورة في الجوائب العدد ٥٦٧ .

(٢٩) قال الشدياق عن هذا الكتاب : « هي رسالة أودعتها ذكر ما رأيته من محاسن جرمانيا الخفية عنا » (الجوائب العدد ٥٣١).

٣٥ـ مجموعة ولد الجوائب[٣٠]	الاستانة ١٨٧١ .
٣٦ ـ كنز اللغات[٣١]	بيروت ١٨٧٦ .
٣٧ ـ كشف المخبأ عن فنون أوربا	الاستانة ١٨٨١ .
٣٨ـ الجاسوس على القاموس	الاستانة ١٨٨١ .
٣٩ ـ المقامة البخشيشة[٣٢]	الجزائر ١٨٩٥ .

آثاره المترجمة

٤٠ ـ الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار	مالطة ١٨٣٦ .
٤١ـ تاريخ الكنيسة على وجه الاختصار	مالطة ١٨٣٩ .
٤٢ ـ كتاب الصلوات العامة مع مزامير داود لافاليته	(مالطة) ١٨٤٠ .
٤٣ ـ شرح طبائع الحيوان	مالطة ١٨٤١ .
٤٤ ـ كتاب المطران جول دفاعا عن العقيدة[٣٣]	لندن ١٨٤٨ .
٤٥ ـ كتاب الصلاة العامة وإجراء السرين والطقوس الكنسية	لندن ١٨٥٠ .
٤٦ ـ كتاب مزامير داوود[٣٤]	لندن ١٨٥٠ .
٤٧ ـ العهد الجديد [٣٥]	لندن ١٨٥١ .
٤٨ ـ الكتاب المقدس[٣٦]	لندن ١٨٥٧ .
٤٩ ـ مجلة الأحكام العدلية[٣٧]	الاستانة ١٨٧٩ .

(٣٠) ورد ذكر هذا الكتاب في الجوائب العدد ٦٣٥ وأنه وضع باللغتين العربية والتركية .

(٣١) جاء في معجم سركيس ص ١١٠٧ أنه قاموس فارسي وتركي وعربي .

(٣٢) باللغتين العربية والفرنسية ترجمة م . ارنو .

(٣٣) ورد في محضر الجمعية لسنة ١٨٤٨ .

(٣٤) و(٣٥) و(٣٦) مذكور على الصفحات الأولى من هذه الكتب إنها ترجمت حديثاً من اللغات الاصلية .

(٣٧) الطبعة الثانية ١٨٨٠ والثالثة ١٨٨٢ في الأستانة أيضاً وهي غير طبعات بيروت وغيرها .

المـراجـع

- **ابن أبي الضيـاف ، أحمد** : اتحـاف أهل الـزمان بـأخبار ملوك تـونس وعهد الأمـان ، تونس ١٩٦٦ .
- **ابن عاشور ، محمد الفاضل** : الحركة الأدبية والفكرية في تونس ، القاهرة ١٩٥٥ .
- **ابن الأحنف ، العباس** : ديوان الأحنف ، تحقيق الشيـخ يوسف النبهـاني ، الاستانـة ١٨٨٢ .
- **ابن بطوطة** : تحفة النظار في غرائب الامصار : تحقيق الشدياق ، الاستانة ١٨٦٢ .
- **ابن سراج** : مصارع العشاق ، الاستانة ١٨٨٣ .
- **ابن نجيم ، زين العابدين** : كتاب الاشباه والنظائر ، الاستانة ١٨٧٣ .
- **الابيـاري ، الشيـخ عبـد الهـادي نجـا** : النجم الشـاقب في المحـاكمـة بـين البـرجيس والجوائب ، القاهرة ١٨٦٢ .
- **الأحدب ، الشيخ إبراهيم** : رد السهم عن التصويب ، الاستانة ١٨٧٤ .
- **إسمـاعيل ، عـادل (وأميل خـوري)** : السياسـة الدوليـة في الشرق العـربي ، بيروت ١٩٦٤ .
- **اسطفان ، الخورسقف خيرالله** : زبـدة البيان أو خـلاصة تـاريخ أم مـدارس سوريـا ولبنان ، عين ورقا ، نيويورك ١٩٢٣ .
- **الأسير ، الشيخ يوسف** : رد السهم للشهم ، الاستانة ١٨٧٤ .
- **أصاف ، ميشال** : هو الباقي .
- **الأصفهاني ، أبو الفرج** : كتاب الأغاني ، طبعة بولاق ، القاهرة (١٢٨٥ هـ) .

- **الآمدي** : الموازنة بين أبي تمام والبحتري تحقيق الشدياق ، الأستانة ١٨٧٠ .
- **أمين ، قاسم** : تحرير المرأة ، القاهرة ١٨٩٩ .
- **الأميوني ، انطونيوس** : الحمد لله ، لندن ١٨٥٧ .
- **انطونيوس ، جورج** : يقظة العرب ، بيروت ١٩٦٢ .
- **باز ، رستم** : مذكرات ، بيروت ١٩٥٥ .
- **البحتري** : ديوان البحتري ، تحقيق الشيخ رسول النجاري ، الاستانة ١٨٨٢ .
- **البستاني ، المعلم بطرس** : قصة اسعد الشدياق ، بيروت ١٨٧٨ .
- **البستاني ، سليمان** : مقدمة الألياذة ، بيروت ١٩٠٤ .
- **بوست ، جورج** : نظام الحلقات ، بيروت ١٨٦٩ .
- **بولياك ، أ . ن** : الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، بيروت ١٩٤٨ .
- **بيرم ، محمد (الخامس)** : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار ، تونس ١٨٩٣ .
- **بيري ، توماس** : الصحافة اليوم ، بيروت ١٩٦٤ .
- **تامر ، الدكتور حبيب** : هذه تونس ، القاهرة ١٩٤٨ .
- **التحفة البهية** : تحقيق الشدياق ، الاستانة ١٨٨٤ .
- **الجزائري ، الأمير محمد باشا** : تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، ١٩٠٣ .
- **جودت ، أحمد باشا** : تاريخ جودت . ترجمة عبد القادر الدنا ، بيروت ١٨٩٠ .
- **حتي ، فيليب** : لبنان في التاريخ ، بيروت ١٩٥٩ .
- **الحرايري ، سليمان** : نحو لومون الفرنساوي ، ١٨٥٧ .
- **الحريري** : درة الغواص، ١٨٨١ .
- **حسن ، محمد عبد الغني** : احمد فارس الشدياق ، القاهرة .
- **حسون ، رزق الله** : النفثات ، ١٨٦٧ .
- **الحصري ، ساطع** : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ١٩٥٧ .
- **الحصري ، ساطع** : ما هي القومية ؟
- **حقي ، إحسان** : تونس العربية .
- **حوراني ، البرت** : الفكر العربي في عصر النهضة ، بيروت ١٩٦٨ .
- **الخازن ، نسيب وهيبة** : مقدمة الطبعة الرابعة لكتاب الساق على الساق ، بيروت ١٩٦٦ .
- **خلف الله ، محمد أحمد** : أحمد فارس الشدياق ، القاهرة ١٩٥٥ .

ـ الخورزمي : رسائل الخورزمي ، تحقيق الشدياق ، الاستانة ١٨٧٩ .
خوري ، رئيف : الفكر العربي الحديث ، بيروت ١٩٤٣ .
ـ خير الدين باشا (التونسي) : اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك ، المقدمة .
ـ داغر ، الخورسقف يوسف : بطاركة الموارنة ، بيروت ١٩٥٨ .
ـ الدبس ، المطران يوسف : تاريخ سوريا ، بيروت ١٩٠٥ .
ـ الدحداح ، رشيد : قمطرة طوامير ، فيانا ١٨٨٠ .
ـ الدميري ، كمال الدين أبو البقاء : حياة الحيوان الكبرى ، القاهرة ١٨٥٨ .
ـ الرافعي ، عبد الرحمن : عصر إسماعيل : القاهرة ١٩٢٣ .
ـ رستم ، اسد : بشير بين السلطان والعزيز ، بيروت ١٩٥٩ .
ـ رضا ، السيد رشيد : تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده ، القاهرة (١٣٢٤ هـ).
ـ الريحاني ، أمين : قلب لبنان ، بيروت ١٩٧٠ .
ـ زريق ، قسطنطين : الوعي القومي ، بيروت ١٩٤٠ .
ـ زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩٥٧ .
ـ زيدان ، جرجي : تراجم مشاهير الشرق ، القاهرة ١٩٢٢ .
ـ زين ، نور الدين : نشوء القومية العربية ، بيروت ١٩٦٨ .
ـ سالنامة ـ نظارت معارف عمومية ، الاستانة ١٨٩٧ .
ـ سامي ، عبد الرحمن باشا : رموز الحكم ، طرابلس الشام ١٨٩٤ .
ـ سيل ، القس سيكل : المرشد إلى الكتاب المقدس ، بيروت ١٩٥٧ .
ـ شبلي ، الأب انطون : الشدياق واليازجي ، بيروت ١٩٥٠ .
ـ الشدياق ، سليم فارس : كنز الرغائب في منتخبات الجوائب ، ١٨٧١ ـ ١٨٨٠ .
ـ الشدياق ، طنوس : أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٨٥٩ .
ـ الشرتوني ، سعيد : السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب ، بيروت ١٨٧٥ .
ـ شهاب ، الأمير حيدر أحمد : الغرر الحسان في أخبار أهل الزمان ، بيروت .
ـ شيخو ، الأب لويس : تاريخ الآداب العربية في القزن التاسع عشر ، بيروت ١٩٢٩ .
ـ صابات ، خليل : تاريخ الطباعة في الشرق العربي .
ـ صعب ، حسن : علم السياسة ، بيروت ١٩٦٦ .
ـ الصلح ، عماد : وثائق الشدياق (مجموعة) ، بيروت ١٩٧٩ .
ـ الصلح ، منح : السخرية في الأدب العربي ، بيروت .

ـ الصلاة العامة مع مزامير داوود ، لندن ١٨٥٠ .
ـ **صوايا ، مخائيل** : أحمد فارس الشدياق ، بيروت ١٩٦٢ .
ـ **الضبي ، المفضل** : امثال العرب ، تحقيق الشيخ يوسف النبهاني ، الاستانة ١٨٨٢ .
ـ **الطرازي ، الكونت فيليب** : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ١٩٦٧ .
ـ **الطغرائي** : ديوان الطغرائي ، تحقيق رسول النجاري ، الاستانة ١٨٨٢ .
ـ**عبد السيد ، مخائيل** : سلوان الشجي في الرد على إبراهيم اليازجي ، الاستانة ١٨٧٢ .
ـ**عبد النور ، الدكتور جبور** : الشدياق والطبقة العاملة في انكلترا ، بيروت ١٩٧٥ .
ـ **عبد النور ، الدكتور جبور** : مساهمة اللبنانيين في النهضة الحديثة ، بيروت ١٩٦٥ .
ـ **عبده ، الدكتور إبراهيم** : تاريخ الوقائع المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .
ـ **عبود ، مارون** : صقر لبنان ، بيروت ١٩٥٠ .
ـ **عبود ، مارون** : رواد النهضة الحديثة ، بيروت ١٩٦٦ .
ـ **العطار ، الشيخ حسن** : انشاء العطار ، الاستانة ١٨٨١ .
ـ **عطية ، نعيم** : معالم الفكر التربوي في البلاد العربية .
ـ**عودة ، القس فريد** ـ العمل الانجيلي في الشرق، بيروت ١٩٦٠ .
ـ **عوض ، لويس** : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث ، ١٩٦٢ .
ـ العهد الجديد(١) .
ـ العيد المئوي لنقل المطبعة الأميركية إلى بيروت .
ـ **فريزر بونداف** : مدخل إلى الصحافة ، بيروت ١٩٦٤ .
ـ **قبادو ، محمود** : ديوان قبادو ، تونس ١٨٧٨ .
ـ**قطب ، سيد** : العدالة الاجتماعية في الإسلام ، القاهرة ١٩٥٢ .
ـ**قوشقاجي ، الأب يوسف** : ترجمة الأناجيل وأعمال الرسل ، بيروت ١٩٦٤ .
ـ الكتاب المقدس(٢) .
ـ **كيتيل ، رايموند كارفيلد** : العلوم السياسية، بغداد ١٩٦٢ .
ـ **ماكيفر ، روبرت** : تكوين الدولة ، بيروت ١٩٦٦ .
ـ **محاضر لجنة نشر المعارف المسيحية** ، لندن ١٨٤٣ ـ ١٨٥١ .
مسعد ، الأب بولس : كتاب مختصر الشريعة .
ـ**مسعد ، بولس** : فارس الشدياق ، القاهرة ١٩٣٤ .

---

(١) و(٢) ترجمات فانديك واليسوعية والشدياق وطبعة روما ١٦٧١ .

- **مشاقة ، الدكتور مخائيل** : منتخبات من الجواب على اقتراح الاحباب ، بيروت ١٩٣٥ .
- **المشنوق ، عبدالله** : تاريخ التربية ، بيروت ١٩٣٧ .
- مطارحات مكيافللي ، ترجمة **خيري حماد** ١٩٦٢ .
- **المعلوف ، الفريق أمين** : معجم الحيوان ، القاهرة ١٩٣٢ .
- **المقدسي ، أنيس الخوري** : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث ، بيروت ١٩٦٠ .
- **المقدسي ، أنيس الخوري** : الفنون الأدبية وأعلامها ، بيروت ١٩٦٣ .
- **نجم ، الدكتور محمد يوسف** : أحمد فارس الشدياق ، بيروت ١٩٤٨ .
- **نجم ، الدكتور محمد يوسف** : فن المقالة ، بيروت ١٩٥٧ .
- **نجم ، الدكتور محمد يوسف** : المسرحية في الأدب العربي الحديث ، بيروت ١٩٥٦ .
- **نخلة ، أمين** : الحركة اللغوية في لبنان ، بيروت ١٩٥٨ .
- **نويهض ، عجاج** : بروتوكولات حكماء صهيون ، رأس المتن ١٩٦٧ .
- **النيفر ، الشيخ محمد** : عنوان الأريب ، تونس ١٩٣٢ .
- **هارون ، عبد السلام** : تحقيق النصوص ونشرها ، القاهرة ١٩٦٥ .
- **الهمذاني، بديع الزمان** : المقامات ، تحقيق الشيخ يوسف النبهاني ، الاستانة ١٨٨٠ .
- **الهمذاني ، بديع الزمان** : رسائل بديع الزمان ، تحقيق الشدياق ، الاستانة ١٨٨٠ .
- **اليازجي ، الدكتور كمال** : رواد النهضة الأدبية في لبنان ، بيروت ١٩٦٢ .
- **اليازجي ، الشيخ ناصيف** : رسالة تاريخية[1] .
- **الرائد التونسي** - العدد الأول (٢٢ تموز ١٨٦٠) . **الحياة** ، العدد ٥١٠٦ (كانون الأول ١٩٦٢) . **الأديب** - العدد ٣٨ (٢ شباط ١٩٧٨) . **العربي** - العددان ١٢٨ و١٦٥ . **مجلة المجمع العربي في دمشق** - العدد ٤٠ ، سنة ١٩٦٥ . **المسرة** - السنة ٣٩ (١٩٥٣) .

---

(١) رسالة في أحوال لبنان في عهده الأقطاعي حققها ونشرها الخوري انطوان الباشا المخلصي ونشرها تباعاً في مجلة المسرة والرسالة مؤرخة في ١٨٣٣ .

تواريخ في هجو التتنجي

[illegible]

سار التنجي مطران وكان قبلا مبان　　فخلعوه ذا شان يفوق كل الاقران

ثم انثنى للرهبان وصار فيهم فتان　　وهو عريق النقصان اجهل من في الاكوان

بجهل بفعل الشيطان مناظر في الاديان　　لحجب على الاذان هي لعمري عنوان

ما لديه برهان وحجة او سلطان　　ما عنده في كتمان وليس تحت الاوزان

لانه من خرسان اذا يحق قولان　　وما دليل الاحسان طول اللحى في الاذقان

ومن كبار الجبان اذا ادعى خصمان　　فانها للاقران تجري مجرى العيدان

وقال لغيران من ارض وسريان　　والعصيران الانسان مطالكم في خسران

قد كان يحوي الشبان فصار يحوي الغلمان　　وانتم في بحران ما منكم [illegible]

ومن جرا هذا الشان جانب رهط لبنان　　وانت يا ذا اللحان المنتشي بالاضغان

[illegible] تحو [illegible] العليان　　خطيلك فيا قدعان وعذنا في اعلان

وطاف اقصى البلدان يشبع بطنا جوعان　　[illegible] الاجوعان يحاول للرغفان

فآب وهو شبعان وكان منه ما كان　　فللطعام طحان وللنجوان خوان

أتزعم بعض النسوان بانه ذو بيان　　فخلت ذاك البهتان مكابدعوى الاتقان

وحكمة كلقمان ومنطق كحسان　　ما انت الا غضبان على [illegible]

يفيه كتب الصبيان وما اوتي لحسان　　هل [illegible] وسحبان يوم البيان سيان

هداية للحيران الطريق الايمان　　وهل يجاري الفرسان خنثى في الميدان

ان [illegible] واذكر بالاسكان　　وهل يكون الخصيان مصادما للصران

وان يبان من بان والرفح [illegible]　　وهل [illegible] كالدر او كالمرجان

وغير هذا البيان من غلط بالتبيان　　وهل سباخ الاطيان منبتة للريحان

اما كلام القرآن وغيره ما زان　　ومن عشاه البهران يجني اللب الرمان

[illegible] للاذهان [illegible] هذا الشان　　هبك اتخذت اخوان من محجم واخصان

يا المويل الاذان ويا [illegible]　　فاطرقوا للاذهان والسول الكتان

هذا العمري شيطان وزينة والرحمن　　وازلوك بنان ذا نخوة [illegible]

[illegible] وطمع في [illegible]　　ومنزلا ذا اكنان [illegible] البنيان

[illegible] ولكن بالملان　　فاجعل فيك ندمان لبسه كالادران

[illegible] زوجهم بالابان　　وما هذا بل الآن تخزى وتبقى خزيان

موشح في هجو التتنجي أيضاً

رسالة الشدياق إلى شقيقه طنوس يشكو فيها سوء سلوك زوجته

العدد الاول ۞ يوم الاحد رابع المحرم الحرام سنة ١٢٧٧ هجرية الملاقي ٢٢ يوليه الافرنجي سنة ١٨٦٠ مسيحية ۞ السنة اولى

۞ تبرز الصحيفة مرة في الاسبوع ۞

اثمانها في الحاضرة	ريالات
نقدا لصحايف سنة صفقة	٣٦
نقدا لصحايف ستة اشهر	٢٠
اثمانها لساير بلدان المملكة	
نقدا لصحايف سنة صفقة	٤٠
نقد لصحايف ستة اشهر	٣٣
اثمانها للممالك الاجنبية	فرنكات
ثمن سنة	٤٠
ثمن ستة اشهر	٢٥

ثمن الصحيفة الواحدة ريال



۞ اماكن بيعها في المملكة ۞

في الحاضرة، في القيروان، في صفاقس، في سوسة، في بنيزرت — في مكتب كراريس البوسطة

۞ اماكن بيعها خارج المملكة ۞

في الجزاير عند بستيد كتبي

في طرابلس الغرب عند التجار ريكارد اخوان

في الاسكندرية عند التاجر ميخايل سابا

في بيروت عند التاجر موسى موشعب

Si ricevono le Associazioni: In Parigi, da' Signori Maisonneuve et Cie, 15, quai Voltaire; — in Marsiglia presso i Signori Camoin frères; — in Malta presso il Signor Muir; nelle altre parti d'Europa presso i principali librari.

قسم رسمي

۞ الحمد لله صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ۞

الحروف الامتعاقبة فتستتبع اضاعة الزمن بكثرة الشغل وقصورا في الاثر عن عموم الافادة الكافي الكافة وقد استمرت على تلك الحال قاصرة بهذا العايق عن حد كمالها الى ان الهم الله طايفة من المكبين على استنباط الصنايع واستخراج جواهر العلوم * بغوص الفهوم * الى اختراع هاته المطابع الناشرة بايسر سعي في اقل زمن

والصحايف الرسمية الدايرة في كل اسبوع ۞ وتصرفها على نشر اوامره المطاعة ۞ واشاعة الاخبار التي تعم فايدتها بالاشاعة ۞ منزها لساحتها عن مجاراة الاغراض ۞ وتناول الاعراض ۞ صارفا مناظم انشايها ومراسم اقتفايها ۞ لنظر رييس المجلس البلدي ۞ الناظر في صلاح المدينة الحالي والابدي ۞ فبما ابديا المستكشف

الصفحة الأولى من العدد الأول للرائد التونسي

في ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٤٤

وقائع مصرية

يوم الثلاث

٢٦٨
١٩١٨

الصفحة الأولى من العدد الأول للوقائع المصرية

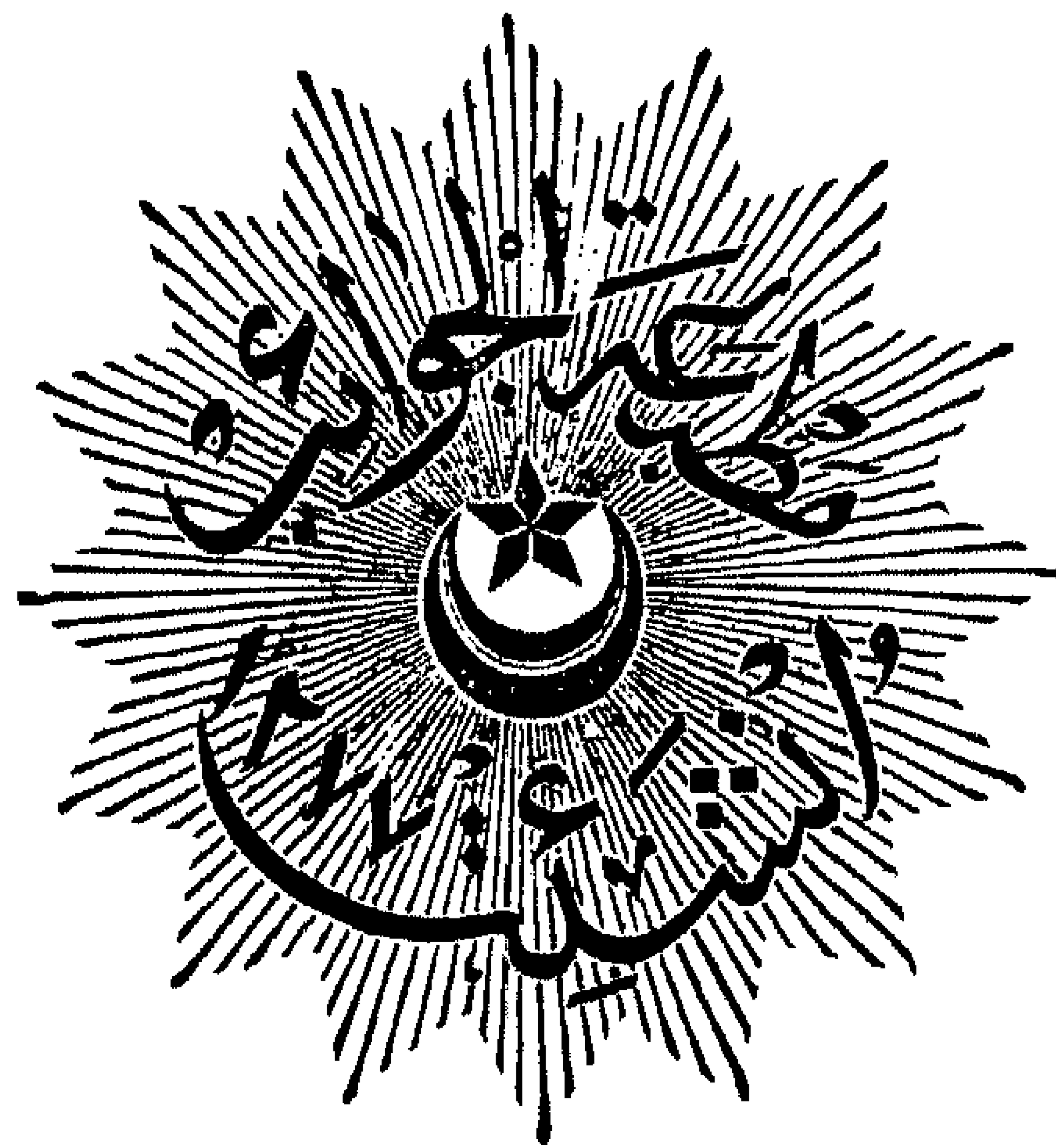
الحمد لله

ناظم هذه القصائد الاديب الخواجه فارس الشدياق كان سبب قدومه الى مدينة لندره من جزيرة مالطة هو وفضلاء قد سبقوه لاقدم جمعيات الانكليز اعني جمعية انتشار المعارف المسيحية ذلك الخدمة هي ترجمة التوراة والانجيل (الكتاب المقدس) فلما فرغ من هذا العمل وكان قد استنفد من عمره بالاشتغال به اضطر الى ان ينتظم في سلك معاشر كتاب اهل اللسان والبيان الا ان ذلك لم يكن ما تميل اليه نفسه ولم يجد به ... ما خطر بباله ان يولف كتابا منسوبا لنفسه ولقصد تخفيفا من رغبته من مكاتب التجار التي هي كالحلقة المفرغة اولها واخرها سواء ثم شرع في تاليف رحلة جامعة اودعها ذكر ما راى في بلاد الانكليز وغيرها وما ... من الاحوال والامور والاشغال والصنائع وجعل ذلك على سبيل الموازنة بينهم وبين الفرنساويين ثم استطرد الى ذكر المخترعات واصل ... والى عدد كل ما لهم معرفة من الناس وغيرهم والى فوائد اخرى جمة استخرجها من عدة كتب يعتمد عليها وما كاد يتم هذا الكتاب الا وقد ابدى قدوم السيد الجليل والمولى النبيل امير الامراء اللواء السيد خير الدين وزير البحر في مملكة تونس فبادر الى تهنئته بالوصول وشكره اولى هذه القصائد الاتي ذكرها فرفعت لديه موقعا حسنا وتكرم عليه بوظيفة حسنة عنده في تونس وهي مباشرة جرنال عمومي يشتمل على اخبار داخلية وخارجية معربة من اللغات الافرنجية وغير معربة فان المشار اليه عازم على انشاء مطبعة عربية في ذلك الطرف لاشهار الكتب والاخبار المفيدة والمأمول ان اول كتاب يطبع في المطبعة المذكورة يكون الكتاب المذكور اعلاه وفي عزمه الحاق تلك المملكة بالممالك الافرنجية في جميع ما بينها من اسباب التمدن ولا شك ان فوائد ذلك تتصل بغيرها من البلاد ولاسيما اشهار الاخبار الشائعة للامور المتجرية وغيرها وان الخواجه فارس المذكور يحصل من جهة الامير المشار اليه على وظيفة حسنة ووجاهة مضبوطة تنسيه ما كابده من تلك المرارات التي تقدم ذكرها وحيث في علمت ان الامير المشار اليه قد استحسن القصيدة التي مدح بها مع كونها بنت ليلة وجاز الناظم عليها جائزة وافرة رايت هنا من الصواب ان اشهرها مع غيرها مما سبق قدمه الخواجه فارس المذكور حين وصوله الى تونس الى جناب واليها المعظم والى بعض من رجال دولته وكلها مما يجب ذكره. حرر في لندره في ٨ حزيران ١٨٥٧

الخوري يوسف الاميوني

واولها:

رسالة الأميوني ويذكر فيها تعيين الشدياق مؤسساً للجريدة التونسية.



شعار مطبعة الجوائب يتوسطه شعار الدولة

المحتويـــات

الناشر : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
تلفون ٢٤٤٢٤٦ تلكس ٢٢٦٦١
ص.ب ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

أحمد فارس الشدياق

آثاره وعصره

قالوا في الكتاب

« يمتاز هذا الكتاب في أن صاحبه اخذ بالمقاييس العلمية الحديثة في البحث والتنسيق ، وجاء في سرد محكم وأسلوب رصين وبذا اصبح هذا الكتاب مستدركاً قيماً على جميع من كتب أو ألف حول أحمد فارس الشدياق » .

علي حيدر النجاري (الأديب)

« الكتاب خالص في موضوعيته ولا أثر للذات - ذات المؤلف - إلا في جانب واحد هو حب الحقيقة . وكان من هذا الحب للحقيقة أن اهتدى المؤلف إلى فن التمحيص ، التمحيص الذي لا يبدع فيه سوى الموهوبين من ذوي الذكاء الشديد والصفوة المختارة من الناقدين » .

عبد اللطيف شرارة (المصباح)

« عماد الصلح باحث « كامل الأدوات » تأتت له وسائل البحث العلمي جميعاً . ومن آيات اقتدار الباحث أن البحث ينساب منثالا ، متئداً . وهذا التمكن لا يكون إلا عن أصالة وبراعة نادرة » .

الدكتور اسامة عانوتي (النهار)

« يرسم هذا الكتاب خطاً للتنقل العقائدي يمتد من النشأة المارونية التي اتاحت للشدياق ما اتاحته لأي فتى ماروني من ابناء طبقته ثقافة عربية وأوروبية على الذروة ، ثم إلى البروتستانتية التي رأى فيها خروجاً على النظام الطائفي الصارم ، ثم الإسلام الذي رأى فيه دينَ الاغلبية وبالتالي روح الشرق » .

محمد فرحات (السفير)

« هذا الكتاب رحلة في مجاهل الشدياق هي الأولى من نوعها . والمهم الاشادة بالأسلوب العلمي غير المنحاز إلا لأصول البحث المنهجي . إن أجود ما في كتاب الصلح أنه كتاب علمي سهل القراءة » .

جهاد فاضل (الحوادث)

« منذ زمن بعيد لم اقرأ مطبوعة بمثل الشهية واللذة التي شعرت بها مع هذا الكتاب ، ولم تصدر من مطاحن بيروت ودور الوراقين فيها منذ برهة طويلة مطبوعة ذات قيمة مثله . عماد الصلح هو من دوحة شامخة تميزت غصونها بالثمار الشهية الناضجة . وهو ليس في حاجة إلى قوة تدعمه ليملأ الكرسي التي انتدب نفسه للجلوس عليها بين المؤرخين الصادقين العارفين » .

عجاج المهتار (النهار)

من رسالة خاصة إلى المؤلف : « ان عملك عمل « صلحي » صارخ اي إن فيه الآيات البيّنات - ومَن اكرم من كرامكم فيها وبها - طوال عمري ما عرفت مؤلفاً عربياً اكمل بحثك بمثل بحثك : حب للموضوع مقيّد بالصدق ، وجَلَد على التقميش مربوط بالميكروسكوبية وضمير في النقل ، وحذر الحكمة في الرواية . ومن حقي ان ازعم ان ما من مؤرخ لسيرة حلق تحليقك » .

يوسف ابراهيم يزبك